# خواطرٌ شواذ

بقلم

عمرو الشاعر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# ليلة عادية

كانت الساعة قد جاوزت التاسعة ليلا، وبدأت أشعر بالإرهاق الشديد، فأخذت أفرك عيني وأتثاءب بملء في، فكرت للحظة أن أنادي الممرض عبد اللطيف وأخبره أن يصرف المريض الأخير، إلا أنني تراجعت عن هذا الخاطر سريعا فيمكنني أن أنتهي من هذا المريض ثم أعود فأقضي ليلة سعيدة دافئة مع أسرتي.

سرعان ما ناديت الممرض وطلبت إليه إدخال المريض، وما أن انهيت كلمتي حتى طرق الباب وفتحه بسرعة ودخل محييا:

السلام عليكم ورحمة الله.

رددت السلام. من النظرة الأولى شعرت أني أعرفه.

ذلك الشعور السخيف الذي تصادفه عندما تقابل شخصا، وتتأكد أنك كنت تعرفه ولكن أين ومتى، الله أعلم. تتمنى في قرارة نفسك أن لا يكون يعرفك، وألا يكون صديقا قديما حتى لا تصاب بالإحراج.

ولكن على أي حال فهذا لا يمكن أن يكون صديقا قديما فهو يصغرني على الأقل بخمسة عشر عاما، والحمد لله لم يكن يحمل تلك النظرة المتلهفة التي تحمل معنى: أنا أعرفك، ألا تتذكرني!

في الواقع لم تكن نظرته تحمل أي معنى، فلقد كان حاد الملامح جادها إلى درجة عجيبة ولكنه على الرغم من ذلك كان يحمل وجها بشوشا نوعا ما.

طلبت إليه أن يجلس قبالتي، وكالعادة وبصوت ودود حنون روتيني أتعامل به مع كل المرضى سألته الأسئلة المألوفة:

ما اسمك؟

فأجاب بصوت عميق أكاد أشتم منه رائحة بئر:

**عامر محمد.**

**لم يفتني عمق الصوت هذا، ولكني لم أعلق وسألته:**

**كم عمرك؟**

**فأجابني بنفس الصوت:**

**ثلاثون عاما.**

**رفعت رأسي مندهشا وتأملته، كان يبدو أكبر من ذلك بكثير، فما أن دخل الغرفة حتى خمنت أنه في الأربعين أو حتى في أوائل الأربعينيات من عمره، كان طويل القامة عريض المنكبين بشكل عجيب وله بطن ليس بالكبير، كان وسيما على الرغم من ملامحه الحادة ولحيته الكبيرة غير المهندمة إلى حد كبير.**

**لاحظ نظراتي وتأملي فعلق قائلا:**

**نعم أبدوا أكبر من ذلك بكثير.**

**حاولت إخفاء بحلقتي بوجهه فقلت بسرعة:**

**وما المشكلة؟ هناك الكثيرون يحملون ملامح لا تدل على أعمارهم بأي حال، أنا على سبيل المثال كنت أحمل ملامح لا تدل على عمري عندما كنت صغيرا، وكنت أُقيم دوما بسن أكبر من سني.**

**صمتُ لحظة ثم ابتسمت قائلا:**

**وكان هذا نافعا نوعا ما في مرحلة الشباب، أما الآن فنحن نحاول أن نبدو أصغر قدر الإمكان.**

**لم يبتسم واكتفى بهز رأسه مؤيدا كلامي، فتنحنحت وواصلت الأسئلة التقليدية: ماذا تعمل؟**

**لاحت على وجهه ابتسامة ساخرة، تحمل في نفس اللحظة كثيرا من المرارة، ولكن سرعان ما اختفت كما ظهرت، وبعد لحظات أجاب:**

طبيب نفسي.

هنا تجمد القلم في يدي، وأخذت أحملق فيه كثيرا، وتساءلت في نفسي:

طبيب نفسي! ما هي التجارب التي مر بها هذا الرجل حتى يضطر إلى المجيء إلى طبيب نفسي مثله؟ كيف يسقط الطبيب النفسي في الفخ؟

قاطع أفكاري وسألني:

ألا تتذكر هذه الملامح يا دكتور عبد العليم؟

رددت سريعا بدون مواربة:

أنا أظن أني أعرفك ولكني لا أتذكر تحديدا متى قابلتك.

رد بذات الوجه الجامد:

لقد التقينا كثيرا، مرارا وتكرارا أستاذي العزيز، ولكن كان هذا عندما كنت طالبا في الجامعة، ألا تتذكر الطالب الهادئ الكثير الأسئلة الذي لا يتكلم إلا بحساب؟

ركز سيدي الفاضل واحلق لحيتي والغ بطني وضيق أكتافي وستتذكرني سريعا.

قبل أن ينهي كلامه قفزت ملامحه القديمة إلى رأسي، فرددت بسرعة:

نعم نعم، لقد تذكرتك؛ أنت عامر محمد صاحب: "سيدي الفاضل" الشهيرة، ولكن مع كثير من التعديلات والتغييرات.

رد بنفس الوجه الجامد:

نعم هو بعينه سيدي الفاضل.

فقلت له وأنا لا أزال أشعر ببهجة تجدد اللقاء:

اسمح لي أن أسألك بصفتي أستاذ يسأل تلميذه الناجب، ماذا فعل بعد تخرجه في الكلية؟

أجابني بدون أدنى تعبير:

لا شيء غير مألوف، عملت أو بمعنى أدق تدربت عند الدكتور إبراهيم محمود، الذي وفر لي سفرا إلى إحدى دول الخليج، حيث جنيت بعض المال، ثم عدت لأفتتح عيادة مثل عيادتكم هذه.

وبحمد الله نالت شهرة معقولة جدا بالنسبة لمن هم في عمري، هذا كل شيء.

سألته في ريبة قلوقة:

مبارك لك ما فعلت وما جنيت، ولكن لم لا يبدو عليك السرور أو الفخر لما فعلت، فلقد أنجزت في زمن قصير ما يحتاج الكثير إلى سنين طوال من أجل إنجازه؟!

نظر إلي نظرة طويلة مثبتا عينيه في عيني، وقال:

هل تعتقد أن هذا يستحق الفخر أو السرور؟

فرددت بحدة، متعمدا أن أثبت عيني في عينيه:

أولا: لا تستعمل هذا الأسلوب معي فأنا أستاذك،

ثانيا: في نظري نعم، أرى أن هذا يستحق السرور على الأقل،

ثالثا: أهم ...

قاطعني بلطفٍ حازم:

لا تظن أني أتعمد أن أطبق أيا من طرق الأطباء النفسيين سيدي الفاضل، ولكن هذا ما يستدعيه الموقف.

زفرت زفرة طويلة، وبعد لحظات صمت متبادل، ضغطت على الزر الموجود على المكتب فدخل الممرض، طلبت إليه أن يعد لنا كوبين من عصير البرتقال وبعض البسكويت، ثم التفت إلى تلميذي السابق وضربت على فخذه قائلا:

مرحبا بك تلميذي العزيز، كم هي صغيرة هذه الدنيا! ها نحن نلتقي بعد سنين طوال، صدقني أنت لا تعرف كم يُسر المعلم عندما يرى تلاميذه ناجحين في حياتهم.

رد بهدوء:

صغيرة جدا سيدي الفاضل، أصغر مما تتوقع ومما يتوقع أي أحد.

سألته وفي صوتي نبرة من الحرج:

هل يمكن أن أسال: هل سبب الزيارة شخصي، وأردت أن تقوم بمفاجأة لأستاذك فدفعت ثمن الكشف أم ....

قاطعني مرة أخرى:

معذرة أستاذي الفاضل، لا داعي للمجاملة، أنا أجزم أنك أيقنت من اللحظة الأولى التي رأيتني فيها أنني أتيت من أجل العلاج، ولكنك لا تريد أن تحرج تلميذك النبيه الناجب، الذي يفترض فيه أن يكون طبيبا، يستشيرك في أسوأ الأحوال، وها هو ذا يجلس أمامك في مقعد المريض.

حاولت أن أداوي الموقف مع علمي أن مواراتي لن تجدي معه، ولكن في هذه اللحظة طُرق الباب ودخل الممرض يحمل العصير والبسكويت فأخذتهما منه ثم صرفته.

التفت إلى تلميذي وقلت له:

لا عليك، تناول العصير ثم نتحدث بعده.

نظر إلى العصير طويلا وابتسم في سخرية لم أدر لها معنى، ثم شرب الكوب جرعة واحدة، ثم تناول ثلاث قطع من البسكويت وأخذ يتأمل الغرفة منتظرا أن أنهي حظي من المطعوم.

لم أكمل العصير ووضعته جانبا وقلت له:

مرحبا بك على أي حال يا عامر، واسمح لي أن أسألك: كيف وصل بك الحال إلى هذه الدرجة؟ كنت أظن أنك أذكى من أن تقع في الدرج، كنت أحسبك ممن يعبرون الطريق وهم مغمضو الأعين؟

قال لي في مرارة:

نعم لقد كنته، ولكن ما قابلته كان أكبر وأكثر بكثير مما يتحمله أي عقل، فوصلت إلى ما أنا فيه الآن، ولكن في بادئ الأمر أود أن أنوه لك سيدي الفاضل أنني ما أتيت إليك طلبا لعلاج، وإني ما أتيت إليك إلا لأروي لك ما مررت به، ولأسألك: ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني، أما بخصوص منظري ومظهري فأنا حر تماما في مسألة كيف أبدو.

نظرت إليه نظرة حائرة ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة معاتبة قائلا:

أصبحت حادا يا عامر فلم تكن هكذا في أيام الجامعة.

أطرق لثانيتين ثم قال بعد أن رفع عينيه ونظر إلى بكل ثبات:

أنا آسف أستاذي الفاضل.

نظرت إلى ساعتي وقمت وأدرت جهاز المسجل وقلت له:

لا عليك تلميذي النجيب، يمكنك أن تبدأ الحكاية يا شهرز... أقصد يا عامر.

قال وقد لاحت على وجهه ابتسامه قصيرة شعرت أنه يجاملني بها:

لا تزال كعهدي بك دوما يا أستاذي لا تترك فرصة للمزاح والتعليق إلا واغتنمتها، ولكن على أي حال سأبدأ الحكاية والرواية، ولكن قبل أن أبدأ أرجو منك أن تتصل بزوجك الفاضلة، وتطلب إليها أن تخلد إلى النوم وألا تنتظرك اليوم، فستستضيفني الليلة عندك في العيادة.

نظرت إليه وقبل أن أرد على قوله، قال مبتسما:

لا تعتقد سيدي الفاضل أني أبحث عن مأوى، لا، ولكن ما سأرويه لك الليلة لا يحتمل التقسمة أو التجزئة بل حتما ولزاما أن تسمعه كله الليلة، وعلى مرة واحدة من دون تقطيع.

حاولت أن أتبرم أو أعتذر منه ولكن نظرته الحازمة الراجية والشوق القديم دفعاني إلى الموافقة.

قمت بخطى متثاقلة إلى الهاتف واتصلت بزوجي لكي أعتذر منها واشرح لها الموقف. علا صوتها في الهاتف معترضة على ما أقول فنظرت إليه فوجدته قد قام ليتجول في الغرفة ويتأمل الصور المعلقة على الحيطان، ففهمت أنه لا يريد أن يسمع المكالمة، فهذه المكالمة مهما كانت من خصوصياتي، ولكنه كان على الرغم من ذلك يبتسم.

ما أن أنهيت المكالمة وجلست إليه حتى أتى وجلس قبالتي، وقال:

كل النساء واحدة.

ثم غمز مبتسما وقال: ستتصل بك مرة أخرى.

وفجأة اكتست ملامحه بجدة صارمة وقال:

هل يمكن أن تبدأ شهرزاد الكلام؟

قلبت شفتاي وهززت كتفي وقلت له:

نعم ولكن بشرط أن تنتهي مبكرا عن الميعاد الذي كانت تنهي بها مع شهريار، فشهريار القرن الحادي والعشرين في الستين من عمره ولا يتحمل السهر.

رد بصوت يحمل كل معان الاعتذار الحقيقية:

معذرة سيدي الفاضل، أنت معروف بقدرتك الكبيرة على عدم النوم، وأبحاثك وثقافتك وحديثك خير برهان على ساعات نومك، لذا فإذا بدأت شهرزاد الكلام المباح وغير المباح فلن تنتهي إلا في الوقت التي تنهي فيه دوما وهو إذا أذن الديك للفجر، فهنا يدركها الصباح فتسكت عن كل أصناف الكلام، مباحه ومحرمه.

قلت له في صوت رافض:

نعم أنت تلميذي ولك حق علي، ولكني كنت أعتقد أننا سنتأخر بعض الشيء في العيادة أما أن نظل إلى مطلع الفجر فهذا كثير، كثير جدا.

قال بأسف شديد:

لا بد أن تسمعني اليوم يا أستاذي الفاضل، فعندي من الأسباب الكافية ما يجعلني أن أنهي وأروي كل ما عندي اليوم أو بمعنى أدق الليلة.

نظرت إليه طويلا وعلمت أني لن أعود إلا بعد أن أسمع ما يقول، فلقد استيقظ الفضول العلمي بداخلي، حتى غلب على الرغبة في الراحة والعودة إلى الأسرة، فقلت له:

إذا كنت مصمما فلا بأس، إبدأ يا عامر في الرواية ولنسمع منك ما لديك.

نظر إلى نظرة تحمل معان كثيرة، ثم أعطاني ظهره واتجه إلى النافذة ووقف أمامها.

شعرت أنه ينظر إلى الفضاء ويتأمل النجوم وظل على هذا الحال لمدة دقيقة كاملة ثم قال:

أنا شاذ!!

فجرت الكلمة التي سمعتها سكون الغرفة الذي استمر لدقيقة كاملة ولم يقطعه إلا صوت عقارب الساعة، وانحبست الكلمات في حلقي فلم أدر ما أقوله له، وأخذت أفكر كيف انحدر مثل هذا الشاب الناجح الفائق الهادئ الخلوق إلى هذا المستنقع، وقبل أن تتداعى أفكاري وتنسحب إلى الاحتمالات التي قد تؤدي به إلى هذا الطريق قاطعني بقوله:

هكذا بدأت القصة.

نظرت إليه حائرا وقلت:

كيف تبدأ القصة بكونك شاذا؟! لا بد أن هناك ما أدى إلى هذا الوضع ال .... ال... ثم لم أجد بدا إلا أن أقول: الشاذ.

عندها التفت إلي بنفس الوجه الجامد، وبدون أن ينبس ببنت شفة عاد إلى المقعد وجلس جلسة منتصبة، وبعد نصف دقيقة قال بنفس الصوت الجامد: اطمئن يا أستاذي الفاضل، فأنا لم أصبح شاذا ولكن هكذا بدأت القصة.

نظرت إليه نظرة عميقة متفحصة ثم قلت بكلمات تعمدت أن تكون بطيئة:

لعلك كنت تقصد أن القصة بدأت عندما قابلت شخصا شاذا؟

فقال بعد أن بدل جلسته:

لا تزال على عهدي بك دوما، نعم، هكذا بدأت القصة، ولكن مع بعض التعديلات فأنا لم أقابل شخصا واحدا شاذا، وإنما قابلت عدة أشخاص غريبي الطباع عجيبي الأطوار، يصر كل منهم على أنه شاذ.

فقلت له مستغربا:

وأثروا فيك هذا التأثير، لدرجة أنك تغيرت هذا التغير الكبير؟

فأجابني: نعم، أثروا في لدرجة لم تر أنت منها شيئا حتى الآن.

عدلت وضع مقعدي حتى صرت أمامه مباشرة وقلت له:

كلي أذان صاغية، لدي رغبة وفضول علميان يدعواني إلى الإنصات إليك.

ما أن أنهيت الجملة حتى شعرت أنه ينظر إلى أذني بشكل عجيب، دفعني إلى تحسسهما، فما لبث أن هز رأسه ثم قال:

قبل أن أبدأ حكايتي مع الشواذ لا بد أن أعود بالحكاية قليلا إلى الوراء حتى أذكر لك المرحلة السابقة لتعاملي مع هؤلاء الشواذ، حتى تكون على بينة من الأمر.

قلت له وقد أمسكت قلما وورقة في يدي: كما يحلو لك، تفضل بالرواية.

اعتدل في جلسته مرة أخرى ثم بدأ الرواية:

وضحت لك كيف نجحت في افتتاح عيادة معقولة في منتصف القاهرة، فأنت تعلم أن سوقنا غير رائجة إلا في المدن الكبيرة، حيث يقدر ويفهم الناس ما يعنيه كلمة طبيب نفسي وتحليل نفسي.

هزرت رأسي موافقا ولم أرد أن أقاطعه، فواصل الحديث:

بفضل الله والدراسة التي درستها على أيدي بعض الأساتذة الفضلاء أمثالك، وبفضل إطلاعي والفترة التي عملت فيها عند الدكتور إبراهيم ثم سفري إلى الخليج اكتسبت من كل هذا خبرة عملية جيدة جدا بالنسبة لمن هم في سني، ثم عدت وافتتحت العيادة في موقع رائع في القاهرة الثرية.

وبحمد الله كانت العيادة تدر علي دخلا أكثر من ممتاز ومارست حياتي بشكل طبيعي، فتزوجت ونجحت في الحصول على شهرة كبيرة بسبب هدوئي الشديد الذي تعرفه، والذي استطعت أن أنميه بعد العمل، وكانت الزبائن مختلفي الأهواء والمشارب والمشاكل.

سكت قليلا عن الكلام وعلى الرغم من أنه لم تعجبني كلمة الزبائن هذه ولكني صمت وتركته يواصل حديثه، ولما استمر الصمت كثيرا هممت بالتعليق، ولكن ما أن فتحت فمي حتى واصل الحكاية، فسكت وأنصت إليه.

على الرغم من أن المشاكل والأسباب والعقبات التي تسبب المتاعب النفسية كثيرة إلا أني لاحظت أن هناك عنصرا غريبا في المجتمع يزداد في عيادتي بشكل غير مألوف، ولم أكن قد قابلت أي واحد منهم طوال حياتي .. القصيرة.

قلت له:

لعلك تقصد هؤلاء الشواذ؟

هز رأسه نافيا ثم قال:

لا، خانتك فراستك هذه المرة، هؤلاء الشواذ لا يجمعهم عنصر واحد، بل هم مختلفي تمام الاختلاف على الرغم من توافقهم الشديد.

توقف لحظات ثم رفع رأسه إلي قائلا:

لعلك كنت تحسبهم شواذا؟ لا ليسوا شواذا كما تعتقد ولكنهم ... إنهم ... شواذ.

فهمت من كلامه أن الشواذ الذين يتحدث عنهم ليسوا شواذا كما نفهم نحن من هذا المصطلح ولكن يعني به شيئا آخر، فهززت رأسي مشيرا بأن نعم، لقد فهمت، ثم سألته:

ما هو هذا العنصر الغريب الذي لاحظت ازدياده في عيادتك بشكل كبير؟

فقال لي بعد أن عاود النظر في الأرض مرة أخرى:

الملحدون.

سكت لحظة ثم عاد فقال وهو يهز رأسه:

لا لا، الملاحدة.

تعجبت كثيرا من فعله وقوله، فسألته:

وما الفارق؟ الملاحدة هم الملحدون، أليس كذلك؟

فهز رأسه بكل ثقة نافيا:

هم لا يستحقون أن يسموا "ملحدون"، أقصى ما يستحقونه وما يمكن أن يصلوا إليه هو "ملاحدة".

سألته متعجبا:

وما الفارق؟ أنت لم توضح بعد؟

شعرت أنه سيثور وينفخ ويقول لي: الأمر أوضح مما يكون سيدي الفاضل، لست أدري كيف لم تلحظ هذا!

ولكنه لم يفعل أيا من هذا، كل ما فعله أنه هز كتفيه وقال بكل بساطة:

ملحدون جمع مذكر سالم وهذا لا يكون إلا للعاقل.

ثم ابتسم ابتسامة عريضة ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة عريضة، كأنني أو كأنه قال مزحة كبيرة، ولكني فهمت ما كان يقصده فلم أشأ أن أناقشه في هذه النقطة، فأشرت إليه أن أكمل الحديث، فاعتدل في جلسته وواصل الحكاية:

لاحظت أن هؤلاء الملاحدة يمثلون نسبة من المرضى، وأنا والحمد لله كنت قد قرأت كثيرا عن هذا الاتجاه اللاعقلاني، ولكني لم أكن قد قابلت أيا من أتباعه أثناء دراستي، وما لا تعرفه سيدي الفاضل أنني مدمن لما يسمى الجدل، مدمن بكل معاني الكلمة، نعم هي عادة سيئة ولكن لم أحاول أن أقلع عنها ففيها الكثير من المنافع.

المهم ما أن بدأت ألتقي هؤلاء الملاحدة حتى عادت إلي شهوة المجادلة، والتي كنت أحسب أن سنوات العمل قد قتلتها أو حتى أصابتها بالشلل الرباعي، ولكن مع ظهور أول زبون من هؤلاء، استيقظ عملاق الجدل النائم ونفض من فوق أكتافه أطنان التراب الفكري، وقام بإعادة توصيل شرايينه بكل أجزاء جسمي وبكل مخزوني الفكري، حتى شعرت أني مجادل يمشي على الأرض!

ومن هذه المرحلة بدأت أشعر بكثير من المتعة في العمل، وببعض التغيير بدلا من الجدول اليومي الرتيب، والمشاكل العادية التي يقابلها الناس فتسبب لهم مشاكل نفسية تلجأهم إلى الطبيب النفسي.

ثم ابتسم ورفع رأسه إلي وقال:

ولولا ذلك ما عمل أمثالنا.

فقلت له: نعم، هناك الكثير من المشاكل التي يمكن حلها بسهولة، ولكن لا بد أن تراعي أن هؤلاء لا يستغرقون معنا الكثير من الوقت، ولكن على أي حال كونك بدأت تشعر بمتعة في العمل هذا شعور جيد ويؤدي إلى الإبداع.

أجابني بابتسامة تحمل كل معاني المرارة:

نعم وللأسف، فلقد أبدعت في هذه المرحلة أيما إبداع، فحاورتهم وجادلتهم وقرعتهم على رؤوسهم الفارغة في أثناء علاجي لهم، فلم أنس حقهم علي فهرب منهم بعضهم ورددت بعضهم والحمد لله إلى حظيرة الإسلام والهدوء والشفاء.

تعجبت من قوله أيما تعجب، وقلت:

وما المشكلة في هذا إذن؟ أنت كما تقول محاور أو مجادل جيد، وأقنعت بعضهم وهرب منك آخرون؟

أجاب بعد أن عاد وجهه إلى طبيعته الخالية من الانفعالات والمعالم:

نعم، أنا والحمد لله لم أدخل في مجادلة وأُهزم فيها، قد لا أفوز ولكن على الأقل هناك تعادل، المهم أن هذه هي المشكلة، بعد أن جادلت وتفوقت وفزت، دخلني غرور عجيب وكبر مريب، وتهت بنفسي زهوا، وتوهمت أنني أتيت في الدين بابا لم يأته أحد من قبلي، فعلى الرغم من أنني لم أكن متعمقا في الدين بالقدر الكافي ولكنك كنت تعلم أني إنسان ملتزم خلوق أحافظ على الصلوات مثل كثير من المسلمين، ولكن مع هذه الانتصارات المتتالية أخذني العُجْب بعقلي إلى مفاوز بعيدة، فوضعت نفسي في غير موضعها، وللأسف لم أحاول أن أتراجع، بل سولت لي نفسي أن هذا ما أستحقه وأن هذه هي المرتبة التي ينبغي أن أكون عليها.

ما أن فرغت من تدوين الملامح الأساسية لما يقول، حتى سألته:

وماذا حدث بعد ذلك؟

لاحظت تردده وحيرته، وشعرت أنه محتار فيما يقول، فسألته:

ألا تعرف من أين تبدأ؟

هز رأسه نافيا، وقال:

لا بالقطع، أنا أعرف من أين أبدأ ولكن لا أعرف كيف أصف، ولكن ... على أي حال لا بد من عرض ما شعرت به ورأيته، بعد أن أخذني الغرور والعجب بعد الانتصارات المتتالية على هؤلاء الملاحدة، لم أرجع إلى الله لأحمده على التوفيق والتسديد ولكن ازداد عجبي وغروري وهنا كان لا بد من نزول العقاب، ولست أدري إذا ما كان الذي قد حل بي هو عقاب أم امتحان أم ابتلاء ولكنه كان سريعا ومكثفا لدرجة لا تحتمل، لذا صنفته بعد أسابيع من بدايته أنه عقاب، عقاب ما كنت أعرف أنه سيتطور ويزداد

إلى درجة لا يتصورها عقل، عقاب لم أستطع أن أفر منه، فكنت أفر منه إليه، عقاب تهون بجواره العقوبات الأسطورية اليونانية الرومانية القديمة، عقاب ...

وما أن لاحظت أن صوته يرتفع ويزداد حدة مع كل كلمة "عقاب" يقولها، حتى حاولت أن أقطع هذا العذاب الذي يذيقه نفسه، ولما كنت أعلم أنه لا ينجح معه الوسائل التقليدية في التشتيت، حاولت أن أقطع حديثه بالالتفاف حول نقطة في نفس الموضوع، فقلت له أول كلمة خطرت على بالي:

معذرة وما أدراك أن ما وقع بك هو من باب العقاب وليس ...؟

ما أن قلت هذه الكلمة حتى التقط نفسا عميقا ثم قال بكل هدوء:

لقد كان عقابا سيدي الفاضل، هناك الكثير من الإشارات والدلائل التي توضح أنه كان عقابا على هذا الغرور والكبر، اللذان أصاباني بعد ملاقاتي هؤلاء الملاحدة، أذكر منها دليلا واحدا فقط ولن أزيد عليه.

قلت له بصوت جد هادئ:

أرجو أن يكون مقنعا؟

قال: جد مقنع، سيدي الفاضل، ما أن وصل عجبي إلى منتهاه وظهرت في رأسي حتى بدأ هؤلاء الشواذ يتساقطون فوق رأسي كما يتساقط الذباب على الحلوى أو حتى القاذورات، وفى عين الوقت انقطع فجأة عنصر الملاحدة من العيادة، فلم أقابل طيلة الثلاثة أشهر، التي حولتني كل هذا التحويل، أيا منهم سواءا في العيادة أو حتى في الحياة العامة، أتعتقد أن اختفائهم هذا طيلة الثلاثة أشهر وحتى بعدها إلى الآن ليس دليلا كافيا على ما أقول؟

قلت له وأنا أدون بعض الملاحظات:

لا ليس دليلا كافيا تلميذي النجيب، لما لا تعده اختبارا أو ابتلاء، كل هذا نابع من تأنيب الضمير، ذلك الضمير الكائن العجيب بداخل الإنسان الذي لا يمكن خداعه،

الذي يلومك على كل فعل مخالف ترتكبه، ذلك الرقيب الذي لا يمكن أن تقتله أو تتوارى منه، لما لا يكون كل هذا من تأنيب الضمير؟

أنت كما عرفتك إنسان طيب على خلق، وما عرض لك من الكبر أو العجب هو حالة طارئة لم تقاومها ظاهريا وانسقت ورائها حتى طفت في ذهنك بعض التصورات المبالغ فيها، والتي لا أعرف حتى الآن ماهيتها، ولكن ضميرك الكامن رفض هذا السلوك ولكنه لم يجد الفرصة المناسبة للتعبير عن الرفض، ولكن ما أن ظهر هؤلاء الشواذ في حياتك وتعرضت لهذا الضغط النفسي في حياتك حتى قام بإسقاط هذا على ذاك حتى يكون هذا جزاءا لذاك، فالضمير لوام بطبعه، ولا تنس الجانب الإيجابي للوم هذا، وهو أن الإنسان يتخذها كحائط دفاع مقابل الضمير، فالضمير يقول له: انظر ماذا حل بك جزاء فعلك؟

فيرد الإنسان على ضميره: نعم، هذا ما حدث عقابا لي على فعلي وهو كاف كمطهر، لقد تطهرت من فعلتي وأنا الآن نقي والحمد لله لقد غسلت ذنوبي.

نظر إلى الأرض مرة أخرى وأردف قائلا:

أنا أعرف كل هذا سيدي الفاضل، ولكني أميل إلى أخذ الأمر كعقوبة، فعندي من الشواهد ما يجعلني أرى الأمر كعقوبة.

هنا احتد صوتي وارتفع وقلت له بضيق صدر:

أنت حر، كما يحلو لك.

لم أر حرجا فيما أفعله، فها أنا ذا أخيرا أمام مريض لا يحتاج إلى التحلي بالهدوء والصبر والالتزام بأساليب المهنة، فوجدتها فرصة سانحة لتطبيق طريقة مختلفة مناسبة للتعامل معه، هدّأت صوتي مرة أخرى وقلت له:

معذرة على الحدة أكمل سيدي الفاضل.

ابتسم لأنني استعملت كلمته الأثيرة واعتدل في جلسته وواصل الحديث:

قد يضيق صدرك بإصراري على اعتقادي أن ما حدث كان عقوبة، ولكن هذا لن يغير الوضع من قريب أو بعيد.

قلت له مطمئنا:

لا عليك، لن نضيع وقتنا في الحديث عن تقويمك للحالة، أنا أرى أنه من الأفضل أن ندخل صلب الموضوع، لن نضيع الليل سدى قبل الحديث عن شواذك.

هز رأسه موافقا وتمتم:

أنت على حق، لا بد من أن أحكي عن هؤلاء الشواذ، من هم، ولم أثروا في كل هذا التأثير، ولماذا اعتبرت كل هذا عقابا وليس اختبارا، أنت على حق.

لا بد أن أبدأ في حكاية قصتي، لماذا صرت إلى هذا الحال بإرادتي وبتصميم مني وبكامل اختياري.

ما أن أنهى كلامه حتى اعتدل في جلسته مرة أخرى وهمّ بالبدء، ولكن يبدو أنه رأى أن الكرسي غير مريح فانتقل إلى الأريكة المجاورة وتمدد عليها وبدأ في الرواية:

أنت تعلم سيدي الفاضل أن كل منا يولد في هذه الحياة فينشأ على مسلمات أساسية، لا يناقشها بل يأخذها كما هي، وكل منا يحاول أن يُجّمل الحياة ويجعلها مقبولة على الرغم من عوارها الظاهر وقبحها الواضح وعيوبها الطافحة، بعضنا قد يتخصص في فرع من فروع العلم ويناقش ما فيه، وبعضنا لا يفعل، فيأخذ جل ما يقال له في الحياة كمسلمات، وهؤلاء وللأسف عامة الشعوب في كل أنحاء العالم، هؤلاء قطعان البشر الذين يسوقهم بعض الأفراد، الذين فهموا وعرفوا من أين تؤكل الكتف.

صمت قليلا ثم أردف:

ومشكلتي سيدي العزيز أنني عرفت في فترة قصيرة جدا كم هي قبيحة هذه الدنيا ورأيت وجهها الحقيقي، وعرفت من أين وكيف تؤكل وكيف تنبت أساسا هذه الكتف، والتي أكتشفت أنها لا تستحق أن يقربها الإنسان.

قلت وأنا أدون بعض الملاحظات:

هذه نظرة تشاؤمية كبيرة، لست أدري كيف وصلت إليها ولكن لا بد أن تعي أنه مهما كان، فللكتف وجهان قبيح وحسن مهما كانت الأحوال والظروف ومهما حاولت أن تصفها.

رد بكل لامبالاة وبرود:

نعم سيدي الفاضل، ولكن هذا الجانب الحسن المزعوم ضئيل صغير حقير متوار في شقوق العالم القبيح البارزة، وللأسف ما يحسبه الناس حسنا فهو من أقبح القبيح، أما الحسن الحقيقي فلا يبحث عنه أحد بل يتركه الناس ويزدرونه، فهو عندهم شيء لا قيمة له بل يبيعونه بأرخص الأثمان، والمشكلة أستاذي أن الناس يخفون الحسن ويبدون القبيح ويجملونه، ويزعمونه حسنا ويكذبون على أنفسهم ويخادعون أنفسهم: أنظر كم هذا القبيح جميل، ما أحسن هذا الحقير!

وإذا رأووا القبيح قبيحا فهم يتفننون في موارته ومدارته بدلا من تغييره أو القضاء عليه كأنه غير موجود، ولست أدري على أي أساس من الوهم يخدعون أنفسهم ولا بأي عقل في هذه الحياة يتعاملون.

شرد قليلا فانتهزت الفرصة وقلت له:

ولم نحمل أنفسنا ما لا نطيق؟ حسب كل إنسان نفسه وما يقابل في هذه الحياة.

نظر إلى نظرة خاوية ثم قال:

هل تعلم أن الأنبياء والرسل ما أتوا إلا ليعلموا الناس كيف يعملوا ويديروا عقولهم فيعرفوا ربهم ويعيشوا حياتهم، فأبى أكثر الناس إلا اتباع الباطل والسعي وراء الأهواء، جريا وراء العجوز الشمطاء المتصابية، ورموا تعاليم الأنبياء وراء ظهورهم واستثقلوا إعمال عقولهم، ورضوا باتباع آبائهم وفروجهم وبطونهم، ورضوا بأن يكون هذا نصيبهم من الدنيا.

قلت له:

لقد كنت أقول ..

قاطعني قائلا:

لقد سمعتك، نعم ولم نحمل أنفسنا ما لا نطيق؟

أنا لم أحمل نفسي شيئا، الأحمال أتت إلي زرافات وفرادانا، فلما ثقلت علي هربت منها إليها، فلم أجد بُدا إلا التحمل، فلم أتحمل فنخخت من وطأها وثقلها، أتت إلي الأحمال بالوجه القبيح للدنيا، غطت عني كل زخرفها وزينتها ولم تُبق لي إلا عوارها وقبحها، ثم تفننت في إظهار قبحها، ولما رأيت القبيح بلا زينة عرفت القبيح من الحسن، فلما بحثت عن الحسن فلم أجده إلا متواريا حفرت لاستخرجه، فلما استخرجته وقدمته لمن حولي رأوه طينا ورفضوا أن يأخذوا، وظلوا يتقلبون في وحلهم ظانين أنهم في الرغد والنعيم يتقلبون، والوحل يغطيهم من أرجلهم إلى أعناقهم.

استوقفتني الكلمة، فقلت:

لم ليس إلى رؤوسهم؟

قال بكل ثقة:

لا، سيدي الفاضل، لو كانت رؤوسهم في الوحل لانتبهوا ولكن رؤوسهم في بحور الوهم، فأجسامهم في الوحل ورؤوسهم في الوهم، توحي إليهم أن الوحل نعيم مقيم لن يغادر أي سقيم حتى يتركه السقم ويغوص في النِّعم.

تركوا الواقع وعاشوا في الوهم، فكلهم عرفوا وعاشوا "وهم الحقيقة" وتركوا وغفلوا عن حقيقة الوهم، أخذوا الظاهر وتكروا المستور بين السطور.

وفجأة اعتدل على الأريكة ثم قال بصوت جهوري:

وما الدنيا إلا وهم كبير.

ثم ابتسم بخبث وقال:

مع الاعتذار للأستاذ يوسف بك وهبي.

هززت رأسي ثم قلت:

كلام نظري جميل، وحسن كل ما قيل، ولكن على ما ستُسقط هذه الأقاويل؟ لا بد أن أعرف من أي زاوية تنظر إلى الأمور، لأعلم صحة ما تقول؟

استرخى مرة أخرى على الأريكة وواصل الرواية:

المشكلة سيدي العزيز الفاضل أن الدنيا وهم كبير، وأنا رأيته بكل التفاصيل، فخبرت الوهم وعركته على صغر سني، قد تحسبني مغرورا، ولكن عندما تسمع ما سأرويه لك ستعرف أنني ما جاوزت عين الحقيقة.

أشرت له وأنا أشرب كوبا من الماء أن واصل الحديث فأنا منصت، فواصل الحديث:

ابتلاني الله أو هكذا اعتقد بمجموعة من الشواذ الفكريين، الذين قلبوا الطاولة في وجهي، بل على رأسي وعلى عالمي ودنياي، سحبوا البساط من تحت قدمي فشعرت أني أطير في الهواء بلا هدف ولا اتجاه، كأني ورقة في مهب الريح تحركها التيارات كما تشاء، هل تتذكر بداية حديثي عندما تحدثت معك عن المسلمات التي ننشأ عليها؟

رددت بالإيجاب، ولمحت ملامح ابتسامة سخرية مريرة تتراقص على شفتيه، وهو يقول بصوت مختنق:

لقد انهارت كل هذا المسلمات أمامي، وأمامي أنا بالذات وليست أمام أي شخص آخر في هذا العالم، تجمعت كلها أمامي في بوتقة واحدة ثم صهرها هؤلاء الشواذ وألقوها في البالوعة وقالوا لي: ابحث بنفسك!

هل تعلم مرارة وصعوبة ومشقة أن تبحث عن عالمك بنفسك، وأن تبنيه أنت لنفسك، كل منا اعتمد على سابقيه، أما أنا فكان علي أن أعيد بناءه من جديد بنفسي لنفسي، وما أصعب هذا العمل، فأخذت أتأمل هؤلاء الشواذ وأتساءل:

كل منهم عنده جانب يعاني منه، فشاء الله أن يتجمعوا عندي كلهم في فترة واحدة لتتجمع عندي كل جوانب الشذوذ، حتى أفكر مرة أخرى في هذا المعنى؟ ماذا يعنيه الشذوذ؟ ومتى يكون الفرد شاذا؟ هل هؤلاء شواذ؟ أم أن المجتمع بأسره هو غير

الطبيعي وهؤلاء هم الطبيعيون العاديون؟ فلمّا صاروا هكذا صاروا شواذا في وسط المجتمع غير الطبيعي.

هززت رأسي متفهما ثم قلت وأنا أنظف النظارة:

نعم، عندما يبرز النقاء في وسط الدنس يصير شاذا منبوذا، مثلما حدث مع سيدنا لوط وأهله، فهؤلاء كانوا بالنسبة لقومهم الشواذ هم الشواذ، أما هم فهم أناس لا غبار عليهم فأخرجوهم من قريتهم.

فقال: نعم، أصبت كبد الحقيقة، هل تعلم ما الذي أتى بي إليك بالذات أستاذي الفاضل على الرغم من أنني كان يمكنني الذهاب إلى آخرين كثر مثل الدكتور إبراهيم مثلا، أو غيركما من الأساتذة؟

لم ينتظر إجابة مني، بل واصل الحديث قائلا:

أنك جمعت نصيبا وافرا من العلم والإيمان.

تبسمت ضاحكا من قوله وقلت بخجل:

يا ولدي هناك الكثير من أمثالي، بل ويفوقونني.

فقال وهو ينظر نظرة استعطاف:

نعم، ولكن في محيط معارفي لم يظهر إلاك، لذا أتيت إليك حتى أتكلم معك، فلربما تستفيد مما لدي فأكون قد رددت بعض ما أسديتموه لنا، ولا أعتقد أني سأضرك بكل حال.

لذا صممت أن تكون جلستنا واحدة لا انقطاع فيها، تأخذ الجرعة كلها مرة واحدة، وهي حتما ذات تأثير مختلف على رجل في مثل سنك، عرك الحياة وعركته، وقابل حتما من المشاكل والمصاعب الكثير والكثير وتجاوزها بحمد الله وعونه، أما أنا فعلى الرغم من كوني طبيبا نفسيا ناجحا فلقد اكتشفت في الشهور القلائل الماضية أني لا أعرف من الحياة إلا أقل القليل، قليلا جدا لدرجة تجعلني أحصل على امتياز مع مرتبة الشرف في الجهل الرفيع.

ابتسمت من تشبيهه وقلت له:

ما ازداد الإنسان علما إلا وشعر بعظم جهله، هكذا شعر وقال كل العلماء، فلا بأس من الشعور بالجهل فهو أول خطوات العلم، وحتما لا بد من الشك حتى نصل إلى اليقين.

قال بمرارة شديدة، حتى أني شعرت أنها تكاد تسقط علقما من فيه:

نعم، ولكن أن تشك في كل شيء فهذا هو الجحيم بعينه، فبعد أن كنت أحاور هؤلاء الملاحدة الذين شكوا في وجود الله وادعوا أنهم يقدمون الواقع وما قدموا لنا إلا وهما كبيرا، وانظر إلى العالم من حولك، وجدت نفسي أحاور نفسي شاكا في كل شيء إلا في وجود الله!

تصور معنى الشك في كل شيء، حيث تتوقف وتلعن اليوم الذي ولد فيه ديكارت وأمثاله وتحسدهم على النعيم الذي كانوا فيه، فديكارت شك في كل شيء إلا ذاته، عندما قال في برهانه الشهير الكوجيتو: "أنا أشك" فشك في كل شيء إلا في أنويته فأثبتها، ثم عاد بكل عبقرية ليثبتها كتحصيل حاصل في الشطر الثاني ليقول: "إذا فأنا موجود"، ما أجمل العبقرية!

هذا الرجل كان عنده منطلق لينطلق منه، أما أنا فسحبت من تحتي كل البسط وحتى الحُصر.

عدلت من وضع النظارة ومططت شفتاي وقلت بعجب:

إلى هذه الدرجة، لقد أثرت فضولي، ماذا فعل هؤلاء الشواذ معك؟ هل كانوا شواذا أم فلاسفة أم علماء نفس أم عباقرة أم ماذا كانوا بالضبط؟

اعتدل جالسا وقال:

هذه ألقاب تعطى أما هم فكانوا في الواقع أصحاب عقول، كانوا مفكرين، لم يرضوا أن يُقادوا في هذا العالم كما تقاد الماشية فأداروا عقولهم ونقدوا واقعهم وحاولوا أن يغيروا، ولكن سلطان العوام كان لهم بالمرصاد فقوض أحلامهم وقطع طرقهم وتربص

بهم الدوائر، فكان عليهم أن يفرغوا بعض أحمالهم عند حمال الأسى وحلاَّل المشاكل والعقد وهو الطبيب النفسي.

هل تعلم، لقد سمعت من أحدهم بيت شعر أكثر من رائع للعبقري المتنبي يصف حالهم وحالي حاليا يقول فيه:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

تبسمت وقلت له:

أعرف هذا البيت وهناك الكثير من الحكم في أشعار المتنبي.

قال: نعم، فلقد بدأت في قراءة أشعاره بعد أن سمعت بعض أقواله في بعض جلسات الاستماع النفسية الثقافية الفلسفية الجدلية، التي كنت أجريها أو كانت تُجرى لي أو بي مع من يفترض بهم أن يكونوا مرضى –إذا كان المجتمع سليما صحيحا–، المهم نعود إلى موضوعنا مع لقاء هؤلاء الذين نسفوا وغيروا كل المسلمات والمعتقدات عندي كما قلت لك، ولم يبق إلا الله ثم به بعد ذلك وصلت إلى أنويتي وعرفت حالي ومنزلي في هذا العالم الحقير.

فقلت له مستفهما:

حتما قابلت بعض الباحثين الطبيعين أيضا؟

فأجاب وهو يعدل وضعه:

نعم، قابلت بعضهم ولكن هؤلاء لعبوا الدور المساعد بجوار الشواذ، فالشواذ غيّروا النظرة إلى العالم وعرضوه بمنظور تام الاختلاف عما ألفناه، أما هؤلاء فنفوا أن يكون العالم أساسا كما ألفناه، وتصور العذاب الذي كنت ألاقيه عندما استمع في يوم واحد إلى باحث يشكو لي همه، ثم يعرض لي سبب اضطهاده ومعانته، فأجد نظريته العلمية المرفوضة أو المهملة أو اختراعه الذي لم يُعط حقه، والذي يقلب النظريات العلمية رأسا على فخذ وليس على عقب.

واستمع إلى هؤلاء وإلى هؤلاء في يوم واحد، فهذا يقول لي ليس العالم كما تظن وذاك يقول لي انظر إلى العالم من فوق، ولا تنظر من بين ساقيك حتى تراه. فذاك يكشف لي حقيقة العالم ويزيح عني أستار الوهم الكثيفة، وهذا ينسف من العالم الموجود بعض الأستار، حتى تاه اللب واحتار، ولم يدر ما يقرر أو يختار فيلجأ إلى الفرار، فيجده صعب المنال عسير الوصال.

قلت له وأنا أحك رأسي بمؤخرة القلم الذي أمسكه:

إذا فالباحثون لم يكونوا شواذا، بل لعبوا دورا مساعدا في تحطيم الصورة أمامك تحطيما كليا؟

فقال وهو يحملق في السقف:

نعم لعبوا الدور المساعد وأتقنوه أتم الإتقان، ويحدث كل هذا في شهور متتاليات، وتقول لي أن هذا ليس بعقاب؟

حاولت أن أصرفه عن تصور العقاب هذا، على الرغم من منطقيته إلى حد كبير، فسألته:

وما هذه النظريات العلمية التي أنهارت أمامك حتى تغير منظورك إلى العالم؟

فقال لي:

الكثير والكثير في جل المجالات، وأهمها الكوني واللغوي، واللذان غيرا منظوري إلى الفلك والعالم وموقعنا منه وفيه وإليه وتعاملنا ومقصودنا ومدلولاتنا وإشاراتنا.

فتبسمت وقلت له:

لعلك قابلت بعض أنصار الفريق القائل بعدم دوران الأرض وأن الشمس هي التي تدور حولها؟

نظر إلى نظرة استغراب شديدة وقال:

هل يوجد هذا الفريق حقا؟

فقلت له موماً برأسي:

نعم موجود في بعض التيارات المتزمتة الإسلامية، وحتى المسيحية في الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها.

هرش مؤخرة رأسه وقال:

لا، لا لم أقابل أحدا من أنصار هذا الفريق، ولكني قابلت من يقول لي أن العالم لا يوجد به جاذبية وأن الأمريكيين لم يصعدوا القمر أو الكواكب المختلفة، وأن هذا كان خدعة كبيرة أجريت في استوديوهات هوليوود.

كان دوري هذه المرة لأهرش أنا رأسي وقلت له:

نظرية عدم صعود الأمريكيين إلى القمر أعرفها وتسمى نظرية الخدعة الكبرى، والتي تقول أن هذا كان أيام الحرب الباردة مع الإتحاد السوفيتي، وتم إجراء كل هذا في استوديوهات هوليوود حتى تحوز أمريكا السبق في سباق الفضاء، هذا مفهوم ومعروف وموجود على الشبكة المعلوماتية العنكبوتية، أما بخصوص الجاذبية، فهذا جديد، وكيف نسير على سطح الأرض وكيف تسبح الكواكب في أفلاكها وحول نجومها؟

هز كتفيه بكل بساطة وقال:

صاحب هذه النظرية جاءني بشخصه، وجلس أمامي وأخذ يبرز لي أخطاء وعيوب وشروخ وخلل وعوج ونقصان نظرية الجاذبية هذه، وقل ما يحلو لك في ذمها وعيبها وعورها فلقد قاله لي ثم قدم لي البديل وهو نظرية "المدارات".

سألته باستغراب وقد نقلت القلم إلى فمي:

وما نظرية المدارات هذه، أنا لا أمتلك حظا جيدا من المعرفة الفلكية؟

قال وهو يهز كتفيه:

ولا أنا ولو كنت تمتلك حتى فلن تعرف، فهي نظرية من اكتشافه، معرفتك الفلكية – لو كانت موجودة– ستساعدك في تحديد إذا كانت نظريته سليمة أم بها عوار أيضا، أما

أنا والحمد لله فكنت من أصحاب الدراسة الأدبية طيلة عمري فلم أستطع أن أحدد إذا ما كان قوله صحيحا أم لا، كل ما كنت أفعله أن أسمع له من باب تهدئته ومن باب الفضول العلمي القاتل.

ولا أطيل عليك في تفاصيل النظرية فلن أستطيع أن أشرحها لك، ولكن كل ما في الأمر أنها تبدو معضلة وتحل كل إشكاليات نظرية الجاذبية الحالية، قد يكون بها عوار أيضا، ولكن الشاهد في المسألة حدوث الشك الشديد الكبير في نظرية الجاذبية والميل إلى نفيها، ثم عدم التيقن من النظرية الجديدة لأسباب عدة منها قلة البضاعة العلمية الطبيعية والانشغال بأمور أُخر، وعلى هذا المنوال كان كثير من النظريات العلمية التي أخذناها كمسلمات في مراحل التعليم الأساسية ونتعامل على أساسها في حياتنا اليومية تنهار تحت معاول النقض والنقد، وفي نفس الوقت كانت نظرتي إلى العالم المحيط بنا تتسع وتتسع وتتسع، حتى وصلت إلى إحاطة نسبية جزئية بسيطة جدا، إحاطة لا تكاد تذكر ولكنها في كل حال إحاطة تكفي لإحالة حياتك إلى جحيم.

قلت وأنا أنظر إليه بضيق:

ولكن الله فقط هو المحيط بكل شيء؟

رد بعصبية شديدة وهو ينظر إلى الأرض:

ومن قال أنني أحطت بكل شيء، أنا أحطت ببعض الأشياء إحاطة نسبية وأرى أن هذه الإحاطة لم يقربها إلا القليلون، أما ادعاء الإحاطة الشاملة فأنا لم ولا أقصدها بأي حال.

شعرت أني ضربت على وتر حساس عنده وأن هذا المدخل قد يؤدي بنا إلى نتائج ملموسة، وقبل أن أواصل حديثي، طُرِق الباب ودخل الممرض يستأذن بالانصراف فطلبت إليه أن يحضر لنا عشاءا ثم ينصرف، لأننا سنظل طيلة الليلة هنا في العيادة، فأغلق الباب ثم انصرف، فالتفت إليه وقلت له:

لا أعتقد أنك ستمانع من تناول العشاء معي؟

فقال لي بدون أي معارضة:

لا بأس، ولكن سأدفع أنا ثمن العشاء.

نظرت إليه نظرة عتاب، وقلت:

هذا عيب لا يُقبل، أنت ضيفي كيف تتصور أن يدفع الضيف ثمن ما يطعمه؟!

قال بهدوء حازم:

لا لست ضيفك، أنا مريض تسبب في بقاءك في عيادتك، ويكلفك عشاءً بدلا من أن تطعمه مع أهلك، لذا فلا يمكن أن تدفع أنت ثمنه.

حاولت أن أثنيه عن رغبته، ولكن لما أقسم بأوكد الأيمان، قبلت أن يدفع هو ثمن الطعام.

وبعد دقائق قضيناها في حديث ودي عاد الممرض بالطعام ووضعه أمامنا ثم انصرف، جلسنا على الطعام، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، لاحظت أنه يأكل بطريقة عجيبة غريبة؛ فتارة يأكل بسرعة ثم تارة يعود فيأكل بطريقة بطيئة جدا ويحسن مضغ الطعام، ولكن ما أن انتهيت من طعامي حتى أنهى هو طعامه في نفس اللحظة.

نظرت إلى ما أكل فوجدت أنه لم يأكل إلا أقل القليل مما وضع أمامه، فعجبت وتساءلت: ماذا كان يأكل كل هذا الفترة؟ على الرغم من ذلك لم أرد أن أعلق على هذ الأمر، وبينما كنت أعد كوبين من الشاي سألته أن يستكمل القص.

فكر لحظة ثم قال:

لقد توقفنا عند الجاذبية؟

فقلت مبتسما:

نعم، غير الموجودة.

قال بدون أن يبتسم:

نعم، وكما قلت لك انهارت كثير من المسلمات في رأسي وخاصة مع النظرية اللغوية التي طرحها علي ذلك اللغوي، والذي لا يمكن أن لا أشهد له بالعبقرية، وهذه بالذات من الممكن أن أجزم بصحتها، فهذا لي فيه جانب كبير من المعرفة، وأصبحت أحسد الناس على جهلهم، تصور وصلت إلى هذه الدرجة، أحسد الناس على جهلهم وأتذكر قول المتنبي فأزداد شقاءا، وتمنيت أن لو كنت منهم، وتذكرت كلمة شهيرة تقول: أصحاب العقول في راحة، فعلمت أن من يقولها إما أحمق كبير أو أنه كان يعني العكس تماما.

المهم أنه لما توازى التياران في عقلي، تيار العلم المهدوم وتيار النظر المعدول بدأت تظهر عندي أعراض التجريدية، ومع ظهور التجريدية وسيطرة العقل على الإنسان تصبح عقلا يمشي على الأرض ...

أصبحت أرى كل شيء بعقلي، تسقط عيني على امرأة أو فتاة، فبعد أن كنت أراها جميلة أو قبيحة أو مقبولة أصبحت أرى أنفا وفما وعينين وجبهة، وكل هذا يشترك في الحسن، فما عدت أرى خلقة قبيحة، ولكني أرى خُلُقا قبيحا وفعلا دنيئا، أنظر إلى كل شيء بعين عقلي، فما أن تقع عيني، أعني عين عقلي على الشيء حتى تقفز إلى ذهني مواصفاته النموذجية وكيف ينبغي أن يكون، وكيف هو الآن وما العيوب التي فيه، ولم هذه العيوب، كل هذا من نظرة واحدة!! وبالتوازي مع ذلك مات في قلبي كثير من المشاعر، أصبحت أعرف واسمع اسمها ولكن لا أجد معناها واحتار في وجود مبناها.

حككت ذقني وقلت:

لقد أطلت في تقديم هذه الحالة، فهلا بدأت في سرد حكاياتك مع هؤلاء الشواذ الذين جعلوا منك هذا الإنسان الغريب العجيب!

أخذ مني كوب الشاي وارتشف أول رشفة، ثم قال:

حسنا، سأحكي لك، ماذا جرى وحدث مع أهم إحدى عشر منهم، ونبدأ بالأول.

# أنا والزواج

كانت قد مرت بعض شهور بعد اكتسابي لشهرة جيدة في عالم الطب النفسي، وكنت قد أنهيت محاورات جيدة مع بعض الملاحدة شعرت معها بنشوة كبيرة وبشعور كبير بالإعجاب بذاتي، دفعتني للتفكير في إصدار محاوراتي في كتاب يسمى: "محاورات عامر محمد" على غرار محاورات أفلاطون!

كان الوقت لا يزال في بداية الصيف ولكن درجة الحرارة كانت مرتفعة لدرجة لا تطاق، مما دفعني إلى تشغيل المكيف على الرغم من عدم ميلي إليه، ومثلما كنت أنا الحالة الأخيرة عندك اليوم كان هو أيضا الزبون الأخير..

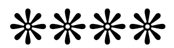
استوقفته سائلا:

ألا تعتقد أن لفظ "زبون" لفظ سوقي بعض الشيء، أنت كطبيب يفترض بك أن تستعمل لفظ "الحالة"؟

رد بكل هدوء: لا أنا كطبيب ينبغي أن استعمل لفظ "زبون"، هو بالنسبة لي ليس أكثر من زبون أما بالنسبة له فهو "حالة"، وليتنا ندقق في استعمالتنا اللغوية الخاطئة مثل هذا التدقيق الذي نقوم به عندما لا يعجبنا لفظ سليم في توصيف الوضع، لمجرد أنه يخدش هالة أوهامنا.

عدلت النظارة ثم قلت له بلهجة من لم يقتنع: لا عليك، أكمل!

استرخى على الأريكة ثم أكمل:



كنت جالسا على المكتب وطلبت إلى الممرض أن يدخل الحالة الأخيرة، انظر النفاق، المهم دخل الزبون، فتأملته كان شابا وسيما وهذا هو المهم بالنسبة للناس، أما أن أقول أن أنفه كذا ولون عينه كذا وصفة فمه كذا فلن يفرق كثيرا فلن يبقى في أذهان المستمعين إلا ما قلته أولا أنه كان وسيما، كان ذا قوام رياضي جد متناسق يذكرني بالعدائين.

دخل فحياني بصوت قوي فرددت عليه التحية، طلبت إليه أن يجلس إلى المكتب، وكالعادة قمت بأخذ بيانته، كان اسمه عماد، في التاسعة والعشرين من عمره، يعمل مهندسا معماريا.

وبعد الترحيب والابتسام وإعطاء جرعة الثقة وبعد الحديث الودي والذي كان يبدو أنه لا يحتاجها، سألته:

ما مشكلتك يا أخ عماد، تبدو لي مثاليا أكثر من اللازم، من خلال بعض المعلومات التي استقيتها منك تبدو لي نموذجا للشاب الناجح، وهناك كثير من الشباب يحلمون أن يصيروا إلى ما صرت إليه؟

قال لي بكل بساطة:

أريد أن أتزوج؟

تحيرت قليلا من مشكلته وقلت له:

على حد علمي لا يوجد ما يمنعك من الجانب المادي من أن تتزوج، وكما أرى فإن الموانع مرتفعة كذلك من الجانب الجسدي، أم أن هناك ما لم ألاحظه؟

لاحظت أن علامات التردد ظهرت عليه، وقام من مكانه وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وإيابا. واستنتجت من تصرفه ما هو المانع الذي يمنعه من الزواج!

وفي أثناء ذرعه الغرفة، ألقاها في وجهي بدون أن يستدير إلي، فقال:

أنا شاذ!

صُدمت من كلمته، كان أول من التقيته من الشواذ، وعلى الرغم من أني لم ألتق منهم شخصا قبل ذلك إلا أنه خالف تصوري المستند على أسس وتصورات علمية سليمة.

وكطبيب نفسي ماهر لم يظهر أي من هذه الانفعالات على وجهي بل بقيت محتفظا بهدوئي وطلبت إليه أن يستلقي على الأريكة أولا.

ولكنه لم يلتفت إلى طلبي وظل كما هو يذرع الغرفة ثم اتجه إلى النافذة وقال وهو ينظر منها إلى هدف غير محدد:

لست كما تتصور سيدي الطبيب.

فقلت له بصوت لم تظهر فيه نبرة الحيرة:

ماذا تقصد؟

فقال وهو لا يزال أمام النافذة:

لست شاذا.

فقلت بصوت حمل نبرة عَجَب واضحة:

ولم قلت إذن أنك شاذ؟ ألا تعلم حساسيات اللفظ؟

قال بعد أن التفت إلي وهو ينظر إلى عيني:

أنا شاذ ولكن لست شاذا كما يفهم الناس من هذا المصطلح، فشذوذي من نوع آخر تماما، ولكنه في نهاية المطاف شذوذ، لذا لا بد من وصفه بوصفه الحقيقي.

قلت له وأنا اسجل ملاحظة:

غريب، وما هو الشذوذ الذي يمنعك من الزواج إذا لم يكن هو الشذوذ المألوف ؟

اتجه إلى الأريكة واستلقى عليها وقال:

هناك أنواع كثيرة من الشذوذ قد تمنع المرء من الزواج، ولكن الناس لا تفهم من الشذوذ إلا ما قيل لهم.

قلت له:

حسنا، لا مشاحة في الاصطلاح، ما هي مشكلتك؟

ابتسم وقال:

جميلة "لا مشاحة في الاصطلاح" هذه، أنا شخصيا ليس عندي أي مشكلة، ولكن هناك الكثير من المواقف والقرارات التي لا بد أن يتخذها المرء في حياته ويحتاج فيها إلى التشاور.

قلت له وأنا أحك ذقني:

من المألوف أن يذهب المرء إلى قريب أو صديق فيسأله المشورة، أما أن يأتي إلى طبيب نفسي طلبا للمشورة فهذا أمر غير مألوف؟!

قال وهو ينظر إلى السقف:

ولكن إذا كان الصديق والقريب يُحملك ما لا ترغب فترفض، ورفضك نابع من وجهة نظر لا يريد هو أن يقتنع بها، ومهما تقنعه لا يريد أن يقتنع ويتهمك أنك شاذ أو مختل، فماذا تفعل؟

قلت له: معك حق، موقف عسير نقابله كلنا.

قال وهو يقلب بصره في المكتب:

نعم موقف عسير خرجت منه برأي جميل.

قلت: وما هو؟

قال: نصحني الأقارب والأصدقاء بالذهاب إلى طبيب نفسي ليقنعني بالعدول عن موقفي هذا، فوجدت فيها وجهة نظر معقولة، فعلى الرغم من إيماني بعقلي، قلت لا بأس من استشارة طرف محايد، نسمع لوجهة نظره في المسألة، فقد يكون لديه الجديد، بخلاف المألوف الذي طرحه علي والدي ووالدتي وأقاربي وأصحابي، ويقنعني بالزواج، فأتزوج وأريح أبي وأمي.

قلت له بعد أن خفضت الإضاءة قليلا:

وطبعا يصر والداك على تزويجك؟

قال لي بعد أن أغمض عينيه:

إصرارا عجيبا، ولهم دوافعهم في ذلك، فنحن اثنان من الأبناء الذكور، وبنت واحدة، تزوجت وأنجبت، أما أخي فلم ينجب، لذا تعلق الأسرة الآمال الكبرى على الابن الأخير، الذي يفترض أن يرفع رأس الأسرة عاليا، ويخلد اسم أبيه في سجل الفانين.

لاحظت نبرة السخرية التي شابت جملته الأخيرة، فقلت له بصوت يحمل حدة متعمدة:

ألا ترى أن معهم بعض الحق فيما يفعلون؟

قال: نعم لهم بعض الحق فيما يفعلون، وأنا لي أكثر الحق الباقي، ولكن من له الجزء الأكبر من الحق، هذا هو السؤال، هل حقك له أسباب منطقية أم أنه حق بوضع اليد؟

هنا قررت أنا أعود إلى المشكلة من بدايتها بدلا من البدء من فروع المشكلة، فسألته السؤال الذي ينبغي طرحه:

لم لا تريد أن تتزوج؟

فقال لي بكل هدوء:

ولم ينبغي أن أتزوج؟

****

هنا قام عامر وأخذ يجوب الغرفة واضعا يديه خلف ظهره، وقال:

كانت هذه المشكلة هي أول سؤال بدهي قابلني، الناس في كل مكان وزمان يأخذون البدهيات كما هي بدون أن يحاولوا، فقط مجرد محاولة، أن يفكروا لم يفعلوها وهل

هي منطقية؟ هل لها أسباب تقويها، ما دوافعها؟ لا شيء من هذا القبيل، بل كلٌ يرضى أن يكون من القطيع، حتى لا يشذ فيُنبذ.

قلت له:

معك حق يا عامر وماذا قلت له؟

جلس هذه المرة على كرسيي أنا، فلم أعلق وارتشف رشفة من الشاي الذي أصبح بالتأكيد منقوع بطيخ أو شيء من هذا القبيل ثم واصل:

****

قلت له بعد أن تنحنحت وأخفيت ملامح الحيرة:

سؤال جيد، ولكن إجابته بسيطة، كل الناس يتزوجون لأن ... لأن هذا من الفطرة، ومن غرائز البشر، كل منا يبحث عمن يكمله، ذكرا كان أو أنثى، هذا بالإضافة إلى إشباع الغرائز الأساسية كما تفهم.

فتح عينيه ورفع رأسه ونظر إلي نظرة تحمل عدة معاني، ثم أغمض عينيه ووضع رأسه على مسند الأريكة مرة أخرى وقال:

ليس كذلك سيدي، اسمع يا دكتور لم يتزوج الناس.

لاحظت ابتسامة تتراقص على شفتيه على الرغم من الإضاءة الخافتة في الغرفة، فقلت له بضيق:

قل نسمع، ومنكم نستفيد!

قال بعد أن عقد ساعديه على صدره وهو لا يزال مستلقيا على ظهره:

أنت تعلم أن الإنسان يغلفه العجز في جميع مراحل حياته، فهو يظل جنينا في بطن أمه لمدة تسعة أشهر، ثم تلده أمه.

ولا تنتهي القصة بالولادة فيظل عاجزا عجزا تاما لمدة ثلاث سنوات على الأقل ثم يبدأ بعد ذلك اختلاطه بالعالم وانفصاله جزئيا عن أبيه وأمه، ولكنه يظل على الرغم من ذلك مرتبطا بهم ارتباطا كبيرا قويا، ثم تبدأ مراحل التعليم المدرسية المختلفة والتي يظل فيها مرتبطا منفصلا بوالديه، يواجه العالم ثم يلجأ إليهم في نهاية المطاف طلبا للحماية والعون والمشورة والحنان والدفء.

وينمو الإنسان وتنمو معه حاجيات ورغبات لم تكن عنده في فترة الطفولة، إلى أن يصل إلى سن الزواج وهنا لا شعوريا يبحث الرجل عن أم، عوضا له عن أمه تعطيه الحنان والدفء والرعاية، ففي هذه المرحلة يمكن القول أن دور الأب بالنسبة للابن قد تبخر تماما ولا حاجة له به، وكذلك تبحث الفتاة عن أب عوضا لها عن أبيها، يعطيها الدفء والحماية في هذا العالم.

اعتدلت في مقعدي، فها أنا ذا أمام زبون عارف مثقف، ينبغي التعامل معه بشكل مختلف، فقلت له:

إذا فأنت ترى أن الولد يبحث عن أم في الزواج والفتاة تبحث عن أب، هذا الرأي يشبه كثيرا ...

قاطعني بكل هدوء:

أنا لم أقل هذا تحديدا، ولم أقصد ما قصده ذلك المأفون فرويد ذو الأوهام المريضة، كل ما عنيته أن الإنسان لا يمكن أن يعيش عيشة مستقلة تماما، بل لا بد له من أن يبحث عمن يرعاه ويرعاه هو ويهتم به ويدافع عنه، وهذه الصورة تتمثل عند الشاب الناشئ كأوضح ما يكون في صورة والدته، وعند الفتاة في صورة والدها، لذا ستظل المرأة طيلة عمرها ترعى وتخدم الرجل ويظل الرجل يعطيها الدفء والحماية، بدون أن يجبرهما أي عامل خارجي ولو تُرك الرجل والمرأة لاتخذا هذه المواقف تلقائيا بدون أي تأثير من عوامل خارجية، فهذه منافع متبادلة يقدمها كل منهما للآخر، يجد أصولها في نفسه، وما أجمل أن تقدم ما ترغب في تقديمه للآخرين مدفوعا بما يمليه عليك داخلك.

اعتدلت في جلستي وقلت له مبتسما:

تحليل رائع، ليت أنصار المرأة يسمعونه، كان من الممكن أن أقوله لك ولكني كنت أظن أن خلفيتك العلمية كمهندس قد تكون عائقا بين تواصلنا ولكن يبدو أنك قارئ جيد لعلم النفس.

اتسعت ابتسامته وقال:

لم أقرأ أي كتاب في علم النفس، كل ما هنالك بعض المقالات التي تقع تحت يدي بالصدفة ولكني قارئ جيد للبشر.

ابتسمت أنا أيضا، وقلت له:

بخلاف نظرية حماية الرجل للمرأة ورعاية المرأة للرجل، هل من أسباب أخرى للزواج في رأيك؟

قال لي بنفس الهدوء وقد اتسعت ابتسامته:

نعم اسمع، من أهم أسباب الزواج الرغبة في الخلود، الإنسان منا يطرأ على الحياة ويشعر أنه عابر لفترة قصيرة لن تقدم أو تؤخر في هذا الوجود، وكلٌ يحاول أن يطيل فترته وفرصته في الحياة، ولكن هذا غير ممكن عمليا فالآجال محددة مجهولة للإنسان، فيمكنه القضاء على هذه المعضلة بالإنجاب، فعندما ينجب الإنسان يظن أنه انتصر على الطبيعة، فها هو ذا سيخلد أجزاءً منه في هذه الحياة، تعيش أعمارا طويلة وأجالا مديدة، وتواجه حيوات أخرى وخبرات عديدة، تشاهد ما لم يشاهده هو وتحكي له ما لم يسمعه هو.

قلت له بصوت يحمل نبرة شفقة:

لقد أبعدت النجعة هذه المرة، يمكنك أن تقول أن الإنسان يتزوج من أجل الحفاظ على النسل أو النوع، وهو يفعل هذا تلقائيا بالغرائز التي غرزها الله فيه محددا له سيره وقدره وكينونته في هذا العالم، أما مسألة الخلود هذه فهي بعيدة جدا.

قال وهو لا يزال محتفظا بابتسامته:

مشكلتكم أيها الأطباء الجدد أنكم لا تصدقون ولا تعرفون إلا ما قيل لكم في الكتب.

شعرت أنه وجه لي إهانة شديدة بقوله هذا، فقلت له بصوت حاولت أن أجعله يحمل كل نبرات الهدوء والثقة، إلا أنه لم يخل من نبرات الحدة:

أولا: لا تنس أنني أكبرك سنا،

ثانيا: لمَ لمْ تذهب إلى أستاذ من الأساتذة كبار السن، إذا كان حديثو الأسنان لا يعجبونك؟

قال بهدوء من يتوقع العاصفة، لذا لا تثيره:

لي أسبابي التي تجعلني أفضل الشباب عامة، ولا تغضب كثيرا من هذه الكلمة، ولكن أنا أرى أن شهوة الخلود عند الإنسان تسبق غريزة المحافظة على النسل أو إبقاء النوع، ولي أسبابي التي لا أعتقد أن الوقت أو الظروف مناسبة لمناقشتها الآن.

استعدت هدوئي بسرعة وقلت له:

أنت على حق، هل أنهيت أسبابك، أم أن لديك أسباب أخر؟

أجاب بعد أن توقف للحظات:

طبعا هناك أسباب أخر، مثل ... مثل ... شهوة الربوبية.

قاطعته مستنكرا صارخا:

شهوة الربوبية، ما هذه الشهوة وما تقصد بها؟

أجابني بكل هدوء:

الإنسان يغلفه العجز والنقص في مراحل حياته، ويعلم أنه محدود في مقابل اللامحدود، ناقص في مقابل الكامل فيحاول أن يداوي محدوديته ونقصه بإنجاب الأولاد وبهذا يصير ربهم، طبعا هو لا يطلب إليهم أن يعبدوه ولكن خضوعهم له وتعلقهم به يرضيه تمام الرضى.

لم أرد أن أعلق على ما يقول حتى ينهي كلامه كله فأشرت إليه أن يواصل.

واصل السرد:

وحتى لا أطيل عليك فهناك طبعا شهوة الأبوة والأمومة وفي آخر المطاف تأتي الرغبة في ممارسة الاتصال مع الآخر.

نهضت من مكاني وأخذت أتجول في الغرفة وقلت له:

على الرغم من اعتراضي الشديد على ما تقول وجزمي بخطأ جزء كبير مما تقول، فأنا لا أعتقد مثلا أن الإنسان الأمي أو حتى البسيط خطرت في ذهنه فكرة بسيطة مما تقول، قد يكون يطمع في ابن يساعده في كبره، يدعو له بعد مماته، وحقيقة لست أدري من أي مدرسة فلسفية استقيت هذه الأفكار، ولكن ...

قاطعني بصوت حازم:

أولا: تقسيمكم العجيب لجنس البشر إلى أمي ومتعلم تقسيم خاطئ، فكل الناس أميون وعالمون في نفس الوقت، فأنت مثلا أمي في الهندسة وأنا مثلا أمي في الفيزياء النووية، وهكذا كل البشر أميون في جوانب طاغية كثيرة، وعالمون في جانب أو جوانب بسيطة.

ثانيا: الأمر لا يحتاج إلى مدرسة فلسفية معينة حتى يستقي الإنسان منها تفسيره لسلوك الإنسان، لاحظ سلوك الناس وتأمل أفعالهم وستعلم صحة ما أقول، ولا تعتقد أن الإنسان يفكر ليفعل الشيء أي شيء ...

كان يتكلم بسرعة كبيرة، وما أن وصل إلى هذه النقطة حتى توقف قليلا ثم ضحك ضحكة طويلة وقال:

أنا أستطيع أن أجزم لك أن الإنسان لا يفكر إلا عندما يكون في مأزق أما بخلاف ذلك فهو يأخذ ويطبق ما قيل له ورآه في مجتمعه، وبهذا يمكننا أن نلغي مقولتكم الشهيرة: الإنسان كائن مفكر، ونجعلها: الإنسان كائن مقلد بالدرجة الأولى مثله مثل ...!

ابتسمت من كلامه وعلى الرغم من إعجابي بمنطقه وبنظريته في الحياة قلت:

ما تقوله جميل، ولن أناقشك فيما تقول، وسواء اتفقنا أم اختلفنا فيه أو حتى في ترتيبه بالنسبة للإنسان فلن يؤثر في موضوعنا، أنت عرضت من وجهة نظرك أسباب الزواج، ألا تعتقد أن هناك سبب من هذه الأسباب يدعوك للزواج؟

رد بابتسامة ساخرة:

أنت سمعت جانب واحد من الموضوع ولم تسمع الجانب الآخر، نعم هذه هي الأسباب التي يتزوج من أجلها الناس، ولكن ألم يخطر في بالك أن هناك الكثير من الأسباب العقلية المنطقية التي تمنع من الزواج؟

****

قمت لأشرب كوبا من الماء وقلت لعامر:

كان الله في العون يا عامر، صادفت فيلسوفا ناسكا.

رد بصوت خفيض:

كان يرفض أن اسميه فيلسوفا، ويرى أنه عقلاني بعض الشيء، وكان هو أول من نبهني أن الإنسان أهمل عقله أيما إهمال، ثم تتابع الشواذ بعد ذلك تترى ليثبتوا لي أن الإنسان ...

لا لن أحكم على الإنسان، ستحكم أنت بعدما تسمع باقي الحكاية والحكايات ...

****

قلت له وقد بدأت أشعر بصعوبة في ابتلاع ريقي:

وما هي الأسباب التي تمنع من الزواج؟

قال بنفس الهدوء المستفز:

لو لاحظت من كلامي أن أسباب الزواج مبنية دوما ومعتمدة أساسا على النقص والحاجة إلى الغير وإلى الاستكمال.

بدأ كلامه يلامس نياط قلبي، فقلت بخشوع:

نعم، وهذه لحكمة من الله أن يكمل بعضنا بعضا، وتتواصل الحياة ولولا ذلك لاعتزل الناس بعضهم وما قام مجتمع بشري واحد.

قال وقد بدأت نبرة الظفر تخالط هدوءه:

عظيم، كلامك سليم، كلٌ يبحث عمن يكمله ومن يساعده في واقعه أو حتى مستقبله للشعور البشري بالنقص، ولكن للأسف الشديد هذا الاستكمال له كثير من العيوب التي يلاحظها كثير من الناس، وعلى الرغم من ذلك يغضون عنها الطرف.

سألته بفضول ذكوري:

مثل ماذا؟

فقال بعد أن زفر:

النموذج الغالب المعروض حاليا كله يصيب عقلي بالاختناق، معظم الذكور يبحثون عن الأنثى الجميلة ليتزوجونها.

تعجبت وسألته:

وما المشكلة في ذلك؟

زفر في ضيق وقال:

المشكلة أنه لا يوجد عقلا امرأة جميلة.

نظرت إليه في دهشة وقلت:

ماذا تقول؟ هناك الكثير من النساء الجميلات في العالم!

نظر إلي في شفقة وقال:

المشكلة أن كل الناس ينظرون إلى المرأة بعين الشهوة ولا ينظر إليها أحد أبدا بعين العقل، انظر إلى المرأة مرة بعين العقل وسترى العجب العجاب، كثير منا مثلا ينظر إلى المرأة في مشيتها، ويحسب أن مشيتها هذه تدلل وتغنج ولكن هذا راجع إلى تركيب عظام الحوض لديها، لذلك تمشي هذه المشية المتكسرة، التي تثير جنوني لإعجاب الناس بها وجذبها لانتباههم ولست أدري لم؟!

ابتسمت ابتسامة، لم أرد أن أجعلها ساخرة، وقلت:

يبدو أن دراستك الهندسية أثرت عليك فأصبحت لا ترى جمالا إلا في الخطوط المستقيمة.

قال بذات الضيق:

لا يا عزيزي، ولكن فعلا جسد المرأة الذي يثير جنون الرجال غير جميل وغير متناسق، بل ... بل ... بل إن جسد الرجل أجمل منه.

نظرت إليه نظرة متفحصة تحمل الكثير من المعاني، فانفعل وارتفع صوته قائلا: لا تسيء فهمي أنا لست شاذا، خذوا الأمور مرة بشكل عقلاني، تأمل جسد المرأة بشكل عام وستفهم ما أقوله، نعم قد تكون ملامح المرأة أجمل من الرجل ولكن، هل تعلم ... كنت ذات مرة أتجول على الكورنيش، فوجدت بعض الشباب يعاكسون ثلاث فتيات بألفاظ بذيئة، يصفون بها جمال أجساد الفتيات، والفتيات يبتسمن.

وبغض النظر عن الفتيات وسلوكهن تأملت في أجساد الفتيات اللاتي يعتبرن بمقاييسكم جميلات جدا، فلم أجد ما يستدعي هذا المديح أو الإطراء، تأمل أنت معي في جسد المرأة بشكل عام، ستجد أن ذراعيها مثلا غير متناسبين مع جسدها، وبغض النظر عن الثديين اللذان يقضيان على أي تناسق في الجسد ستجد أن الفخذين يميلان في الغالب إلى البروز من الجانب بشكل مبالغ فيه، ناهيك عن ...

قاطعته صائحا:

كفى كفى، شوهت المرأة بما فيه الكفاية.

قال لي بحدة المغتاظ:

هكذا أنتم دوما لا ترون بعيونكم، يا أخي تأمل عالم الحيوان كله وستعلم أن الذكر دوما أجمل من المرأة، ولا يشذ هذا في عالم البشر فالذكر كتكوين أجمل من المرأة، ولا تفهم مني أني أدعو إلى الشذوذ، ولكن أنا أرجو أن تتفهم موقف عقل رأى حقيقة المرأة فعافها، إذا كنتم أنتم ترون المرأة بشكل مقلوب فلا تلومونني إذا عدلت أنا وضع الصورة.

قلت له وأنا أفكر فيما يقول:

لا تؤخذ كل الأمور في العالم بالعقل وإلا ... وإلا ...

تحيرت كثيرا فلم أجد ما أقوله لعدم تسيير الأمور بالعقل، فانتقلت إلى موضوع آخر وقلت له:

ولم تحصر الزواج في الجنس فقط، أنت ذكرت أشياءا كثيرة؟!

صرخ قائلا:

قل لهؤلاء الشهوانيين، هل تعتقد أنه يمكنك الزواج من دون أن تمارس ال ..، هذا واجب وإلا ستُعير وتُفضح، وأنت تعرف كيف يقيم البشر هذا الأمر.

تمتمت قائلا:

معك حق لا يمكن أن يكون زواج بدون ..، ولكن ألا يوجد لديك دافع للزواج، ألم تحلم يوما أن تصير أبا؟

صمت قليلا ثم قال:

في الواقع كنت أظن أن هذه الشهوة غير موجودة عندي أو بمعنى أصح كنت أظن أنها قد ماتت، ولكن اكتشفت أنها لا تزال حية بداخلي وقادرة على إلغاء عقلي.

سألته بلهفة:

كيف اكتشفت ذلك؟

استرخى على الأريكة وقال وهو يشرد ببصره:

ذات مرة كانت هناك مناسبة سعيدة عندنا في المنزل، وكالعادة كان هناك الكثير من الأقارب والقريبات، وكان حتما ولزاما أن أجامل الجميع فأحيي هذا وابتسم لتلك، على الرغم من شعوري بعدم جدوى ونفع هذه الاحتفالات.

قلت له: لقد جعلت الحياة جد كئيبة وما هو الجيد النافع في هذه الحياة؟! أكمل!

فقال: المهم كان هناك بعض القريبات، وفجأة أتتني إحداهن تحمل ابن أخيها الصغير على صدرها وقالت لي: انظر كم هو جميل أحمد!

فهززت رأسي وقلت لها بابتسامة عريضة:

بسم الله ما شاء الله، نعم جميل جدا.

وما أن أنهيت الكلمة حتى شعرت أن جسدي نزلت به صاعقة، وشعرت فجأة برغبة شديدة في أن يكون لي منها ولد، وعلى الرغم من أني لم أكن أحمل أي مشاعر خاصة لقريبتي هذه بل أعاملها مثلها مثل الباقيات، ولكن نظرا لأن هذا الموقف حصل معها، شعرت كأنها تقول لي:

أيها المغفل، أنا أنثى ألا ترى، أنا مخلوقة لكي أكون أما، من الممكن أن أكون زوجا لك وعلى استعداد لأن أحمل أولادك وأنجب لك أجمل منه، فأنا أجمل من أختي وأنت أجمل من زوجها.

تبسمت وقلت: وماذا فعلت؟

ابتسم قائلا:

لا شيء أعطيتها ظهري وانصرفت وأنا أهز رأسي، لأنفض عنه هذه الفكرة الطبيعية الغريبة علي.

فسألته: ولم، لقد استيقظ الإنسان الحيوان في داخلك، فلم لا تتركه منسجما مع الطبيعة، ألا تعلم أنه لو فكر كل الناس تفكيرك هذا لانقرضت الحياة من على وجه الأرض؟

ابتسم ابتسامة قصيرة، ثم قال:

لو فكر الناس أي تفكير لانصلح حالهم، أما أنا فأقر أني حالة شاذة ولا أدعو الناس أن يكونوا مثلي ولكن أرغب أن يتركوني وشأني أو يقنعوني بما يفعلون.

دونت بعض الملاحظات، وسألته:

قلتَ أن الإنسان يبحث بزواجه عن الخلود وشهوة التملك أو الربوبية، كما ادعيت، أما جال بخاطرك بعض هذه الخواطر، ألم تسيطر عليك رغبة من هذه الرغبات؟

لاحظت ابتسامته المريرة على الرغم من الضوء الخافت وهو يقول:

من الجيد أن تخدع نفسك، ولكن أن تصير مكشوفا أمام نفسك فهو شيء ليس بالجيد دوما، وعلى الرغم من أنه جد نافع في تحديد كثير من قرارات وخطوات الإنسان إلا أنه يؤثر كثيرا على ما يود أن يفعله، وعلى الرغم من أن بعض هذه الشهوات يستولي علي في بعض الأوقات، وعلى الرغم من حق المجتمع وحق أبواي علي، فأنا كإنسان لم أنشأ هكذا من فراغ، بل نشأت في مجتمع وفر لي جل احتياجاتي وسخر أبواي أنفسهما لي من أجل خدمتي وتربيتي وإعدادي من أجل أن أكون فردا في هذا المجتمع، أوفر له أفرادا جددا يصبحون أسنان تروس في عجلة المجتمع ولكن ...

صمت فقلت له بفضول لم أحاول إخفاءه:

ولكن ماذا؟

قال: قلت لك إن حياة الإنسان مبنية على أنه ناقص عاجز، وعلى الرغم من ذلك يتيه فخرا بالأنا، فهو يتزوج ليلغي عجزه فإذا به يزداد عجزا على عجز وضيقا على ضيق ونقصا على نقص.

سألته وقد وضعت القلم في فمي:

ولم هذه النظرة المتشائمة للزواج؟! هناك الكثير من الجوانب المضيئة في الزواج على الرغم من ذلك، لم تتصور أن الزوج ستكون امرأة عبوس نكدة، لم لا تنظر إليها كامرأة مطيعة ذلول بسامة؟! تنظر إليها فتسرك، كائن يبحث عن الحنان والدفء والحماية فتعطيه إياه، ألا يثير ذلك في قلبك أي مشاعر من مشاعر النخوة والرجولة؟ ألم تتعرض لأي موقف يثير فيك هذه المشاعر؟ هل أنت آلة؟

صمت للحظات ثم لاحت في عينه نظرة حالمة، وهو يقول:

على الرغم من أني لست كثير الاختلاط بالبشر ولكن ذات مرة بينما أنا عائد من عند صديق لي يتبنى نفس فكري، على الرغم من أنه كثير الزواج ...

قاطعته في دهشة:

صديق له نفس الفكر وكثير الزواج؟ كيف؟

قال في ضيق ملحوظ:

لست أدري ولكن يبدو أنه مصاب بانفصام شخصية، أو أن الأسباب التي أدت به إلى هذا الطريق غير أسبابي، المهم كنت عائدا من عنده ذات ليلة وأردت أن أختصر الطريق إلى المنزل فهو قريب مني، فاخترت بعض الطرق الجانبية وبينا أنا أعبر طريقا سمعت أصواتا في شارع مظلم مجاور، فعدت أدراجي فوجدت ثلاثة شباب يحاولون أن يغتصبوا فتاة ... أنت تفهم؟

ظهرت ملامح الضيق على وجهي وأنا أقول:

نعم، ما أكثر الكلاب، وماذا فعلت؟

رد وقد انتفخ صدره، وظهرت نبرة فخر في صوته:

لا شيء، أوسعتهم ضربا كما يقال، وهذه هي المرة الوحيدة التي خرج الحيوان الذي بداخلي وفوجئت به ثورا هائجا، لقد أصيب الثلاثة إصابات بالغة، وما كنت أعتقد أني

أمتلك هذه القوة أو هذه المهارة في القتال، المهم أني تركتهم ممددين على الأرض، وما أن مددت يدي لأخذ الفتاة وأخرج بها حتى فوجئت بها ترتمي في صدري، وتبدأ في البكاء وقول أشياء لم ألاحظها، كل ما كان في ذهني في هذا الوقت، هو كم هو شعور جيد أن تجد المرأة فيك حصنا ودفئا!

المهم أبعدتها عني برفق وأخذتها إلى الطريق العام، وأوصلتها إلى مكان آمن ثم عدت إلى منزلي، وظل هذا الشعور يراودني في مخيلتي كثيرا إلى أن ضاع، مثله مثل كثير غيره.

قد تقول: إذا فأنت لا تزال إنسان، لم لا تحاول أن تستخرج هذه المشاعر الجيدة من داخلك وتعمل على تنميتها، وستجد فيها ما يقنعك بالزواج؟

قلت:

نعم، هذا ما كنت سأقوله، كيف سترد أيها الفيلسوف؟

رد بعصبية شديدة:

لست فيلسوفا، هل تراني أحمقا أو معتوها؟

ابتسمت وقلت له:

وهل ترى الفلاسفة كذلك؟

قال مستنكرا بصوت مرتفع:

وهل ترى فيهم غير ذلك؟!!

قلت: بغض النظر، أجب أيها الإنسان المفكر!

قال وقد بدأ الهدوء يعود إلى صوته:

المشكلة هي في العجز طبيبي العزيز، أنا لا أريد أن أشعر بالعجز أو النقص أو الضيق في هذه الحياة، أريد أن أعيش حرا، الناس يحاولون أن يسدوا نقصهم ويلغوا عجزهم بما يزيده، وأنا لا أريد أن أكون ناقصا، أنا أبحث عن الكمال يا سيدي.

قلت له: كلامك يبدو متناقضا، أنت تقول أن الفلاح البسيط الذي يتزوج يبحث عن الخلود والربوبية، وأنت عندما تبحث عن الكمال ماذا تريد أن تكون؟ ... إلها مثلا؟!

رد بعصبية قائلا:

أنا أريد أن أكون حرا.

قلت له بهدوء:

وما المشكلة في الزواج؟

عاد إلى هدوئه بسرعة وقال:

الزواج كله قيود، الزوج والأولاد مسؤولية كبيرة والتزام وتقييد للإنسان طيلة حياته، نعم هناك الكثير من الإيجابيات على الرغم من ذلك في الزواج، ولكن بالنسبة لمن يبحث عن أي سبب من الأسباب التي ذكرتها لك مسبقا أو يشتاق إليه ويرغب فيها، أما أنا والحمد لله فلا أبحث ولا أرغب في ذلك..

توقف قليلا ثم ابتسم وقال وهو يهز كتفيه:

الذي يتزوج إنسان عنده وقت فراغ، إنسان لا يجد ما يفعله فيتزوج ليشغل نفسه، أما أنا فمشغول من أول اليوم إلى آخره، فلماذا أتزوج؟

قلت له: ها قد وصلنا إلى بيت القصيد، أنا أستطيع الآن أن أفهم إجمالا لم ترفض الزواج وما هي أسبابك في ذلك.

ولكن لا بد من الرجوع الآن إلى الماضي قليلا لمعرفة ما الذي أدى بك إلى هذا الطريق، ما الذي حولك إلى هذه الطباع؟ لذا سألقي عليك بعض الأسئلة وأرجو أن تجيب عنها بصراحة.

هز رأسه بمعنى موافق وهمهم بجملة لم أفهمها فلم أعلق، وبدأت بطرح الأسئلة:

أولا: ما هي طبيعة علاقتك بوالدتك؟ هل العلاقة جيدة أم سيئة؟ وهل هي نفسها امرأة جيدة أم؟ وكيف هي علاقتها بوالدك؟

اعتدل وجلس على الأريكة ونظر إلي بوجه جامد معاتب وقال:

أنا أعرف ما تصبو إليه بسؤالك هذا، ولكن اطمئن أيها الطبيب، فوالدتي مثل أي أم وزوج مصرية، تنشغل بنفس الأسباب وتفرح لذات العوامل التي تسر أي زوج وأم في مصر، تتعارك مع زوجها ويتصالحا مرة أخرى، قد تكون تتجاوز الحدود في بعض الأحيان، ولكن هذا شيء طبيعي ولا مشكلة في ذلك.

أما علاقتي بأمي فهي علاقة عادية جدا فهي كأي أم تخاف علي بدرجة تثير اختناقي في كثير من الأحيان، وتشعرني حتى الآن أني لا أعرف شيئا في هذه الحياة، وكأني لا أزال ذلك الطفل الصغير الذي أنجبته منذ تسعة وعشرين عاما، ولكن لا جدة أو غرابة في هذا فكل الأمهات تقريبا تعامل أولادها بهذه الطريقة.

سألته: ألا تتذكر موقفا معينا معها عاملتك فيه بقسوة؟

بعد لحظات تفكير ابتسم مجيبا:

لا لا أتذكر، من الممكن أن تتجاوز المرأة الحدود مع زوجها أما مع أولادها فلا.

ابتسمت من قوله وتذكرت حالي مع زوجي في المنزل وكيف تعاملني وكيف تعامل ابننا الصغير، وسألته:

إذا، بشكل عام العلاقة الأسرية جيدة ولا تتذكر موقفا واحدا أثر فيك تأثيرا كبيرا؟

هز رأسه نافيا، فسألته:

قلت في كلامك أنك لا تختلط كثيرا بالناس، فلم؟

قال بكل هدوء:

تجنب الناس نعمة أستاذي العزيز، وما الذي سأجنيه من مخالطتهم سوى وجع القلب ونقص العقل.

سألته: ومنذ متى وأنت على عزلة من البشر؟

قال: كانت علاقتي بالبشر طبيعية وإن لم تكن متشعبة حتى المرحلة الثانوية، ثم بدأت مرحلة تقليل الاختلاط والتعامل وليس العزلة مع المرحلة الجامعية.

سألته وأنا أنظر إليه نظرة ذات معنى:

وما هي طبيعة علاقتك بالجنس الآخر؟

قال وهو يرد النظرة بنظرة عتاب:

تقريبا لا تكاد تذكر، فعلى الرغم من أنه يوجد الكثير من الزميلات في العمل إلا أني لا أحدثهن بأكثر من سلام عليكم، صباح الخير، كيف الحال، مع ابتسامة مفتعلة على الوجه من أجل ... أنت تفهم؟

قلت: نعم، أفهم هذه العلاقات.

رد بكل عصبية:

نعم، ولو زادت العلاقة معهن عن ذلك لسمعتُ تفاهات ينفجر منها رأسي، ولاضطررت أن أجاريهم، تصور أنني أرتدي بعض الأحيان سماعات في أذني.

فسألته: لماذا؟

قال: أحمل مسجلا صغيرا في وسطي وأضع فيه السماعات وأضعها في أذني، حتى يتصور من يراني أن أستمع إلى المسجل وأنا أعمل، حتى لا أسمع ترهات زملائي مع الزميلات والزميلات مع الزملاء، كنت في بداية الأمر أشغل نفسي بالتصاميم في يدي، وأسمع الترهات والضحكات وأصمت ولا ألقي لها بالا، ولكن مع مرور الوقت وجدت أن الترهات والتفاهات لا تُحتمل، فقمت باستعمال السماعات حتى أريح أذني وعقلي من هذا التلوث الفكري والانحطاط العقلي.

قلت بخبث: ربما لأسباب أخرى!

ثم تنحنحت سريعا وقلت بجد:

ألم تمر بأي علاقة حب في حياتك، أقصد طبعا قبل المرحلة الجامعية؟

**قال:** نعم، مررت بعلاقة حب في المرحلة الثانوية، في الواقع لست أدري إذا كانت حبا أم إعجابا، ولكنها كانت من باب النظرات وعدم الكلام أو السلام فلم أجرؤ يوما أن أقول لها كلمة أو أرسل لها خطابا كما كان يفعل زملائي، وسرعان ما انطفأت هذه المشاعر في قلبي مع مرور الأيام والليالي، ونسيتها مثل كل الدنيا.

دونت بعض ملاحظات في الورقة التي كانت في يدي وقلت له وأنا أدون:

وطبعا أنت تقرأ كثيرا؟

**قال:** نعم، أنا أقرأ كثيرا جدا، ما علاقة هذا بذاك؟

قلت وقد علت وجهي نظرة الثقة:

العلاقة جد وطيدة سيدي الفاضل، سمعت منك وآن الأوان أن تسمع أنت مني.

فهز رأسه بمعنى موافق، ابدأ، فقلت:

أنت إنسان تحمل في داخلك بذور انطوائية، ساعدت أمك في تنميتها، وككثير من الشباب الذي ينشأ كونت بعض العلاقات مع زملائك من الذكور ونظرا للتربية التي أتوقع أنها كانت محافظة جدا، اعتزلت البنات فلم تُجر أي علاقة مع أي منهن، وعندما صادفت تجربة عاطفية بغض النظر عن توصفيها لم تنجح في الإقدام وفعل أي شيء، ونظرا لوجود بذور الانطوائية في داخلك أثمرت الثمار المنتظرة وهي ثمار السلبية، فتقوقعت على نفسك في دراستك.

في أثناء كلامي كنت أنظر إليه، فلم أجد أي تأثر يذكر، فواصلت الحديث:

ولأني كان لي من الزملاء كثير في كليتكم هذه بأقسامها المتعددة، وأعرف كم تحتاج من الوقت في استذكار دروسها أجزم أنك انتهزت الفرصة واعتزلت الناس بحجة استذكار الدروس وإعداد الواجبات، وانهمكت في ذلك، وكما قلت لي في الدردشة في أول حوارنا أنك نجحت بتفوق في كلية الهندسة، فكان هذا ناتجا لذاك، وأكاد أجزم أنك أدمنت القراءة في نوعين من الكتب وهما الفلسفة والتصوف.

قال بكل هدوء:

**نعم، قرأت كثيرا في هذين المجالين، تعويضا عن الخلل الناجم عن دراستي المتعمقة في الرياضة والهندسة.**

**قلت له:**

**وهنا مربط الفرس، وهكذا كان ما كان، تصور عقلية هندسية فلسفية صوفية انطوائية سلبية كعقليتك هذه، ماذا تنتج؟**

**قال وهو يبتسم:**

**آراء كآرائي.**

**قلت: بالضبط، تنتج إنسانا خائفا من الزواج، مترددا في اتخاذ هذا القرار ولا يري فيه نفعا، بل يحسب عملية الزواج بالقلم والفرجار.**

**صفق بيديه وقال وهو يبتسم بكل هدوء:**

**توصيف جيد جدا للحالة، أعرفه في نفسي وكان من الممكن أن أقوله لك لو كنت طلبت إلي تشخيصا لحالتي، فأنا أدرى بها من غيري، وأنا لم آت هنا للتشخيص، بل لحل هذه المعضلة .**

********

**التفت إلي وقال:**

**تصور يا دكتور عبد العليم، زبون غريب الأطوار يعرف حاله يأتي إليك وبعد أن تشخص حالته، يقول لك لا جديد ولا فضل لك، عالجني، على الرغم من أن التشخيص ثلاثة أرباع العلاج.**

**قلت له باستغراب:**

وما المشكلة في ذلك يا عامر أنت طبيب نفسي، ولن يأتي إليك إنسان سوي، فماذا تنتظر؟!

قال: معك حق سيدي الفاضل كان هذا اندفاعا مني، ربما بسبب منطقه الذي رأيته.

قلت له: المهم لنعد إلى موضوعنا وإلى عماد الذي لا يريد أن يتزوج، ماذا فعلت معه؟

****

قلت له:

الحل سيدي الفاضل أن تتنازل قليلا عن هذه القراءات وتغير النوع كما يقال.

قال بحذر:

هل تقصد أن أتنازل عن عقلي ومنطقي؟

قلت له مطمئنا:

لا يا سيدي الفاضل، أنا لا أريدك أن تتنازل عن عقلك ولا منطقك، ولكن كل ما أطلبه إليك أن تغير نوعية قراءاتك واقرأ لتيارات أخرى فستجد فيها بالتأكيد ما يقنعك، وأقنع نفسك أن ما تفعله من باب تغيير التوجه ليس أكثر ولا أقل، لا تنظر إليها من باب أنك تتنازل أو تضحي عن عقلك فلن يجدي مع هذه النظرة أي علاج، ولكن كما أقنعك هذا التيار فسيقنعك غيره ... ولا أقصد من ذلك أنك ستتحرك مع كل التيارات يمنة ويسارا، أنا أعلم أنك بمنهجك هذا ستسلط معاول النقد على كل ما ستقابله، وستكتشف أن كثيرا مما يقال يحمل الخطأ الكبير ولكن ستجد فيها الكثير من الصواب.

ابتلعت ريقي، ثم واصلت الحديث:

**أنا لن أحاول أن أناقشك في معتقداتك هذه الآن، فلقد تكونت عندك من خلال فترات قراءة طويلة وتحتاج على الأقل إلى ربع هذه الفترة لتغييرها، لذا أنصحك بتغيير صنف القراءة، وأنت تفهم طبعا أي نوع من الكتب والروايات ينبغي أن تقرأ في المرحلة القادمة؟**

**همهم قائلا:**

**نعم، سأحاول.**

**قلت له بنفس الصوت المطمئن:**

**والأهم من ذلك أن تخرج إلى الناس وتبعد عن عزلتك هذه، فهذا عنصر مهم جدا من أجل تحسين حالتك هذه، أنت تعاني من انعزالية انطوائية أنتجت سلبية اتكالية، لذا فإن أفضل الحلول للقضاء على مثل هذه الأعراض هو الاختلاط بالناس ومحاولة تغييرهم لا أن تكتفي باعتزالهم وتصفهم بأنهم .. بشر!**

**تبسم ضاحكا عند هذه النقطة، ويبدو أنه فهم أنني فهمت ما كان يعنيه باستعماله كلمة "بشر" ولكنه لم يعلق بل اكتفى بهز رأسه موافقا.**

**واصلت تشخيص العلاج فقلت له:**

**كما لا بد أن تحاول أن تختلط بالمرأة، ولا أعني بذلك أن تتجاوز الحدود الدينية الاجتماعية، ولكن أنت تعرف أن الإنسان عدو ما يجهل، ويحاول أن يقنع نفسه أن هذا المجهول لا ضرر في جهله بل في ذلك النفع الكثير، لذا لا يرى في الآخر إلا الضرر والصفات السيئة التي تقنعه أن قراره السابق بالاعتزال هو الصواب، وكذلك يقنع كل منا نفسه أن قراراته التي إتخذها كانت عين الصواب وأن عليه أن يستمر فيها.**

**جرب أن تتعامل مع المرأة ومع الرجل وستعلم أن فيهم الخير الكثير، أما أن تكتفي بعالمك النظري العقلي الذي أوجدته لك دراستك وقراءاتك فستكون قد ارتكبت خطأ كبيرا.**

**رد بصوت زاد درجته عن التمتمة:**

سأحاول، سأحاول.

فواصلت الحديث:

أنا أعرف أنك تجد في كتبك وأبحاثك لذة كبيرة جدا تتضاءل بجانبها أي لذة، لذا فأنت تقنع نفسك أنك جد مشغول لدرجة أنك لا تستطيع الزواج، فأنت تقول في قرارة نفسك: كيف أترك هذه اللذة وأتزوج، ما الذي سأجنيه من الزواج؟

ولكن صدقني ستجني مشاعر صادقة جبارة أكبر من أي شيء في العالم، يكفيك شعورك أن زوجك تبحث عن الأمان معك وبك، يكفيك أن يأتي ابنك ليرتمي في أحضانك وستشعر أنك تملك الدنيا وما فيها، يكفيك شعورك بالراحة بعد التعب من أجل إعداد أفراد ترى أنها ستكون صالحة ونافعة للمجتمع، فإذا كنت ترى نفسك صالحا، وليس هناك صالح إلا واحد وهو الله، فلم لا تخرج أفرادا صالحين أخر للمجتمع يغيرونه، بدلا من أن تكتفي بعلمك وتحبسه في نفسك؟!

أما مسألة أن النساء انفعاليات ولا يستعملن عقولهن فذلك لغلبة الحنان عليهن! وتصور حياة عقلية جافة كتلك التي تعيشها بدون حنان المرأة أو الأم، كيف ستكون الحياة؟!! لا أعتقد أنها ستكون أفضل من هذه بأي حال، بل ستكون حياة لا طعم لها ولا لون ولا رائحة.

أما مسألة أنهن يكثرن من الترهات، فليس كلهن كذلك، نعم أكثرهن يثرن الغيظ ويشعر المرء برغبة في قتلهن لذلك! ولكن هناك الكثيرات لسن كذلك ويمتلكن عقول عملية علمية رائعة، يستطيع المرء أن يجد معهن لذة عقلية جسدية كبيرة، وحتى إذا لم تجد هذا الصنف فأكثرهن قابلات للتأثير فتستطيع أن تختار من تشكلها كما يحلو لك.

قال لي بصوت يحمل معاني التفكير:

معك حق نوعا ما.

قلت له: لا تنس ما ذكرتَه من حق المجتمع عليك وحق والديك في أن يفرحا الفرحة البدائية غير المنطقية كما تسميها، وهم يرونك متزوجا وتنجب لهما أطفالا، فالمجتمع

البشري كله قائم على التضحية من أجل الآخر وإن لم يجد الإنسان من يضحي من أجله يبحث عمن يضحي من أجله، هل يمكنك أن تقول لي: من أجل من في المجتمع ضحيت حتى الآن؟

أطرق في الأرض وقال بحرج:

لا أحد.

قلت له بصوت يحمل نبرة انتصار:

لا أود أن أقول لك أنك تحمل نصيبا كبيرا من الأنانية والعجب بالذات، ولكنك كذلك فعلا، وأنا أعجب من ذلك على الرغم من أنك أكثرت كما تقول من قراءة كتب الصوفية! ولست أدري كيف لم تنجح هذه الكتب في تهذيب نفسك وكبرك وغرورك؟!

لا بد من القضاء على هذه الأنانية حتى ينجح العلاج، تعمد أن تتنازل وتضحي من أجل الآخرين في مواقف عدة ومواطن مختلفة حتى تلغي هذه العادة السيئة، وبذلك تنجح في التضحية من أجل المجتمع كما ضحى كله من أجلك.

بهذا البرنامج الثقافي الخلقي الاجتماعي تستطيع أن تغير نفسك وتقنع نفسك بالعلاج، أما إذا تنازلت عن أي عنصر فيه فلن يؤتي البرنامج ثماره، لذا فحاول أن تنفذ بعزيمة من حديد البرنامج الذي قلته لك.

قام من مكانه وهو يفرك عينيه وشد علي يدي وقال لي مبتسما:

أشكرك سيدي الطبيب على هذا البرنامج العقلاني، سأحاول حقا أن أطبقه وإذا نجحت فتأكد أنه ستصلك بطاقة دعوة إلى حفل زفافي.

ابتسمت وقلت له وأنا أودعه إلى باب المكتب:

أرجو من الله ذلك.

****

قلت له:

فكر غريب يا عامر، ولكن أرى أن الحالة ليست جد غريبة.

قال موافقا:

نعم يا دكتور عبد العليم، ولكني قد تعمدت أن أغفل لك عمدا الجزء الذي ذكره في ذم المرأة فلم أذكر لك إلا قشور الذم.

قلت:

وهل قال لك بخلاف ذلك شيء آخر؟!

قال بكل مرارة:

لقد ظل يتكلم معي لمدة عشرة دقائق كاملة في العيوب التكوينية الجسدية للمرأة بخلاف ما ذكرته لك، وعن العيوب النفسية والاختلالات العقلية التفكيرية، وهو لا يقصد بذاك أن المرأة مجنونة ولكنه فصّل لي الطريقة الغريبة التي تفكر بها المرأة، مما أشعرني أنني أقف أمام أفلاطون أو كبير أعداء المرأة في العالم، ولكن رأفة بك أوصلت لك الملامح الأساسية لفكره.

تبسمت وقلت:

حسنا فعلت.

قال: بالتأكيد وإن كان لن يؤثر معك كثيرا يا سيدي الفاضل، فمع احترامي الشديد لك، أنت الآن في الستين من عمرك أو تجاوزتها، أما أنا فتصور كيف أصبحت علاقتي مع زوجي بعد هذا اللقاء!

تصور الأفكار والتصورات التي كانت تظهر لي عندما كنت أحاول أن أقترب من زوجي، ولقد أشعرها هذا أني لم أعد أحبها وأن هناك امرأة أخرى في حياتي، ولكنه الواقع المرير لقد كان شاذا أبعدني على المرأة عدة خطوات إلى الخلف، على الرغم من أني دفعته بضع خطوات إلى الأمام.

**لم أرد التعليق على مسألة السن هذه، فليس الوقت ولا الحالة مناسبة للمزاح، فقلت له:**

**جيد، حالة غريبة شائقة، ولكنها ليست غريبة جدا، ولقد شخصتها أنت تشخيصا ممتازا، فلا مكان هنا لتعليق مني بأي شكل.**

**ولقد كان هذا هو الأول، هيا احكي لي حكايتك مع الثاني!**

**شرد ذهنه قليلا، وتنحنح وأخذ وضعا مسرحيا، وبدأ السرد.**

# أنا والعاقل جدا

انقضت أيام قلائل على زياة الأول مارست فيها حياتي بشكل طبيعي جدا، فلم يلفت انتباهي أن يقوم شخص بتصنيف نفسه هذا التصنيف الغريب واعتبرتها حالة «شاذة»، ثم تكررت الحالة والتشخيص مع شخص آخر، أتى هو الآخر في نهاية اليوم وكان أيضا آخر زبون سأفحصه في هذا اليوم.

قلت له: أليس شيئا غريبا أن يأتي الاثنان في نفس الميعاد يا عامر؟

رد بهدوء:

الأكثر غرابة أنهم كلهم كانوا دوما آخر الزبائن، وأعتقد أن هذا كان عن عمد، ربما ليضمنوا ألا يقاطعهم زبون آخر، على الرغم من وجود احتمالية أن أنصرف، ولكن عامة كل هذا مجرد تخمينات.

قلت له:

لنعد إلى موضوعنا!

وهززت كتفي وابتسمت قليلا قائلا:

هيا قص عن الزبون الثاني!

وبصوت هاديء وبنظرة تحمل كثيرا من التركيز واصل القص:

****

أخبرني الممرض أنه الحالة الأخيرة فطلبت إليه إدخاله، وأخذت أعد المكتب وهندامي وأهيئ نفسي للإنصراف بعد الفراغ منه.

سمعت طرقا حادا على الباب فطلبت إليه الدخول ورفعت عيناي لأرى آخر حالة، وما

أن وقعت عيناي عليه حتى اتسعت عيناي وفغرت فاهي من فرط الدهشة والإعجاب.

كان نموذجا مثاليا «للرجل الكامل» كما يقال، يرتدي ملابس بسيطة، قميص وبنطال ولكنهما يكادان يصرخان من الأناقة، ليس بسببهما ولكن بسبب من يرتديهما، بسبب تناسبهما وتناسقهما معه.

كان شديد الوسامة بطريقة عجيبة، ولن أصفه لك لأن الجمال كما تعرف سيدي الفاضل لا يحمل معايير محددة، ولكنه كان من النوع الذي لا تستطيع أن تمنع عينيك من النظر إليه، باختصار كانت له جاذبية عجيبة تجمع بين الهدوء والثقة والتحدي، يساعده على ذلك جسد يكاد ينفجر من تراكم العضلات التي يشعر بها كل أعمى من تحت ملابسه الواسعة.

إلا أن أهم ما يميزه هو عيناه، كانتا شديدتا الجمال ... والحدة، وجهه يجذبك لتتأمله ولكن عيناه تحذرك من الإقتراب منهما، فستغض بصرك إذا اقتربت منهما. المهم كأي طبيب نفسي بارع تمالكت نفسي فأغلقت فمي وغيرت نظرتي بطريقة تدريجية بدون أن أتنحنح أو يبدو علي أي ملامح تغير مفاجيء.

سلمت عليه بابتسامة هادئة، وأخذت في التعرف عليه لأخذ المعلومات الأساسية، كان اسمه «أسامة» وهو اسم على مسمى، في الثالثة والثلاثين من عمره، رجل أعمال ناجح، يمتلك ثروة تقدر بالملايين كونها بطريقة شريفة –كما يقول– بعد تخرجه من الجامعة، متزوج ولديه طفلان، باختصار كان لديه أكثر بكثير مما يحلم به شبابنا.

وقبل أن أسأله عن مشكلته أو معاناته ذهب من تلقاء نفسه واستلقى على الأريكة واضعا يديه على صدره. أغمض عينيه للحظات ثم قال بكل هدوء: عندي ورم في العقل.

صعقت مما قاله، أهذا الحائط البشري الشديد الوسامة الناجح في حياته مصاب بورم في المخ؟! ربما سيؤدي إلى وفاته عما قريب.

تعجبت وقلت في قرارة نفسي: سبحان الله، لا أحد كامل، من يتصور أن هذا الشاب

يعاني مع مظهره الأسطوري؟!

وقبل أن أفتح فمي لأواسيه وأسأله عن أسباب مرضه، فتح عينيه بسرعة والتفت إلي وقال بإبتسامة ساخرة:

أنا عندي ورم في العقل وليس في المخ.

انتبهت في هذه اللحظة إلى أنه قال: «ورم في العقل» وليس في المخ، ولكن بطبيعة الحال ظننته يقصد «المخ»، فتنحنحت هذه المرة واعتدلت في جلستي وقلت: ما الذي تعنيه؟

الذي أعرفه أن العقل شيء معنوي وليس ماديا ولا يمكن أن يصاب بورم، الذي يصاب بالورم هو الجزء المادي وهو المخ، فكيف أصبت بورم في العقل؟!

قال وهو يتأمل السقف: أعلم أن ما تقوله صحيح ولكني حالة مختلفة من الممكن أن تعتبرني حالة شاذة.

في هذه اللحظة لم ألق بالا إلى استعماله كلمة «حالة شاذة» ولكنه سيعود فيقول لاحقا أنه هو نفسه «شاذ».

قلت له: كيف ذلك؟!

قال وهو لايزال يحملق في السقف:

على الرغم من أن الموضوع جد طويل ولكني سأحاول الاختصار، لا سأختصر وأكتفي بالنقاط الأساسية.

قلت له:

كلي آذان صاغية.

التفت إلي بجزئه العلوي وكأنه أراد أن يقول شيئا، ولكنه سكت واكتفى بإبتسامة ساخرة ثم قال بعد أن استلقى مرة أخرى على الأريكة:

لم يكن أبي أبدا رجلا عاديا. كان يؤمن أن العقل هو أثمن وأغلى ما وهبه الله للإنسان،

وأن هذا العقل هو ما يميز الإنسان عن الحيوان.

قلت له: جيد، كلنا نؤمن بهذا، ما الجديد؟

قال لي بصوت يحمل نبرة الحدة:

لا ولا عشرة في المائة من البشرية تستعمل عقولها، ولا حتى خمسة في المائة تستعمل عقولها، يمكنني أن جزم لك أن الناس لا يؤمنون بذلك، نعم هم يعلمون أن العقل هو ما يميزهم ولكنهم لا يؤمنون بهذا، وشتان ما بين العلم بالشيء والإيمان به.

قلت له مهدئا:

بغض النظر، واصل حديثك.

قال وقد عاد الهدوء إلى صوته:

كان أبي من القلائل الذين ءامنوا بذلك إيمانا شديدا، ولما ترسخ ذلك في عقله وليس في قلبه، صمم على أن يستعمله.

سألته بحذر: يستعمل ماذا؟ عقله؟

قال بهدوء: نعم.

قلت له سائلا:

وهل لا نستعمله نحن؟

لاحت على شفتيه ابتسامة سخرية:

ولا خمسة في المائة من امكانياته، إننا نستعمل أقل أقل أقل القليل مما حبانا الله به، ولا أعني بقدرات العقل أننا سنحرك الأشياء أو نؤثر على الآخرين أو نطير في الهواء، دعك من هذه الترهات، أنا أجزم لك أن العقل مهمل تماما تماما، ... هذا العيادة افتتحت منذ سنتين وتسعة أشهر، أليس كذلك؟!

بدت علي ملامح الذهول وقلت له:

ماذا تقصد؟

قال بكل هدوء، بعد أن أغمض عينيه:

لقد أنهيت الحديث عن العقل ثم أخبرتك عن تاريخ افتتاح العيادة أو على الأقل تاريخ ترميمها.

لم أرد أن أسأله كيف عرف هذا، فلقد عرفت الإجابة مقدما، وعرفت أنني لو سألته فسيعطيني محاضرة عن إمكانيات العقل، فتجاوزت هذه النقطة، وقلت له بكل هدوء:

لا مشكلة، مع أن التاريخ يختلف قليلا عما تقول ولكنه قريب جدا من تخمينك، ولكن ليس هذا موضوعنا، أكمل حديثك.

قال بذات الصوت الهادئ:

كان أبي يعلم أن صلاح الإنسانية في التزامها للعقل واتباعها أوامره، ويعلم أن إتباع الأكثرية لتضليل الأقلية المنتفعة من تغييب الأكثرية لعقولها سيؤدي إلى تخلف البشرية ككل كثيرا، وسيؤذي الفرد ذاته أكثر!

لذا قرر أن يجعل عقله هو الحكم والمرجع الذي يعود إليه في كل ما يفعل، بغض النظر عما يفعله الناس أو يقومون به، لذا فقد كان يفعل ما يراه عقلا صائبا ومالا يراه صوابا لا يفعله حتى لو ألفى البشرية جمعاء كلها تفعله.

عارضته بصوت عال:

ولكن لا يمكن أن نجعل العقل الفردي مقياسا.

قال بهدوء:

لذلك وقع لفترة قصيرة في هوة الإلحاد، ولكنه والحمد لله كان عاقلا بما فيه الكفاية ليتجاوزها بسرعة ويعود إلى حظيرة الإيمان مسلحا بالعقل المجرد، مع الإعتذار للأخ كانط.

ابتسمت من تعليقه وقلت له:

حتى الآن لا أجد شيئا غريبا.

قال بصوت هادئ:

الغريب يأتيك حالا، أصبر وما صبرك إلا بالله.

قلت: معذرة، أكمل.

أخذ يحملق هذه المرة في الثريا المعلقة، توقعت أن يخبرني ببلد التصنيع وتاريخ الإنتاج وسعرها والمحل الذي اشتريتها منه، ولكنه لم يفعل بل أكتفى بالحملقة، وواصل القص:

في هذه المرحلة لم أكن أنا قد ولدت بعد، وفي هذه الفترة شاء الله أن أحل ضيفا على العائلة بكل هدوء وضجيج ولست أدري كيف، ولكن أبي قال لي هذا بالحرف ولست أدري ماذا كان يعني بهذا حتى الآن، المهم بعد ولادتي بدأ أبي في تطبيق أول خطوات منهجه العقلي -كما حكى لي لاحقا-.

قلت له متعجبا:

بعد ولادتك؟! هذا عجيب، كيف هذا؟

قال: كان أبي رحمه الله ذا نظرة عجيبة وذا نظريات أعجب، نابعة طبعا من شطحات عقله، فلقد جال بخاطره خاطر عجيب بخصوص مداعبة الأطفال، حيث رأى أنها تعد متخلفة نوعا ما، وتؤدي إلى تأخر النمو العقلي للطفل.

قاطعته قائلا: حسبك، لابد من مداعبة الطفل، وإلا ...

قاطعني هو هذه المرة:

ومن قال أن الطفل لا يداعب، ولكن إعتراضه رحمه الله كان على الطريقة نفسها، هل سبق لك أن لاحظت شخصا يداعب طفلا رضيعا؟!

أجبته: نعم، بالطبع مرارا وتكرارا، وأنا منهم فأنا أب.

قال: ألا تلاحظ أن المداعب يتصرف بطريقة متخلفة؟!

قلت بعناد: لا ليست طريقة متخلفة، ولكنها طريقة طفولية بعض الشيء!

قال بكل ثقة: لا، ليست طفولية بل متخلفة، ستقول ولكن الأطفال يقومون بهذه الحركات ونحن نقلدهم في تعاملنا مع الأطفال الأحدث سنا، معتقدين أن هذا أقرب إلى فهم الطفل.

قلت بصوت خافت حذرا:

نعم، هذا ما سأقوله حتما.

رد بصوت يحمل نبرة الظفر:

كان أبي رحمه الله يرى أن هذا النهج نهج خاطيء تماما، على الأقل بالنسبة لمن يريد أن يعمل عقله، فهو يرى أن الأطفال تصرفوا بهذه الطريقة البسيطة لأن الآباء فعلوا ذلك أولا، ولما كان هذا أسهل على عقل الطفل الذي لم ينضج بعد فاستراح إلى هذه الطريقة، ولما كان الإنسان كائنا مقلدا يبحث عن الراحة فاستراح الآباء والأولاد إلى هذه الطريقة، ومن هذا الجيل إنخفض ذكاء البشرية كثيرا وقل استعمالهم للعقل.

حككت ذقني مفكرا وبعد تدبر قصير قلت:

على الرغم من أن كلامك يذكرني بنظريات ماركس، ولكن ما الدليل على أن هذا حدث في جيل معين، لم لا يكون هذا منذ بداية البشرية، لا تنسى أن الحيوانات التي لم تتطور تداعب صغارها أيضا؟!

قال: وهنا مربط العجل!، سيدي الحيوانات تداعب أطفالها بما ينفعها «عقليا» وجسديا، أما نحن فمداعباتنا تنحصر في إضحاك الطفل أو على الأقل بعض المداعبات الجسدية البسيطة.

****

ارتفع صوتي بالضحك وأنا أنظف النظارة، وقلت:

جديدة مربط العجل هذه، على أيامنا كان حيوان آخر، وهل أتى بدليل على هذه المرحلة من البشرية يا عامر؟

قال: في الواقع اكتفى بما تفعله الحيوانات، واعتبره دليلا كافيا وأخذ يدلل على ذلك بأدلة إفتراضية عقلية مجردة.

قلت: غريبة جدا هذه النظرية.

قال: السيء في الأمر يا دكتور عبد العليم أنهم كانوا يأتون دوما في آخر اليوم، وابتسم في خبث قائلا: عندما أكون أنا على وشك الإنصراف.

نظرت إليه مندهشا، وقلت:

ولهذا أتيت في هذا الميعاد بالتحديد؟!

قال، وهو ينظر إلى الأرض، بنبرة حيرة:

صدقني، لا أدري ولكني وجدت نفسي لا شعوريا أتيك في هذا الوقت، أنا أعلم الآن أني سأسبب لك متاعب مع زوجتك بسبب التأخير، ولكن على الأقل هذا يوم واحد وليلة واحدة، أما أنا فكنت أتأخر كثيرا بسبب فضولي، كما تعرف سيدي الفاضل. وأعود ساهدا واهما ذاهلا إلى البيت فتحاصرني زوجتي بالشكوك والإتهامات وأرد أنا بهدوء يزيدها شكا، و ...

قاطعته قائلا:

وهل حكى لك عن هذه المداعبات.

قال: لا، في الواقع اكتفى بالقول أنها مناسبة للطفل عقلا وجسدا مادام قد تخطى العام من عمره، وعندما حاولت الاستفسار عنها، ابتسم في خبث وقال:

إنها مداعبات أسرية سرية تعب والده فيها ولابد من الحفاظ عليها.

وعندما نبهته إلى أن فائدة العلم في نشره، قال:

إن المداعبات تخضع لمرحلة التعديل على يديه وعندما ينهيها سيسجلها ويعلنها.

قلت: ليس المهم الآن اكتشاف المداعبات، أكمل الحكاية!

هز رأسه بدون كلمة وواصل الحكي.

****

قلت له: وماذا بعد؟

قال: بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة والتي اجتزت فيها عدة تمارين عقلية شائقة ماتعة أصبحت إنسانا مختلفا تماما، وبغض النظر عن تفوقي الدراسي المبهر فقد أدمنت القراءة، تصور قرأت وأنا في أواخر المرحلة الإبتدائية والمرحلة الإعدادية الكثير والكثير من أمهات الكتب في مجالات عدة تتجاوز مرحلتي العمرية بأربعة مراحل على الأقل.

هززت رأسي متفهما وسألته:

وكيف كانت علاقتك مع أصدقائك؟

قال: كنت أعاملهم تبعا لمرحلتهم العمرية، المهم زادتني القراءة ذكاءا ووسعت مداركي العقلية، بجانب توجيهات أبي العبقرية وخبراته التي صبها فيّ صبا، حتى امتلأت نفسي حكمة وفهما ... مع شعور بالجهل الكبير.

قلت له بخبث:

إلى أن وصلتَ إلى مرحلة التجريد؟

نظر إلي بدهشة، وبسرعة استعاد هدوئه وقال:

لا، مرحلة التجريد وصلت إليها في بداية المرحلة الإعدادية، وإنما وصلت إلى .....، قطع كلامه وقال:

جيد أنك فهمت العلاقة بين العقل والتجريد.

هززت رأسي بما يوحي أن هذا شيء أفعله كل يوم بطرف أظفر إصبعي الأصغر، وسألته:

أليس غريبا أن تصل إلى مرحلة التجريد في المرحلة الإعدادية؟ من في سنك لا يزالون أطفالا يلهون.

قال في مرارة:

ليس ذنبهم، الوزر يرجع إلى آبائهم، وهم يحملونه كاملا.

قلت بصوت حذر:

وكيف أصبحت ترى النساء؟

لاحظ نبرة الحذر، فرد بنبرة حذرة هو الآخر:

وما فيهن؟ صحيح أني لم أقم أي علاقة صداقة مع فتاة في حياتي إلا مع خطيبتي التي أصبحت زوجتي، ولكن كان هذه الأسباب عقلية بحتة ...

صمت قليلا ثم أردف:

لم يكن للدين دخلا في هذا الأمر، على الرغم من أني كنت ملتزما إلى حد ما في هذه الفترة ولكني ترفعت عن مصاحبة الفتيات، فإذا كنت أصبر على زملائي الذكور، من أجل مساعدتهم، فماذا أنتظر من الفتيات اللاتي يرين شابا في وسامتي وفتوتي؟!

ابتسمت وقلت:

ألا تعتبر هذا غرورا؟

قال بكل تواضع:

رحم الله امرأً عرَف قدر نفسِه.

المهم أني لم أقم أي علاقة مع الفتاة أو المرأة، تردد قليلا ثم قال وهو يهز رأسه:

لماذا كنت تسأل كيف أرى النساء؟

قلت وأنا أتحاشى النظر إليه:

ألم تصل إلى مرحلة أن ترى الأنف أنفا منفصلا عن الأذن والعين منفصلة عن الجبهة، وما إلى ذلك؟

قال بحيرة:

نعم، وماذا في هذا؟

قلت بحذر:

ألا تعتقد أن جسد المرأة غير متناسق نوعا ما، وأنه يثير النفور عقلا؟

نظر إلي نظرة إستغراب وقال بصوت يملؤه الدهشة:

غير متناسق؟ يثير النفور عقلا؟ معذرة، من الأحمق الذي قال لك هذا؟

قلت له: أحد من مروا بالتجريد أمثالك.

أجاب بهدوء مرة أخرى:

لا يعني وصول المرء مرحلة التجريد أن يصل المرء إلى هذه المرحلة، هذا الشخص لابد من أنه كان يعاني من مشكلة ما فنبعت عنده هذه التصورات عن المرأة، أنا أجزم لك أن التجريد لا يوصل إلى هذه النظرة أبدا.

سألته بفضول:

إلا ما يوصل إذن في هذه النقطة؟

تراقصت على شفتيه ابتسامة خفيفة، ثم قال:

عندما يتعامل المرء بتجرد مع جسد المرأة يتساءل ويفكر؛ ما الذي يثير في جسد المرأة؟ لا أن يقول أن جسدها غير مثير.

سألته بفضول نجحت في إخفاء نبرته:

وهل فكرت ما هو المثير في جسد المرأة، على الرغم من عدم اكتراثك بهذا

الموضوع؟

أجاب: نعم، كيف لا أفكر في هذا الموضوع، هل تعلم لم بدأت التفكير فيه؟

قلت: لم؟

قال: لقد نشأت في منطقة شعبية إلى حدٍ ما، وهناك ترتدي النساء الملاءات أو العباءات.

قلت: أعرف، وماذا في هذا؟

قال: الصبر، لا تتعجل سيدي.

هززت رأسي فواصل الرواية:

لاحظت كثيرا أن عددا منهن ما أن يلاحظن أني أقف في مكان وسيعبرن من أمامي أو أكون ماشيا خلفهن أنهن يشددن العباءات على أجسادهن ليظهرن تضاريس أجسادهن أمامي، لذا توصلت بعد تفكير قصير إلى النظرية «المعيزية».

قلت وأنا أتفكر في معنى الكلمة:

«المعيزية»؟! هل تقصد نسبة إلى «الماعز»؟

أجاب بكل هدوء:

نعم، نسبة إلى ذلك الحيوان.

قلت: لن أسألك كيف، ولكن سأسألك:

كيف يثير جسد المرأة تبعا لنظريتك المعيزية، سيدي الفاضل؟!

قال وهو لا يزال يبتسم:

الإنسان بطبعه يميل إلى إلحاق الأشياء بما يماثلها ويشابهها، وإذا لم يجد ما يشابهها ألحقها بما يتفق معها في بعض النقاط.

قلت: جميل، ثم؟

**قال: عندما يولد الإنسان يتعرف على البيئة المحيطة به، فيتعرف حتما ولزاما على البقرة والمعزة والغزال وما شابه.**

**ولما كان الإنسان مبدأ غذائه من اللبن، فإن صورة ثدي العنزة علق في ذهن الإنسان البدائي ولا يزال يعلق حتى الآن، فعلى الرغم من أن ضرع البقرة أكثر امتلاءً من العنزة، إلا أن تناسق البقرة يفتقد إلى الدورانات والتكويرات.**

**كررتُ الكلمة التي قالها:**

**الدورانات والتكويرات؟!!**

**قال وكأنه لم يسمع ما أقوله:**

**المرأة النحيفة جدا لا تثير أحدا، لأن جسدها كلوح الزجاج لا يوجد فيه تكويرات أو انحناءات، أما المرأة التي يوجد بها هذه الإنحناءات والتدويرات فهي تعرف قيمة ما تمتلك، وتعرف متى تظهره للرجل أو تخفيه منه لتثيره، وتختلف نظرة الرجل إلى أهمية وحجم الدورانات في جسد المرأة، إلا أن النموذج الذي لا يختلف عليه إثنان هو النموذج «المعزي»؛ وهو المرأة صاحبة الدورانات القليلة والثدي الكبير جدا، الذي لا يضر بالتناسق أبدا، من وجهة نظر الرجل.**

**سكت فترة قصيرة ثم قال:**

**على الرغم من أن الرجال في المنطقة عندنا يضربون المثل بالغزال في الجمال والتناسق، إلا أني أجزم لك أن الإنسان لم يتطور في هذه النقطة ولا يزال يلهث وراء النموذج المعيزي ويضعه نموذجا ومقياسا للجمال.**

**هذا شيء إنغرس منذ قديم الأزل في وجدان الرجل والمرأة، الثدي الممتليء رمز الخير، ولن يغير هذا من الواقع أن إحتكاك الإنسان بالمعيز قد قلّ، فسواء قلّ الأمر أو كثر فهذا قابع في خلاياه.**

**لم أرد أن أقاطعه حتى إنتهى من كلامه، ثم قلت له بصوت خفيض وأنا أدون بعض الملاحظات:**

إذن النموذج المثالي للمرأة هو العنزة، آه لو تعلم النساء هذا؟!

ثم ابتسمت وقلت بصوت أردت أن يسمعه:

آه لو سمع أصحاب فلسفة الجمال رأيك هذا!

قال بصوت واثق:

ليخبطوا رؤوسهم في الحائط، ولكن الإنسان مرتبط في حياته بحيوان من الأربعة القادمة: الخيل والجمال والبقر والضأن أو «المعيز»، مهما اختلفت مناطق سكنه أو إقامته، علم ذلك أو جهل، ولكنه متعلق بها غذاءا ونموذجا للجمال ورياضة أكثر من أي حيوان آخر.

سألته: معذرة، كم أخذت من الوقت حتى تتوصل إلى نظرية «المعيز» هذه؟

قال: احتاجت من الوقت حوالي ربع ساعة، بعد ما لاحظت أن فتاة بعينها ما أن تعبر أمامي إلا وتشد الثياب على مؤخرتها، حتى ولو كانت ترتدي ثيابا قصيرة إلى حدٍ ما.

قلت: ألا تظن أن هذا خاطر مر في رأسك؟

قال: أستاذي، الإنسان كائن «مُستعم» بطبعه، وأنا ك «شاذ»، أستطيع أن أرى، لا أحتاج إلى أن أحيّر نفسي وأشك في قدراتي، فما أن أصل إلى الرأي حتى أراجع الأمور وأربطها ببعضها ثم أتواصل إلى قرار، وصدقني من الصعب جدا جدا جدا أن أكون مخطئا.

نظرت إلى ساعتي وقلت: لقد أطلنا الحديث كثيرا في مسألة لا تستحق.

ثم ابتسمت وقلت:

مسألة «معيزية».

قال بصوت حاد:

جسد المرأة غير مهم، محتمل، أما المعيز فهامة جدا.

قلت بصوت جاد:

معذرة، سيدي الفاضل، لنعد إلى موضوعنا.

****

قلت وأنا أضحك:

مثيرة جدا النظرية «المعيزية» هذه يا عامر! غالبا سأخبر زوجي بها.

قال: أنت تضحك يا دكتور عبد العليم، بالنسبة لك فالأمر سيان ولكن تصور شاب مثلي يفكر في النظرية المعيزية وهو مع زوجه.

قلت: ولماذا ترهق نفسك بهذا الكلام الفارغِ المعنى؟ ... ولكن حتى لا نُضيّع الوقت، أكمل فنحن لدينا الليل، والليلة فقط.

قال: تحدث بعد ذلك عن تطوره من المرحلة التجريدية إلى مرحلة الفحص والتغيير.

سألته وأنا أفرك عينيي:

وما هي هذه المرحلة؟

أجاب: أنت تعرف سيدي الفاضل أن الفضول العلمي عادةٌ لا أستطيع التنازل عنها، ولقد كنت على استعداد أن أقضي الليل كله معه، ولكن للأسف البالغ إنقطع التيار الكهربائي فطلب الإنصراف، فأخذت منه موعدا آخر وقبل أن أصرفه أعدت إليه ماله فلقد استفدت منه وأنا لست ممن يأكل حقوق الناس.

****

وكما توقعت تماما لم يجادلني في مسألة رد المال عندما عللت الأمر بأني استفدت منه، وبعدها بيومين تاليين أتاني في نفس الميعاد وبكل فضول علمي سألته – طبعا بعد

التحيات القصيرة وما شابه من الجمل المحفوظة-:

ما هي مرحلة الفحص والتغيير؟

قال بكل هدوء:

بعد أن وصلت إلى مرحلة التجريد لابد أن تفحص الناس وتغيرهم، وأن تفحص نفسك وترى مقدار تجردك، باختصار انتقلت إلى مرحلة التجارب.

قلت باستنكار شديد وقد علا صوتي:

تجارب على البشر، من تظن نفسك يا هذا؟ إله؟

قال بكل خجل:

أنا أعرف أني لا يحق لي أن أجري تجارب على الناس، ولكن كما قلت لك كل ما تقوم به عائلتنا مُوجه، فحتى تجاربي على الناس سأخرجهم منها بنتائج وبفوائد في حياتهم. لذا كان لا بد أن يكون نفع الناس من هذه التجارب أكبر من نفعي.

قلت وقد بدأ منطقه يقنعني:

وما كانت طبيعة هذه التجارب؟

قال: لا شيء، مواقف افتراضية، كنت أضع نفسي فيها.

كما تعرف، هناك فارق بين النظرية والتطبيق، ولكي تصل إلى التجريد تحتاج إلى بعض العزلة، وبعد العزلة تحتاج إلى احتكاك حقيق مع الناس، والحمد لله دخلت في تجارب عجيبة مع كثير من الشباب والرجال، والحمد لله لفوا وداروا من هذه المواقف ولكني أخرجتهم منها بخبرات عظيمة وقدرات أعظم.

لاحظت شبح إبتسامة على وجهه وهو يقص هذه التجارب فسألته:

لم التحديد بالرجال والشباب، ألم تدخل في تجارب مع النساء؟!

قال بكل أسى:

ما أفلحت واحدة، كلهن كن يسقطن دوما، حاولت ولكن بلا فائدة، فكان رد فعلي

قاسيا.

قلت بحذر:

أنا أفهم طبيعة العقاب للمرأة، فهل هو كما أفهم؟!

قال بلا مبالاة:

أنا كنت أنتقي من يستحققن العقاب وأحاول تغييرهن فإذا لم يفلحن، كنت أفضحهن!

قلت بانفعال:

أنت معقد.

لم تستفزه كلماتي، وإنما قال بحزم:

عجيب، نساء ساقطات –إلى حد ما– أحاول إصلاحهن، فإذا لم يفلح الدواء نعزلهن من المجتمع، ماذا خسرت البشرية بذلك؟

لا شيء، بالعكس، لقد استفادت.

قلت بنفس الحدة:

ومن أعطاك الحق لتكون القاضي والجلاد؟

قال بكل برود:

الإصلاح أعطاني الحق، ولابد من وجود بعض الضحايا.

حاولت استرجاع هدوئي وأنا أقول له:

كل الأباطرة يدعون ذلك وأنت بهذا طاغية ولكن عقلاني، وحتى لو ...

لندع هذا الموضوع، أنت تقول أنك تريد الإصلاح ما أستطعت، لم لا تؤلف كتبا وتنشرها على البشر فينتفعوا بها، وخاصة أنك لاينقصك المال كما يعوزه كثير من المفكرين؟!

قال بصوت يحمل نبرة سخرية:

نحن ننشر أعمالنا على الشبكة المعلوماتية بصورة متقطعة، أما مرحلة النشر الكتابي فستكون بعد اكتمال الأبحاث، والتوصل إلى جل النتائج المطلوبة.

قلت: ولم الإنتظار إلى النهاية، لم لا تنشر مجزئة؟

قال بصوت يحمل نبرة عصبية:

وهل تعتقد أني سأحيى بعد إصداري أي كتاب من كتبي؟!

قلت بكل هدوء:

دعك من عقدة المطاردة والمؤامرة هذه، كتابك لن يغير العالم، لا تجعل له أهمية كبرى، أكبر مما يستحق. ثم لماذا سيفكر أحد أصلا في قتلك؟!

قال بنفس العصبية:

سيدي، أخي، أستاذي، الحرب على العقول قديمة، وكهنتها يشعلون الحرب لإلهاء العقول وشغلها بأوهام عدة، هل تعلم ماذا سيحدث إذا نجحنا في نشر العقلانية في البشرية؟

هل تعلم ... لا، لا. هل سمعت عن المدينة الفاضلة؟

قلت: قرأت عنها، ماذا في هذا؟

قال: نحن الآن في سبيلنا إلى إنشاء واحدة.

قلت بكل ذهول وقد ارتفع صوتي:

ماذا؟! من أنتم أساسا؟!

قال وقد استعاد كل هدوئه وثقته، بل وظهر في صوته نبرة فخر:

أنا لم أضع مجهود أبي سدى، لقد نجحت في إقناع بعض رجال الأعمال أصحاب المباديء، وأنا أتحمل النصيب الأكبر، والأمر غير مكلف، جزيرة منعزلة، طبعا لم نشترها، بعض أطفال من الملاجئ، موارد بسيطة، تطبيق للمباديء، تدريب على التجرد، تربية على الأخلاق الصارمة، والحمد لله التجربة حتى الآن تحت السيطرة

وتسير تبعا للخطة الموضوعة.

قلت وأنا أحك رأسي:

هذا عجيب، أشعر أنني أسمع قصة خيال علمي.

قال بسخرية:

نحن ألغينا الخيال الواهم، الأمر أبسط مما تتصور، خيم وكهوف وأكواخ، شاركوا هم في بنائها، مع أحدث الوسائل التقنية.

ثم اتسعت ابتسامته الساخرة، وقال:

هل تعلم لو كنت أحلم بالسيطرة على الاقتصاد، لنجحت في ذلك بهؤلاء. ولكن هذا مالا أسعى إليه.

قلت وأنا أحاول ترطيب جفاف حلقي بابتلاع ريقي:

هذا جيد، ما المشكلة في هذه المدينة والنتائج التي ستخرج منها؟

قال وقد عاوده الانفعال مرة أخرى:

سيدي، نحن سنقدم للبشر نموذجا مختلفا، سنقول لهم هناك إمكانية أخرى للحياة غير هذه الحياة، سنقول لهم أنتم تعيشون في وهم.

وحتى الآن الأمر جيد، ولكن المشكلة في التطبيقات، أديان كثيرة ستدافع عن وجودها في مقابل المذهب العقلاني الصارم، ستنهار كل الأديان تقريبا تحت معاول الهدم، النظام الاقتصادي الرأسمالي المسعور سيُلغى، سيُحطم، أشياء كثيرة ستتغير، هل تعلم فيما أخطأت المدرسة الشيوعية في تطبيقها للمنهج؟

قلت بفضول:

ألا تلاحظ تشابه أفكارك أو أفكاركم مع الماركسية؟

قال بعصبية:

لا، الماركسيون حمق، أغبياء وتطبيقاتهم مثالية إجبارية، ولكن بطبيعة الحال، لابد من

**وجود تشابه في بعض الأفكار أو النتائج، ونحن نشابههم فقط في مسألة تضييق الفوارق بين الطبقات بدرجة كبيرة بالمنهج العقلاني، لا أننا نسعى إلى إلغائها، فهذا لم ولن يكون، فالناس متفاوتو القدرات العقلانية.**

**المهم كثير من أصحاب المصالح الروحية أو المادية لن تعجبهم هذه التجربة ونتائجها، لذا فلن يضيرهم و، أو يؤثر فيهم أن يجهزوا عليها في هذه المرحلة وخاصة أن الأولاد لا يزالون في المرحلة الإعدادية، بتعبير لغوي بحت وليس المرحلة الإعدادية في المدارس.**

**هناك الكثير من المستفيدين من ثبات الأوضاع ونحن لسنا منهم بأي حال .**

**قلت وأنا أنظر إليه نظرة عجب:**

**ألا تعتقد أنك تضخم من نتائج التجربة على أي حال؟**

**قال بهدوء:**

**لا، لا أعتقد، فكما يعمل غيرنا ويخطط لسنوات طوال، فكذلك نحن، أنا أخطط منذ إثني عشر عاما ولا تعتقد أن هذا انحصر فقط في جزيرة وبضعة أطفال، للنهوض بالعقل يحتاج الأمر إلى خطوات أوسع وأكبر، ونحن نخطو بخطى في هذا الإتجاه، نعم جد بطيئة ولكنها ثابتة وستتسارع مع مرور الوقت.**

**قلت وأنا أشعر أن عيناي ستنفجران من شدة الذهول والاتساع:**

**هل أستطيع أن أعرف هذه الخطوات؟**

**قال بكل عزم:**

**بالطبع لا، يكفيك ما عرفته الليلة.**

************

**قلت وأنا أهرش مؤخرة رأسي:**

**عجيب جدا أمر المدينة الفاضلة العاقلة هذه، هل تعتقد أن ما يقوله الرجل كان صدقا؟**

**هز كتفيه وقال:**

**الله أعلم، لقد تحريت عن الرجل فيما بعد، وعلمت أنه رجل أعمال ناجح جدا، غريب الأطوار ولكنه معروف بحزمه وأمانته، وربما يكون ما قاله صحيح أو مجرد هذيان.**

**قلت وأنا أهز رأسي لأنفض منها التفكير في هذه المسألة:**

**لا عليك يا عامر، هذه الدنيا عجيبة جدا ولا مانع من أن يكون هذا حقيقي وقد نعيش أو تعيش أنت اليوم الذي نرى ونسمع فيه عن المدينة الفاضلة أو العاقلة. أكمل القص يا تلميذي العزيز، فالوقت ينقضي بسرعة.**

**قال وهو يبتسم ابتسامة ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة كبيرة:**

**الحق يقال يا دكتور، لقد استغللت وجوده، وطرحت عليه كل الألغاز «الأحاجي» التي مرت علي في حياتي العبثية والجدية، والتي كنا نحاول عبثا حلها، فحلّها بكل هدوء. ولم لا؟ فهو لا يدفع لي.**

********

**بعد حل الفوازير سألني:**

**والآن، هل صدقت أني كما أقول لك، ولا أخدعك؟**

**شعرت بحرج شديد وأنا أقول له:**

**في الواقع، لم أكن أقصد اختبارك بل قصدت استغلالك، ولكن دعنا من هذا الموضوع، هل يمكنني أن استنتج نوع الورم الموجود عندك في العقل؟**

**نظر إلى نظرة متفحصة طويلة ثم قال:**

لا أ .... تفضل!

قلت وأنا أشعر أني طالب يحل مسألة حسابية أمام مدرسه:

أنت تشعر الأن أنك إنسان آلي معدوم المشاعر، تحتاج إلى تقليل سيطرة العقل بعض الشيء، حتى تستطيع أن تحيا حياة طبيعية مع أهلك، الخلاصة أنك تحتاج إلى تقليل العقل الذي تورم عندك.

زفر زفرة ثم قال بهدوء يحمل نبرة ضيق:

كما توقعت، أتيتَ بما توقعتُه تماما، اسمح لي يا طبيبي العزيز أن أقول لك:

لقد خانك ذكاؤك الذي كنت أسمع عنه الكثير، والذي دفعني إلى المجيء إليك، ليس هذا هو ورم العقل الذي أعاني منه!

نظرت إليه محرجا وقلت بتوجس:

هل هناك بعض الشطحات الأخرى في رأسك؟

قال بكل هدوء:

رأسي لا يحمل أي شطحات أولى حتى يكون هناك أخرى، كل شيء محسوب ونحن نتوكل على الله ويشاء الله ما يريد.

قلت: ونعم بالله، فما هو الورم في العقل إذن؟!

قال بمرارة:

أنا أفقد السيطرة تدريجيا.

سألته بحذر:

على ماذا تحديدا؟

قال: من المرحلة الإعدادية وأنا مسيطر تماما على مشاعري وإنفعالاتي، أضحك عندما يستدعي الموقف الضحك لأنه يجب أن أضحك، وإلا سأكون غير طبيعي، أبكي عندما يستدعي الأمر البكاء، وهكذا في باقي المواقف أتصرف تبعا للموقف.

قلت بعصبية مختلطة بتعجب:

وهل تجد هذا شيئا جيدا؟! أنت إنسان ميت بلا مشاعر، هل هذه حياة؟! هل كنت تشعر بالسعادة في حياتك هذه؟ أم أن السعادة لا مفهوم لها عندك كذلك؟!

رد وهو يهز رأسه بما يعني الإيجاب:

نعم، أجد هذا شيئا جيدا، عندما تحقق أهدافك تجد هذا شيئا جيدا، تشعر بالنشوة، بالمتعة ... أنا أعلم أني تعرضت لعملية غسيل دماغ منذ الصغر، ولكن يمكن القول أنها نافعة وموجهة وليست عبثية مثل التي وقعتم تحت تأثيرها.

أنا أعلم أن هناك الكثير من المشاعر الجيدة التي يحتاجها الإنسان، ولكني أعلم أن الوصول إلى الأهداف العظام يحتاج إلى الكثير من التضحيات، ويكفيني أن أكون إنسانا في لحظات الصلاة، بخلاف ذلك يرضيني جدا أنا أصير عقلا.

قلت وقد بدأت الصورة تتضح أمامي:

إذا فأنت تفقد الآن السيطرة على مشاعرك، وأصبحت تتعامل مثل بقية خلق الله؟!

قال بمرارة وهو ينظر إلى أرض الغرفة:

نعم، لو قابلتني منذ شهور عدة لكانت كل إنفعالاتي مفتعلة، أما الآن فأنا أغضب وأحزن وأشعر بالمرارة والعصبية، نعم، كل هذا بدرجات أقل بكثير من الناس، ولكن يكفي أن تضع رجلك على أول الطريق لكي تكمل إلى آخره.

قلت بغباء متعمد:

وماذا تريد مني الآن؟ هل تريدني أنا أعيدك إلى ما كنت عليه؟!

لم تكن الإجابة مفاجئة، عندما رد بكل هدوء:

نعم.

****

قلت وأنا أفرك عيني، اللتان بدأتا في الإحمرار:

وماذا فعلت معه؟

أجاب وهو يهز كتفيه:

رفضت طبعا، وحاولت إقناعه أنه هكذا في طريقه إلى أن يصير إنسانا طبيعيا ويحيا مثل كل الناس.

قلت: وبالطبع رفض؟

قال وهو يحرك رقبته، والتي يبدو أنها أصابها التصلب قليلا:

أخذنا نتحاور في معنى الطبيعي والشاذ، وما فائدة الشذوذ في بعض الأحيان، وما الضرر في أن تكون شاذا لتجعل الآخرين طبيعين من وجهة نظرك.

واستمر الجدال طويلا، نعم كان في كلامه الكثير والكثير من الصواب والصدق ولكني رفضت في النهاية علاجه.

قلت مستنكرا:

علاج، هو في طريقه إلى التحسن، ويريد أن ينتكس وتُسمي هذا «علاجا»؟!

قال بهدوء يحمل نبرة تحدٍ:

بالنسبة له هو الآن مريض يحتاج إلى علاج، وإن كان بالنسبة لنا مريضا في طريقه إلى التحسن، لذا صرفته وأنا لا أشعر بأي تأنيب للضمير، فهو في طريقه للتحسن تلقائيا، حتى لو أدى تحسنه إلى حالة اكتئاب ولكن في هذه الحالة يمكن العلاج فعلا.

قلت: الحالة صريحة أكثر من اللازم، تُقر أنها تعرضت لعملية غسيل دماغ موجه، وأنا أرى أنك تعاملت معها كما ينبغي.

**قال وهو يمط شفتيه:**

**ما أثر في كثيرا سيدي الفاضل هو نظرته للحياة، ومنطقه في مسألة «الشذوذ» و«الطبيعية»، ربما أحكي لك في زيارة لاحقة هذه الحوارات، ولكن لنترك هذا الأخ العاقل جدا وننتقل إلى الشاذ الثالث.**

**قلت: لننتقل إليه بسرعة.**

**قال وهو يبتسم:**

**ولكن هناك مشكلة تتعلق بهذا الشاذ!**

**قلت بحيرة تحمل درجة من العصبية:**

**هذا *طبيعي*، لابد من وجود مشكلة ما، أليس شاذا؟! فما هو المانع إذن؟!**

**قال بابتسامة غامضة:**

**أنه هنا ... وهناك!**

**قلت بحيرة أكبر، ولكنها خلت من العصبية:**

**ماذا تقصد؟**

**قال بابتسامة أخذت في الاتساع:**

**أسمع لتعرف.**

**سحبتُ الكرسي تجاهه وجلست إليه ... لأسمع.**

# أنا .. هناك

كنت قد شعرت بجوع شديد في تلك الليلة، لم أستطع أن أقاوم هذا الشعور اللذيذ! بعثت الممرض ليحضر لي بعض الطعام، وأنا أتناول الطعام أيقنت أني لن أتناول الطعام في البيت وسأخبر زوجي أني تعشيت عند زوجي الثانية!

ابتسمت وأنا أتصور شجاري اللذيذ مع زوجي الحبيبة، لذا أتيت على الطعام وبعد ذلك طلبت إلى الممرض أن يدخل الزبون الأخير.

شعرت بالطاقة تتدفق إلى عروقي وأوداجي، وشعرت بالذنب أني أخرت الزبون حتى أتناول طعامي، فقررت في قرارة نفسي أن أطيل معه قدر الإمكان حتى أعوضه عن الإنتظار.

ما أن دخل حتى تعاظم الذنب بداخلي أكثر وأكثر، فلقد كان نحيفا بدرجة عجيبة ويحمل ملامح وجه شاحبه تشعرك أنه خارج للتو من المقبرة، أو أنه لم يتناول الطعام منذ أيام طوال.

حييته وطلبت إليه الجلوس، واعتذرت منه على التأخير ورجوته أن يقبل كأس عصير فواكه مني لأني سأتناول واحدا فلم يمانع.

كان اسما على مسمى، كان اسمه: «هادي»، وكان هادئا بطيء الحركة إلى حد ما. شعرت وأنا أتأمله أنه يطابق اسمه بدرجة 100%.

قرأت أن كلا منا يحمل نصيبا من اسمه، أما هو فيتطابق مع اسمه، تأملته أكثر فلم أخرج بانطباع أكثر من الذي أخذته من النظرة الأولى.

ارتشف رشفة صغيرة من العصير، ثم شرد ذهنه لثواني، ثم فوجئت به وللعجب الشديد يسكب العصير في فمه مرة واحدة.

اتسعت عيناي من الدهشة، فلقد رأيت مرارا من يشرب الكوب في شربة واحدة أما أن يسكبه مرة واحدة فهذا عجيب، ويشير في الوقت ذاته إلى مرونه عجيبة للفك

والبلعوم! على الرغم من هذا لم أعلق على فعله العجيب!

وضع الكوب على المنضدة وقال بصوت يحمل بعض نبرات الخجل: معذرة، ولكني تعودت أن أشرب هكذا لفترة كبيرة، ولقد شعرت أني شردت .. ف .. ف

تلعثم في كلامه فقلت له مطمئنا:

لا عليك.

أنهيت آخر رشفة في العصير ووضعته جانبا وطلبت إليه، وأنا أشير إلى الأريكة، أن يسترخي، فاتجه بخطوات بطيئة متثاقلة إلى الأريكة وجلس عليها وأرخى ظهره على الحائط.

لم أعلق على الجلسة، وبدأت في أخذ بعض البيانات الشخصية.

كان في الخامسة والثلاثين من عمره ينحدر من عائلة ثرية جدا، خريج كلية الآداب قسم فلسفة، يدير حاليا أعمال والده.

بدأت حواري معه بقولي:

وضع جيد يا هادي، ما المشكلة التي تقابلها؟

ضم رجليه إلى صدره وأرخى ذقنه على ركبته وقال بتوتر:

أنا هناك.

قلت بحيرة لم تظهر في صوتي:

هناك، كيف؟! ماذا تقصد، أنت هنا الآن؟!

قال وهو ينظر لا إلى شيء:

طبعا أنا هنا الآن، ولكني أقصد أني كنت هناك، وعلى الرغم من أني لم أعد هناك، إلا أني أشعر أني لا أزال هناك، وأشعر برغبة شديدة في العودة إلى هناك.

لم أرد أن أقاطعه وانتظرت حتى أنهى كلامه، فقلت له:

جميل، أين كنت بالتحديد؟!

قال وهو ينظر إلي نظرة غير محددة المعنى:

كنت هناك حيث يحمل كل منا روحه بين كفيه، وينتظر أن تصعد إلى بارئها، حيث تتساقط القنابل كالأمطار وتتناثر الرصاصات كالرذاذ، حيث ...

لم أسمع ما قاله بعد ذلك، بل شردت وتعجبت وقلت في قرارة نفسي:

هذا عجيب، من الصعب أن يكون هذا الشاب قد شارك في حرب أكتوبر أو حتى في الانتفاضة الفلسطينية، ثم انتبهت إلى ما يقصده فاتسعت عيناي من الذهول وسألته:

هل ... هل تقصد أنك كنت في ... في ...

قال وقد استعاد بعض هدوئه:

نعم، كنت هناك في العراق.

قلت باستنكار مشوب بالعجب:

أنت كنت في العراق، ماذا كنت تفعل هناك؟ هل كنت في بعثة أو ما شابه؟!

قال بابتسامة ساخرة تكونت في جانب شفتيه:

بالطبع لا، لقد كنا هناك نقاتل الأمريكيين.

قلت بصوت متهدج:

كنت من الجهاديين؟

قال بصوت قوي وقد انتفخ صدره:

نعم، بل ووصلت إلى زعامة أحد التنظيمات الصغيرة أيضا.

تراجعت بظهري إلى الخلف قليلا وأنا أقول مندهشا:

أنت؟!

قال بكل فخر:

**لا تتعجب سيدي الطبيب ولا يخدعنك المظهر، فهذا النحيف البطيء الحركة الذي تراه أمامك قتل بيديه سبعا وثلاثين من الأمريكيين.**

**قلت وأنا أهب من مكاني فزعا: أنت، قتلت سبعا وثلاثين؟!**

**قال بنفس الفخر:**

**هذا ما قتلته بيدي، بخلاف ما قنصته وبخلاف ما فجرناهم أنا والإخوة.**

**قلت وقد اتسعت عيناي من الفزع:**

**هل أنت جاد؟!**

**قال بصوت واثق:**

**هل أقسم لك أنني ذبحت بيدي هاتين أكثر من نصف هذا العدد، ومات الباقي منهم بالكهرباء على يدي أيضا.**

**شعرت بمعدتي تتقلص وأحسست برغبة عارمة في التقيؤ، فها هو رجل يحكي أنه قتل ما يقرب من أربعين شخصا بيديه، ويروي ذلك بكل هدوء وكأنه يعمل في مجزر دجاج، ولكني تمالكت نفسي بصعوبة وقلت له:**

**وهل تجد هذا مدعاة للفخر؟**

**قال بصوت مرتفع يشوبه بعض السخرية:**

**نعم، فمن ذبحتهم كانوا يستحقون التقطيع والقلي أحياءً، لذا فأنا كإنسان رحيم ذبحتهم، أما من قتلتهم بالكهرباء فلقد كانوا يستحقون الذبح، أنظر كم أنا رحيم!**

**قلت وقد استعدت بعض هدوئي:**

**ونِعم الرحمة، ولكن ما الذي يثبت أنك كنت في العراق من الأساس؟**

**فوجئت به يخلع القميص الذي يرتديه في سرعة كبيرة، ويقفز بنشاط من على الأريكة، ثم ينقلب في الهواء كما يفعل لاعبو الجمباز ويهبط أمامي مباشرة.**

**كان وجهه في الناحية الأخرى، وقال:**

أنظر إلى هذا الظهر يا دكتور، هل ترى ما به؟

ما أن نظرت إلى ظهره حتى أغمضت عيني بسرعة، كان هناك ما يشبه القنوات في ظهره.

وسمعته يقول:

إفتح عينيك يا دكتور ولا تخش شيئا!

شعرت أنه يتكلم هذه المرة ووجهه تجاهي، ففتحت عيني فوجدته واقفا قبالتي وهو يضع القميص على صدره ويقول:

هل تريد أن ترى مشهدا أماميا؟

قلت وأنا أشيح بوجهي:

لا، هذا أكثر من كافٍ، ارتدي ملابسك!

ارتدى ملابسه، وبخطوة واسعة وصل إلى الأريكة واستند بيد واحدة على الأريكة وارتفع بجسده أفقيا ونزل بكل سلاسة على الأريكة بدون أن يصدر أي صوت، واسترخى متمددا عليها وأغمض عينيه.

هززت رأسي حتى أنفض أثار هذا المشهد، وقارنت بين هادي، الذي دخل الغرفة بخطى متثاقلة وبين هذا السفاح الذي يتواثب في الغرفة مثل أي قرد أو لاعب جمباز، ولحظتها أيقنت أنه لا يحمل أي نصيب من اسمه إلا ظاهرا.

جلستُ أنا بصعوبة على الكرسي، ثم غلبني الفضول فسألته:

هل يمكن أن أعرف الأسباب التي دفعت بك إلى السفر إلى هناك، وأنت كما يبدو من ملامحك؛ إنسان خجول هادئ؟!

قال بهدوئه الذي دخل به:

نعم أنا هادئ خجول، ولكن ما علاقة هذا بالسفر إلى هناك، الأمريكيون أتوا بأرجلهم إلينا فهل نضيع هذه الفرصة؟!

قلت: معذرة، ولكن نسبة موتك أو موت غيرك عند الوصول إلى هناك أعلى بكثير من نجاحك في هدفك؟!

قال بكل ثقة:

أنا، كخريج فلسفة متمكن، أقول لك: خليها على الله! ... ومعذرة، الإنهزاميون هم سبب هزيمة هذه الأمة.

قلت وأنا أنقر على سطح المكتب:

بغض النظر عن الانهزامية المسيطرة على الأمة، لابد من وجود سبب قاهر لمن هم في مثل حالتك للسفر إلى العراق، مشكلة إجتماعية، أزمة عاطفية أو ما شابه!

قال بسخرية مريرة وهو ينظر إلي نظرة ضيق:

أزمة عاطفية، أهذا ما درّسوه لكم؟! ... لا يا سيدي، لم أكن أمر بأي حالة، كنت إنسانا طبيعيا -مع تحفظي على طبيعي هذا- هادئا خجولا، ملتزما، ولكني كنت من أصحاب المبادئ، وما أن دخل الأمريكيون العراق في إبريل المشئوم، حتى انتظرت أن يثور الشعب العراقي ويعلن العصيان المدني، ويرفض التعاون مع الأمريكيين.

وصدقني لم يكن سيموت في هذا الأمر لا عشرات ولا حتى مئات من الجوع، وإنما كان سينال الشعب حريته، أما الآن فيموت العشرات يوميا.

الشاهد أني وجدت الشعب العراقي المجهد تصرف مثل كل الشعوب العربية المستكينة ولم يفعل شيئا.

قلت: هذا هو المنتظر.

واصل حديثه كأنه لم يسمعني:

هنا شعرت أن مبادئي على المحك، إما أن أفعل شيئا أو أن أتنازل عنها، ومن هنا إتخذت أهم قرار في حياتي، وهو السفر إلى العراق.

سألته:

وكيف أخبرت أهلك بذلك؟

قال بهدوء:

وهل أنا أحمق؟ طبعا سيرفضون ويمنعونني، لقد أخبرتهم أني مسافر إلى دولة أوروبية لأجري صفقة وسافرت إلى أوروبا، ومنها إلى إيران ومن هناك دخلت العراق.

قلت بحرج:

معذرة، ولكن ألم تكن تعتقد أنك لن تفلح في هذه المهمة بسبب ...

قال متفهما:

تقصد نحافتي، وأني من عائلة غنية مترفة؟

قلت وأنا أتحاشى النظر إليه:

نعم.

قال بابتسامة واثقة:

ومن أدراك، أنا حاصل على بطولات عدة في التصويب "الرماية"، وعلى بطولات أكثر في الكونغوفو.

قلت بتفهم:

هكذا إذن، هذا يغير الوضع كثيرا، المهم ماذا حدث بعد ذلك؟

قال وهو يهز كتفيه ويبتسم ابتسامة شاردة كأنه يتذكر ذكرى سعيدة:

ما أن دخلت العراق حتى أُلقي القبض علي، ولأني أحمل ملامح لا تدل على هويتي المصرية، تظاهرت بالخرس، وهناك أعتقلت مع بعض الأخوة الجهاديين، تصور هذا الإعتقال غير المبرر أراحني كثيرا، فلقد وفر علي جهد البحث عنهم وإقناعهم بالإنضمام إليهم.

إتسعت ابتسامته وهو يقول:

وفي هذه الأيام ذقنا العذاب أصنافا وألوانا، إلى أن نجح بعض الأخوة في إخراجنا من السجن بعملية فدائية، ومن يومها تلقينا تدريبات مكثفة على المتفجرات واستعمال القنابل وقاذفات الصواريخ، ولم أكن في حاجة إلى تدريبات الرماية أو القتال، والحمد لله أذقنا الأمريكيين العذاب أصنافا، وعلمناهم أنهم عبارة عن بضع دجاجات مذعورة تحمل صواريخ فتاكة، يكفي أن تصرخ فيهم ليهربوا، بل ربما يموت بعضهم من الرعب.

قلت موافقا:

معك حق، فهم مفزعون حقا، ولكن ألا تعتقد أنك تبالغ بعض الشيء؟

قال وقد عاد إليه عصبيته وتوتره:

أنت ممن يصدقون وسائل الإعلام، يا أستاذي، الأمريكيون كذبوا أكبر كذبة في التاريخ، والعالم يريد أن يصدقهم أو على الأقل لا يريد أن يظهر أنه يكذبهم، هل تعرف، ذات مرة نسفنا معسكرا كاملا بما فيه ومن فيه.

قلت مندهشا:

معسكرا كاملا؟!

قال بكل زهو:

نعم، كاملا، وخر على رؤوسهم، وأجزم لك أن القتلى تجاوزوا المائة، ولكن لم يُسمع عنه شيء في أي نشرة أخبار.

قلت معارضا:

هل يمكن أن يخفوا أمرًا كبيرًا كهذا؟

قال بثقة العارف ببواطن الأمور:

نعم، وأكبر من ذلك، ما يعلنونه هو عينة من القتلى، وأنا أجزم لك أن أقل عدد يمكنك وضعه بجوار المعلن هو صفر، أي عشرة أضعاف المعلن على الأقل ... على

الأقل.

أشرت إليه أن يواصل الحكي، فقال:

هل تعلم، لم ينجح الأمريكان في القبض علي ولا مرة بعد الإعتقال الأول. والحمد لله أخذنا في الانتقال من نجاح إلى نجاح.

والحق يقال كان من الممكن أن يلقوا القبض علينا لمرات عدة، ولكن هذا كان سيكلفهم بعض الجنود فكنا نستطيع الهرب.

سألته: هل تسمح لي أن أسألك لم عدت؟

قال بملامح يعلوها الأسى:

اختلطت الأمور كثيرًا فلم نعد نقتل الأمريكيين فقط، لقد نجح هؤلاء الخبثاء في إدخال الشيعة في خط المواجهة واضطربت الأمور إضطرابا عظيما، وهنا شعرت أن القتال لم يعد على جبهة واحدة، ورحم الله امرأً عرَف قدر نفسه، فقررت الإنسحاب حتى لا ألوث يدي بدم أخوتي بدون أن أعلم وبدون أن يشعروا.

وحتى لا يلوثوا أيديهم بدمي، لذا قررت الإنسحاب.

قلت بهدوء نسبي:

ألا تلاحظ أنك تتحدث بسعادة بالغة عن القتل؟!

رد بكل ثقة:

لا، أنا لا أتحدث بسعادة عن القتل أو الموت، وإنما أتحدث بسعادة بالغة عن المشاركة في تحطيم رمز من رموز الطغيان والاستبداد والاستعباد في هذا العصر القبيح.

قلت: إذن هي مسألة رموز؟

هز رأسه موافقا، وقال:

نعم، وكما قلت لك أنا صاحب مبادئ، وصدقني على الرغم من أني حصلت على

العديد من البطولات في الرماية والكونغوفو، إلا أني لم أجرؤ يوما على أن أتشاجر مع أي إنسان، وعشت حياتي في هدوء.

وما أن وطأت قدماي العراق وأُسرت، وذقت من العذاب أصنافا قبل تهريبنا، حتى شعرت بأني أتغير، فلم أعد ذلك الإنسان الذي يتحرك بهدوء وخجل، فقد تحولت إلى إنسان يتحرك بدافع الإنتقام.

هززت رأسي متفهما وقلت:

وتحولت إلى ذلك الوحش الجريح.

قال بصوت يحمل خليطا من الفخر والمرارة والثقة:

لم أتصور بأي حال من الأحوال أني أحمل في داخلي كل هذا الكم من الدموية والوحشية، هل تعرف، عندما خرجت في أول عملية قنص لم تتردد يدي لحظة في الضغط على الزناد، وعندما اخترقت الرصاصة عين ذلك الجزار الأمريكي ونفذت إلى مخه لم أعرف هل انحرفت الرصاصة عن جبهته واخترقت عينه أم أني تعمدت ذلك؟!

وعندما اكتشف الرفاق مهارتي في الرماية أعدوا وهيئوا لي عمليات قنص ذات حماية للانسحاب، فقنصت عددا لا بأس به، وكان الأخوة يرغبون في تصوير العمليات إلا أني أصررت على الرفض.

سألته: لم؟

قال بحزم:

نعم، نحن نقتل هؤلاء السفاحين رموز الاستعباد، ونضرب أمريكا على قفاها وهي تبتسم ببلاهة في الساحات الدولية مظهرة أنها تحقق انتصارات في العراق، ولكن نحن لا نسعى إلى إثبات أفعالنا وجرح مشاعر الناس المرهفة بعملياتنا، يكفينا أن نضرب أمريكا على قفاها، هذا وحده أكثر من كاف، نشوة رائعة.

قلت ساخرا:

مشاعر مرهفة فعلا!

قال منفعلا وقد علا صوته:

تسخر مني؟ هذا ما نأخذه منكم، تسخرون وتنتقدون، ولولاي وأمثالي لكانت أمريكا ترتع في سوريا وإيران وغيرها من الدول الإسلامية.

قلت مهمهما: أنا آسف، لا عليك، واصل.

استعاد هدوءه بعض الشيء وقال:

لا شيء جديد، أصبحت وحشا في مقابل الأمريكيين فقط، أصبحت وحشا سريع الحركة ورد الفعل بطريقة عجيبة، أصبحت أنام بعينين مفتوحتين، وازددت نحافة عما كنته.

لاحت ابتسامة على شفتيه عندما وصل إلى هذه النقطة، وقال:

ولقد نفعتني نحافتي هذه في التسلل إلى بعض المعسكرات الأمريكية وتنفيذ بعض العمليات، اكتسبت كثيرا من الخبرات، خبرات بشعة ولكنها نافعة، تعلمت كيف تصير كسرة الخبز النظيفة من الرفاهيات، تعلمت ما تعنيه التضحية من أجل الآخرين، وما يعنيه تنازل الجزء عن ذاته من أجل الكل، تعلمت أشياءا كثيرة، تعلمت ...

قاطعته قائلا:

وكيف كان شعورك في هذه المرحلة، الخوف، القلق، التوتر؟

أجاب بكل هدوء:

لست أدري إذا كنت ستصدقني، ولكن صدقني كانت تحيطني طمأنينة عجيبة وهدوء أعجب، كنت أنام بعينين مفتوحتين، نعم، ولكن نوم هادىء لا كوابيس فيه، أنعم فيه بالأحلام الناعمة، لم يخطر ببالي في لحظة واحدة فكرة الخوف، بل كنت أشعر بالسعادة.

دونت بعض الملاحظات ثم سألته:

وما هي مشكلتك الآن؟ هل تراودك بعض الكوابيس، أم أنك تشعر بتأنيب الضمير جزاء ما اقترفته يداك؟!

قال وقد عاد إليه صوته المتثاقل:

لا هذا ولا ذاك، كما قلت لك، لا أزال أشعر أني هناك.

قلت في حيرة:

كيف هذا، ماذا تعني؟

قال بصوت مختنق وشعرت أن الدموع بدأت تتجمع في مقلتيه:

لقد أصبحت أشعر بالغربة في وطني، فعلى الرغم من أني لم أقضي في العراق أكثر من عامين إلا أني أصبحت أشعر أن هذه البلدة صارت بلدي، وهذه الحياة أصبحت حياتي، أصبحت أشعر بالغربة في وسط أهلي، فقدت معنى الحياة وأصبحت أشعر بالملل من حياتنا اليومية وأراها عديمة النفع، مقطوعة الهدف، لا غاية لها، فأصابني الإحباط.

قلت بصوت هادئ:

غريب جدا أن تشعر بالألفة مع القتل والدماء والتنقل، وتشعر بالغربة مع الحياة الآمنة.

قال بصوت متقطع:

لقد .. لقد .. لقد صرت «شاذا»، سمني ما يحلو لك، فأنا أعترف أني شاذ، ولكن نِعم الشذوذ ذلك الذي به يُحمى الوطن ويصان عرضه، ويدافع عن بيضته.

سألته مستغربا:

بيضته! ماذا تعني؟

همَّ بالرد والتوضيح ثم هز رأسه وقال:

دعك من الكلمة، المهم أني أصبحت مُحبطا بدرجة كبيرة، فانعكس ذلك في حياتي بصورة تكاسل كبير ولا مبالاة عجيبة وشرود مستمر، أصبحت أشعر أني أنتمي إلى

هناك ولا أنتمي إلا إلى هناك، أشعر أني تركت عشقي ورحلت، تصور آلة قتل وإهانة الأمريكيين تستيقظ فتشرب القهوة بالحليب مع الإفطار في الحديقة، ثم تذهب إلى الشركة وتعود مرة أخرى، لا إثارة، لا هدف، لا ....

قاطعته متفهما:

ولكن ينتابك الحماس عند الحديث عن المحبوب!

قال بحرارة:

لعلك لاحظت كيف يتغير حالي عند الحديث عن الأحوال هناك، ولعلك لاحظت كذلك النشاط الذي انتابني، أنا أجزم لك أني كنت أفعل هذا وأنا نائم بدون أي مجهود، فما بالك عندما أكون في حالة تحفز واستعداد لعملية قنص أو تفجير.

وضعت القلم والمدونة على المكتب، ونهضت من مكاني واتجهت إلى النافذة، ثم قلت وأنا أقف إلى النافذة وظهري تجاهه:

إذن فأنت تشعر بحنين جارف إلى أيام الجهاد وقتل وصفع الأمريكيين، ولكن تغير الأوضاع يمنعك، وبالتأكيد لن تستطيع أن تخدع زوجك وأهلك مرة أخرى.

قال بمرارة:

نعم أتصور، لقد أصبحت أشعر كأني شيخ في السبعين من عمره، تضاعف عمري مرتين، على الرغم من أني كلي ثقة، لو قدر الله لي العودة وضرب الأمريكيين على أقفيتهم فسأرتد إلى السابعة عشر من عمري.

قلت: إذا فأنت تعاني من أزمة "هدف" جادة حادة؟!

قال بهدوء:

ليست هدف فقط، ولكن هدف وإثارة ومتعة، صدقني أنا أخشى على المحيطين بي مني.

التفت إليه وأنا أقول بذعر:

هل وصلت بك نشوة القتل إلى هذه الدرجة؟!

تراجع مدهوشا وقال:

ليس إلى هذه الدرجة يا دكتور، نعم كان لقتل الأعداء الغزاة المحتلين نشوة عظيمة وسعادة قصوى، ولكن لن يصل الأمر إلى درجة القتل من أجل القتل.

قلت: وماذا تخشى إذن؟

قال بمرارة وقد عدل وضعه مجددا:

أخشى أن أتحول إلى قاض وجلاد، عندما كنت هناك، كنت أدافع عن الحق وأقتل أعداء الحق الصراح، أما الآن فلا شيء من ذلك ويكفيك أن تعمل بنظام ونزاهة لتصير بطلا، فأخشى أن أتحول في يوم من الأيام إلى "زورو".

قلت مبتسما:

البطل الخفي.

أجاب وهو يهز رأسه:

نعم.

قلت وقد عدت إلى مكاني قبالة النافذة:

إذا فأنت تحاول أن تنسى، أو أن تعطي الحياة إثارة تقارب بأي حال من الأحوال حياتك السابقة؟

قال بصوت مهزوز:

أنا لا أحاول أن أنسى ولن أحاول أن أنسى، فهذا فخر لي سأحكيه لأولادي وأحفادي، بداهة بدون تفاصيل، ولكن أنا أحاول أن أجد إثارة في هذه الحياة أو أن أجد لها معنى.

استدرت إليه مرة أخرى، وقلت:

إذن فأنت تريدني أن أقنعك بالحياة، وأن أجعل الحياة في عينيك في جمال الموت؟

قال بكل هدوء:

نعم، أريدك أن تريني أن الحياة تقترب من جمال تناثر الرصاص ودوي القنابل، ومتعة الانتقام، وركز كثيرا على متعة الانتقام، فعلى الرغم من أني نشأت في أسرة غنية إلا أن جل زملائي كانوا من الفقراء، وكنت أقضي معظم أوقاتي معهم وأشعر بمعاناتهم والظلم الذي يقع عليهم.

تصور وأنت تذبح ذلك العلج الأمريكي أنك تذبح الطغيان، تذبح الاستبداد، تذبح الفساد، تذبح الانفراد، تقتل أشياءً كثيرة تجثم على صدرك، صدقني عندما كنت أقتل الأمريكيين كنت أشعر بشعور رائع، شعور السجين الذي تبادل الأدوار مع جلاده فأمسك هو بالسوط، باختصار أريدك أن تريني الحرية والنشوة في الحياة اليومية.

قلت بصوت خافت:

أوافقك أن الحياة بها كثير من التقييدات، ولكن ...

قاطعني بضيق وقد انطلقت الكلمات من شفتيه بسرعة كطلقات الرصاص:

كلها تعقيدات والتزامات ألزمنا وقيدنا أنفسنا بها بلا داعي.

لاحظت أنه بدأ في الارتجاف، حاولت أن أقاطعه، ولكنه واصل الحديث بنفس الصوت والدرجة:

الحياة كلها قيود من أجل مجموعة من الكسالى الحمق يخادعون أنفسهم، لا همّ لهم سوى أين نسهر الليلة، ماذا نأكل ظهرا، ما رأيك في هذا الثوب، ما المدرسة التي سيذهب إليها ابني، ليقضي بضع ساعات ويعود إلي وهو أكثر حمقا وغباوة وبلادة.

قاطعته بصوت عال حازم:

ولكن هذه أساسيات وضروريات الحياة ولا بد ...

قاطعني هو بصوت أكثر حزم وقال مستنكرا، بعد أن قفز من على الأريكة وأخذ يتجول في الغرفة ذهابا وإيابا:

هراء. حاجيات، أساسيات ... يكفي ... يكفي أن تذهب إلى حيث كنت لتعلم ما تعنيه الأساسيات وما هي الرفاهيات، لا، لا، لا تذهب إلى العراق حيث القتلة والسفاحون أمثالي ورقيقو المشاعر من الأمريكيين، إذهب إلى إفريقيا وانظر ماذا تعني الرفاهيات وما هي ضروريات الحياة، لا، لا تذهب إلى إفريقيا، إذهب إلى الريف المصري وإلى الصعيد المصري، لترى كيف يعمل الناس، وكيف يرتبون أولوياتهم، ما هي ضرورياتهم!

سيدي، إننا أمة صاحبة رسالة وذات إمكانيات وعلى الرغم من ذلك نتقاتل على أشياء تافهة نقيد بها أنفسنا، تصور نتقاتل على أوزار نحملها فوق ظهورنا ...

قلت له بحزم:

إهدأ قليلا يا هادي!

قال باستنكار:

ماذا أهدأ .. لماذا أهدأ؟

ثم إقترب مني حتى التصق بي، ونظر مباشرة في عيني وقال بصوت عال ولكن لا أثر للعصبية فيه:

سيدي هل يمكن أن تصدقني، إذا قلت لك إنني هادئ جدًا؟

قلت وأنا متسمر في مكاني:

في الواقع، لا.

ابتعد عني واتجه إلى النافذة ووقف يتأمل في النجوم التي كانت قد بدأت في الظهور وقال، وهو يعطيني ظهره بمنتهى الهدوء، بصوت خافت:

بالعكس أنا هادئ جدًا يا سيدي، بل أنا هادئ أكثر من اللازم. وبسبب هدوئي هذا استطعت أن أميز ما يحدث حولي وأرى الظلم الواقع، لست ممن يعيشون في قصور من الوهم، أنا واقعي أكثر من اللازم أعرف أن وجه العالم هذا ما هو إلا وجه عجوز شمطاء يسعى الناس لتزينه بما يمتلكون من وسائل، ولكن لا فائدة من فعلهم، فهي

شمطاء، أما نحن، أنا وأمثالي، فنسعى إلى إنشاء وجه جديد، لابد من تغيير هذا الوجه وإلا فلن نصحو في يوم نجد هذه الشمطاء قد قتلت نفسها.

قلت: الكل يدعي الإصلاح وقليل من يُصلح ويصلُح، ألا ترى ذلك؟

قال باستنكار بعد أن استدار:

أي إصلاح سيدي العزيز، كل يسعى وراء ليلاه، فمن ساع وراء المال وهم كثر، ومن ساع وراء أوهام جالت في خاطره ويحسبها هداية البشرية ويدعوا الناس إليها، فلا تجلب لهم إلا القتل والجوع والتشرد، صراخ وبكاء وعويل في كل مكان وزمان، و ..

قطع كلامه فجأة وعاد فجلس في مكانه على الأريكة، وقال وهو ينظر إلى أرضية الغرفة:

ألا يرى الناس ما يحدث حولهم، ألا يرون الظلم الواقع والاستبداد الطاغي؟

هم صامتون وبمعنى أدق هم مخدوعون ومجرورون إلى هاوية لا يعلمونها وهم يسيرون بكل سرور إلى هاويتهم، وما من مجيب إلى داعي الهدى والرشاد، فلقد تعددت الرعاة، وكلٌ يدعي أن عنده فقط الكلأ والمرعى وسعادة القطيع البشري. وعلى الرغم من أن القطيع البشري لا يذوق إلا شوكا ولا يشرب إلا مُرا فهو يجري وراء دعاة الدمار، ويطلب إليه بل يتوسل إليه أن يضع الطوق في عنقه ليقوده حيث شاء، المهم أن يضع له السكر تحت لسانه ويمسح على رأسه قبل أن يذبحه .

فوجئت به يتوقف عن الكلام وينخرط في بكاء عنيف.

أشفقت عليه ولم أود أن أقاطعه، أخذت أتأمل هذا الإنسان الكائن أمامي، إنسان يحمل قلبا مرهفا، إنسان حساس يحزن للآخرين، وينشغل بأمورهم، إنسان ضمر عنده «الأنا» وتضخم عنده *الهو* والإحساس بالآخرين، ولكنه على الرغم من ذلك يجد متعة في القتل!

ولكن ليس أي قتل إنه يجد متعة في قتل الرموز، ذبح الطغيان، محق الاستبداد، هذا إنسان زهد في دنياه ووجد أن سعادته في تقليل الظلم الواقع على الآخرين، رجل ذاق

معنى الحرية في بلد محتل مستعبد، رجل وجد معنى الحياة وعز عليه أن يفارقها، وهو الآن يأتيني ويطلب العلاج، فمن يا ترى يحتاج العلاج، هل نحن المحتاجون أم هو؟!

لاحظت أنه توقف عن البكاء واستلقى على الأريكة، فقطعت حبل أفكاري وقبل أن أسأله فوجئت به يواصل حديثه. وجدت أنه من الأفضل أن يفرغ ما بداخله، هذا سيريحه على الأقل، فمن الجيد أن تجد من يسمعك.

قال وهو ينظر إلى السقف:

والمشكلة أن من يحاول أن يخرج الناس وينبههم ويخرج عن طريقهم ويخطو الخطى الفعلية في هذا الطريق، تهاجمه أبواق الرعاة فيقولون عنه ما لا يقال:

دعكم من الأفاكين، الإرهابيين. وقل ما يحلو لك، هؤلاء متخلفون، هؤلاء شواذ، نعم نحن شواذ، ولولا وجود شواذ في المجتمع البشري، اتُهموا بأنهم مختلّون وأفّاكون لظلت البشرية ترعى في كهوف الجهل، ترعى الظلم وتشرب التخلف وتنسج البؤس، متى يفهم الناس أننا ...

قاطعته بصوت مهدأ قائلا:

لقد وصلت فكرتك يا هادي، وصلت بحذافيرها، وصدقني لقد أثّرت في كثيرا، وأرى أن معك الصواب في كثير مما تقول، أنت وأمثالك من «الشواذ» لهم على البشرية الفضل الكبير، وأنت قمت بخطى محمودة، وهناك غيرك يكمل على الطريق، ولكن لا ترى أنها نظرة متشائمة كثيرا، أن تظن أن الإصلاح فقط أو رفع الظلم يكون في القتل، هناك الكثير من طرق الإصلاح؟!

قال بانفعال:

الوسائل الدبلوماسية لا تجدي، الغرب يسعى للسيطرة علينا ونحن نخدع أنفسنا، عندما نتصور أنهم يتحركون من أجلنا.

قلت وأنا أكتم انفعالاتي:

يا أخي، لا تكلف نفسك ما لا تطيق، من أنت؟ هل تعتقد أنك حاكم هذه البلاد؟

أنت إنسان تحمل وزر نفسك ومن تعول فقط، إهتم بهؤلاء وستحاسب على ذلك ويكفيك أن تكون تاجرا أمينا، زوجا طيبا وأبا صالحا، لو فعل الناس هذا لتغير وضعنا كثيرا.

قال بهدوء يحمل نبرة حزن:

المشكلة مشكلة همة، أستاذي.

قلت بهدوء:

إذن فأنت تعاني من علو الهمة؟

قال وقد تحول حزنه إلى غضب:

نعم، للأسف لا أجد حولي إلا محبّطين، داعين إلى الكسل إلى حياة الدعة، وأنا لم أُخلق لهذا، أنا أشعر أن لي رسالة لابد أن أؤديها في هذه الحياة، وإذا لم أفعلها فسأموت، قد أموت وأنا أنفذها وأقوم بها، ولكن سأشعر وقتها أن لي قيمة، نعم سيحزن أهلي وأصدقائي، ولكن طال الزمان أو قصر فسيحزنون فأنا حتما مفارقهم.

توقف عن الكلام ونظر إلي نظرة طويلة ثم اتجه إلى النافذة مرة أخرى، وارتكن عليها وأخذ في النظر إلى الطريق ثم قال:

بشأن ما قلته بأن طرق الإصلاح كثيرة ولا يشترط فيها القتل ورفع الظلم بهذه الطريقة فأنا أتفق معك تمام الاتفاق، كلٌ له ميوله واهتماماته، كلٌ يجد نفسه في طريق، نعم نحن نكمل بعضنا ولكن لزاما أن لا يُترك هذا الطريق، لابد من طرقه، وأنا عزمت أن أطرقه، أهلي سأترك لهم من الدنيا ما يكفيهم.

أما أنا فلا استطيع أن أسمع صرخة ظلم واستغاثة وأقف متفرجا ابتسم في بلاهة، أو أتحسر وأمص شفتاي مثل العجائز، إخواننا في كل مكان يحتاجوننا ولا بد أن يلبي بعضنا النداء في أي مكان في العالم، وأنا قررت أن ألبي النداء، لابد من رفع الظلم بكل طريقة نحن لا نخدع إلا أنفسنا.

ثم إنصرف وتركني أقف مدهوشا.

****

قلت وأنا أمسح زجاج النظارة:

وجهة نظر متطرفة تمام التطرف، ولكنها تحمل كثيرا من الصواب، هل تعلم يا عامر أن هذا الرجل يصلح أن يكون سياسيا عظيما وخطيبا بارعا؟

أجاب وهو يشبك أصابعه:

نعم، ولكنه ترك طرق الخداع ومشى وراء الصوت الذي ناداه، حيث يجد حياته ويجد هدفه، والمشكلة أنه لم يعطني الفرصة لأتحاور معه بل أتى وانصرف بكل سرعة.

سألته: ولم إندهشت عندما تركك؟

قال بغموض:

سأخبرك فيما بعد لم اندهشت بهذا الإنصراف.

قلت وأنا أنفث في النظارة:

هل تعلم بمن يذكرني هذا الفتى؟

قال بكل ثقة:

جيفارا بالتأكيد.

قلت وأنا أرتدي النظارة مجددا:

نعم، هذا الفتى يتحرك على خطاه تماما.

قال موافقا:

بالفعل يا سيدي الفاضل، فلقد أرسل إلي لاحقا خطابا من روسيا وبداخل الخطاب صورة للشيشان، ويبدو أنه قرر الانضمام إلى الأخوة في الشيشان، أعانه الله كان شعلة نشاط وهمة.

**قلت وأنا أتثاءب:**

**شخصية غريبة عجيبة، ولكن هكذا دوما يفاجئنا الواقع بما لا نتوقعه، ولكنها المبادئ القادرة على تحريك الجبال.**

**لقد آمن هذا الرجل بمبادئه فقادته إلى الشيشان! أما أصاحبنا فاقدو المبادئ فلا يزالون ثابتين بدون أي حركة في الميدان! وما أكثر المتكلمين ولكن من يفعل؟! هيا إبدأ قص حكاية الرابع.**

**قال بعد أن شرد لحظة:**

**كان سبحان الله على العكس منه تماما، كان أعرجا!**

**وعلى الرغم من ذلك فلقد كان ..**

# أنا والأعرج

**بعد أن التقيت الحالات الثلاث السابقة أصبحت أحذر كثيرا من الزبون الأخير وأتوجس منه شرا، وأتمنى دوما أن أصرف الزبون الأخير، ولكني كنت أعلم أن هذا سلوك غير قويم، لا يصح أن ينحدر إليه طبيب نفسي مثلي، ناهيك عن كوني مثقفا!**

**ثم ما أدراك أنه بعد أن تصرف الزبون الأخير لن يكون قبل الأخير مثل سابقيه وبذلك تجعله أنت بنفسك الزبون الأخير؟!**

**لذلك صرفت عن نفسي هذه الخواطر وإن كان هناك التوجس الحذر، ولم أصل إلى حالة تستدعي الذهاب إلى طبيب نفسي!**

**هززت رأسي لأنفض هذه الهواجس من رأسي وطلبت إلى الممرض أن يدخل الزبون الأخير، وما أن سمعت طرق الباب حتى أذنت للطارق بالدخول.**

**أخذت أتأمل ملامحه بعد أن رددت تحيته وطلبت إليه الجلوس، كانت ملابسه عادية جدا، تنم أنه من طبقات الشعب العامة وفي الغالب هو موظف حكومي عادي، كان الصلع قد بدأ يزحف إلى مقدمة رأسه، وكانت لحيته نامية إلى حد ما، وكانت ملامح وجهه تحمل حزنا عميقا ترك أثاره في شقوق وجهه.**

**وكان وجهه نفسه يثير شفقة الناظر إليه، وبالإضافة إلى ذلك كان يعرج عرجا خفيفا.**

**نظرت إليه نظرة إشفاق سرعان ما واريته وراء النظرة الهادئة الواثقة، وأقنعت نفسي أن هذا الرجل مأمون الجانب، وفي الغالب هو من المواطنين المطحونين الذين أكل الدهر عليهم وشرب، وذاقوا في الحياة كثيرا من البؤس والهوان وتعاملوا معه على أنه واقعهم وقدرهم فسكنوا له واستكانوا تحته، المهم عندهم هو لقمة عيشهم وسقف يظلهم.**

**نقضت هذه الأفكار وأخذت بياناته: اسمه معوض، اسم ينبأ بالبيئة الريفية التي أتى منها، والمفاجأة أنه كان في الثانية والثلاثين من عمره مع أني توقعت من مظهره العام**

أنه في الأربعينات، لم أعلق على عمره، فملامح الحزن التي تبدو في قسمات وجهه وفي الإنثناءة البسيطة في ظهره وفي البطن الصغير المتدلية عجزا من صاحبها لا لكبرها، أكبر من شاهد على حزن قسم ظهر صاحبه.

وللمفاجأة كان ينحدر من أسرة كبيرة عريقة ضاربة بأصولها في التاريخ ولن أذكر اسمها فهي جد معروفة، وكان هو يدير شئون وأعمال وإيرادات أسرته. على الرغم من ذلك كانت علامات الفقر والبؤس تشع منه.

فوجئت به يقوم ويمشي بخطى متثاقلة ويتجه إلى الأريكة ويستلقي عليها ويقول بصوت آلي:

أليس من المفترض أن أفعل هكذا؟

قلت بابتسامة مشفقة:

ليس ضروريا ولكن بما أنك فعلت فلا بأس.

همهم بكلام لم أفهمه ثم صمت لفترة، فسألته:

هل أنت مستيقظ؟

قال بعد فترة صمت بصوت خفيض:

لا أدري هل أنا مستيقظ أم حالم.

شعرت أن الرجل يحمل حزنا عميقا فقلت له بصوت لم أستطع أن أخفي نبرة تعاطفي معه:

ما مشكلتك يا سيدي؟

قال بصوت يقطر حزنا:

مشكلتي؟ أنا كلي مشاكل، أنا والحمد لله النموذج والمادة الخام لمن يجلب المشاكل على نفسه بيده، أنا ...

قاطعته بهدوء:

ولكن حتما ولزاما هناك ما يؤرقك ويحني ظهرك أكثر من غيرها، نفِّس عن نفسك وعن كربك يا أخي.

فوجئت به يعطيني ظهره نائما على جنبه ووجه متجها إلى الحائط ثم قال شيئا لم أستطع تمييزه، فطلبت إليه أن يرفع صوته، فقال بصوت مكتوم تخنقه العبرات: لقد قتلت .. قتلت .. قتلت أبي.

ثم انخرط في بكاء حاد.

نظرت إليه مدهوشا فاغرا فاهي ولم أستطع أن أتفوه بكلمة، هذا الكائن المثير للشفقة المتكاهل قتل أباه!

ثم تنبهت، ما المانع أن يكون هذا المظهر ناتجا أساسا عن قتله لأبيه وأنه لم يكن سابقا بهذه الحالة وبهذا الشكل المزري، وخاصة أنه ينتمي إلى عائلة كبيرة ثرية؟

انتظرت حتى أنهى بكاءه، واعتدل مستلقيا على ظهره ناظرا إلى سقف الغرفة، وشعرت أنه ينتظرني وينتظر سؤالي، فسألته:

أنا لا يمكن أن أواسيك في هذا الجرم أو أبرره لك بأي شكل من الأشكال، ولكن كل ما سأطلبه هو أن تحكي لي أسباب هذا الجرم، ما الذي دفعك إلى هذا العمل وهل كان خطأ أم على سبيل التعمد؟

تنهد وهو ينظر إلى السقف وقال:

بل كان على سبيل التعمد ومع سبق الإصرار والترصد والتخطيط والكمون.

صمت فترة ثم قال بصوت متهدج:

سأحكي لك حكايتي مع أبي ولم أدى بي في نهاية المطاف إلى هذا الفعل، وما أبرئ نفسي من هذا الفعل، فلقد شاركت أيضا بتصرفاتي في الوصول إلى هذا المطاف ولكن ما كان أمامي من طريق آخر، كان لابد أن أقتل أبي لأعيش وينصلح حالي وحال إخوتي.

أمسكت المدونة والقلم في يدي وأشرت إليه أن ابدأ الحكاية، فتنهد وشعرت أن الحيرة تعلو ملامحه ثم بدأ بالكلام:

لست أدري من أين أبدأ الحكاية ولكن يبدوا أنه من الأهمية بمكان أن نعود بالقصة إلى البداية، منذ بدء أول أحداثها.

في البدء تزوج أبي، وعلى الرغم أنه كان من عائلة ثرية إلا أنه كان فقيرا! وبعد تسعة أشهر بالضبط من الزواج أتيت أنا إلى الحياة، لم يكن أبي أبدا شخصا منظما أو صاحب خطة أو نظرة في الحياة بل كانت حياته اعتباطية، بعدي مباشرة توالى إنجاب الأولاد فأنجب بعدي ستة أولاد، كل منهم يكبر الآخر بسنة أو ما يقرب من ذلك.

منذ صغري لم أشعر أن أبي يحبني، ولا أدري لم، لم يكن يظهر كثيرا من مشاعر الود لإخوتي ولكنه كان يعاملهم معاملة حسنة، كلهم إلا أنا ولست أدري لم؟

تنحنحت وقلت له:

معذرة من المحتمل لأنك، لأنك ...

قال بمرارة وهو ينظر إلي:

لأني أعرج، أليس كذلك ؟!

قلت وأنا أتحاشى النظر إليه:

نعم، هذا ما كنت أقصده.

قال بذات المرارة:

أنا لست أعرجا.

قلت مصححا مستفسرا:

تقصد أنك لم تكن أعرجا، وأنك أصبت لاحقا؟

هز رأسه نفيا قائلا:

أنا لست أعرجا.

ثم نزل من على الأريكة واستند عليها، وعدل وضع ساقيه ثم مشى بطريقة عادية ولكن بخطوات بطيئة بعض الشيء، وقفز، وعاد بشكل عادي إلى الأريكة واستلقى عليها مرة أخرى.

تعجبت كثيرا من فعله وقلت له:

عندما قلت لي أنك لست أعرجا ظننت أنك مصاب بحادث قريب وأن هذا العرج طارئ وسيزول بعد أيام مثلا، ولكن ها أنت ذا تمشي أمامي بطريقة طبيعية، فما المشكلة إذا؟!

قال بألم وهو يعض على شفتيه والدمع يترقرق في عينيه:

اسمع القصة للنهاية وستعرف!

قلت له:

معذرة، سأحاول أن لا أقاطعك.

شبك يديه على صدره وأغمض عينيه وواصل الحكي:

لم أشعر يوما أنه يحبني ولم أفهم السبب، على الرغم من أنه يفترض به أن يحبني أكثر من إخواتي كلهم.

قلت: لأنك أنت الكبير طبعا، فأنت ابنه البكر.

قال: بخلاف ذلك، فأنا ساعدته في عمله من المرحلة الإبتدائية، كنت أنا الوحيد الذي يساعده وباقي إخوتي يلعبون ويمرحون، على الرغم من أن الفارق العمري بيننا لم يكن كبيرا، إلا أني الوحيد الذي كنت أساعده في العمل، وعلى الرغم من كوني أعمل إلا أن هذا لم يؤثر على دراستي وتفوقت في الدراسة، وعلى الرغم من ذلك آثرت الالتحاق بالثانوية التجارية وتفوقت فيها كذلك.

وعلى الرغم من ذلك لم أرد الإلتحاق بالدراسة الجامعية أو أي معهد بعد الثانوية بل إنضممت إلى أبي في تجارته، وكان إخوتي لا يزالون يتعثرون في دراستهم، وعلى الرغم

من ذلك كنت أشعر أنه يكرهني ويبغضني بدون سبب، على الرغم من أن نجاحه هذا بعد فضل الله ونعمه يعود إلي.

قلت وأنا أحك ذقني:

كيف؟ في هذه المرحلة العمرية الصغيرة؟

قال: على الرغم من عمري الصغير إلا أني كنت أتمتع بفضل الله بعقل جبار ومن الممكن أن تقول خبيث نوعا ما، فساعدت أبي على تنمية تجارته بشكل كبير وأصبح من أصحاب التجارة الكبيرة، وأكمل إخوتي الذين يصغروني بعام أو عامين أو أكثر تعليمهم فحصلوا على تعليم جامعي أو حتى فوق الجامعي، على الرغم من أنني أجزم وأقسم لك أنهم لا يقاربونني بأي حال من الأحوال في المعرفة أو الثقافة العامة، ناهيك عن الخبرة الحياتية التي لا حظّ لهم فيها بتاتا. وبعد ذلك قام أبي بإعطائهم كل ما يحتاجون ليبدأوا حياتهم من بيوت وعربات وأموال إلا أنا، ولست أدري لم؟!

تعجبت كثيرا من تصرف هذا الأب؟ لم يفعل معه هذا؟ أخذت أقلب الاحتمالات في رأسي، إلى أن جال في خاطري احتمال معقول وهو أنه يشك في نسبه، ورأيته إحتمالا معقولا، ورأيت أن أسأله عن ذلك بطريقة غير مباشرة، فقلت له:

لعلك لا تشبهه أو أن ملامحك لا تعجبه، هذا مبرر غير كاف طبعا ولكن...

هز رأسه نافيا: بالعكس، فأن أشبهه تماما، صورة طبق الأصل.

سألته وقد تأكدت من خطأي وعادت إلي حيرتي:

هل انتهت القصة؟

قال بمرارة:

ليس بعد، استمر أبي يعاملني كأني موظف عنده، يعطيني على قدر ما أحتاج، نعم أكبر من أي موظف، ولكن أقل من أقل أخ من إخوتي، وبعد فترة ماتت أمي، شعرت أنه لم يحزن عليها، ولكنه عمل الإجراءات اللازمة من حداد، وتشغيل إذاعة القرآن وما شابه من مظاهر الحزن التقليدية.

بعد ذلك بفترة اتجه أبي إلى طريق الانحراف على كبر من العمر، وبعد مرحلة وفترة من انحرافه، شعرت أنه قد حان الوقت لأتخلص منه جزاءً على ما فعله بي وبإخوتي.

قلت بصوت قاسٍ وأنا أدون بعض الملاحظات:

حتى الآن لا أرى مبررا للقتل، نعم أبوك قاس أكثر من اللازم، ولكن لا يصل الأمر إلى درجة القتل، لذا فأنا أنتظر منك تفاصيل مباشرة ذات علاقة منطقية بجرم فظيع مثل هذا، لا تحاول أن تخفي شيئا ولا تخجل، وإلا سيصير الموضوع مسخا لا فائدة ولا معنى فيه!

تردد بعض الشيء، ثم قال في نهاية المطاف:

لا أرى أن الأمر كان يستدعى كل هذا البغض أو الكراهية، لقد كنت طفلا صغيرا على أي حال.

قلت بصوت يحمل نبرة ظفر:

جميل، احك لي كل التفاصيل.

أتاني صوته بعد لحظات قائلا:

منذ صغري وأنا لا أعرف الكذب، أقول الحقيقة في وجه من يسألنيها.

سكت قليلا ثم قال بصوت خافت حزين:

إن استطعت أن أقولها.

سألته: هل كنت شديد الخجل؟

قال بعد أن استدار على جنبه:

نعم، كنت خجولا إلى درجة كبيرة جدا جدا ولا يمنع ذلك أني كنت ذكيا جدا، وكان أبي يقول إن الرجل لا يصح بأي حال أن يكون خجولا، ولكن لم استطع أن أتغلب على خجلي، كان يضغط علي لأتغلب على خجلي ولكن لم استطع أن أفعل، قسا علي كثيرا، ضربني كثيرا.

وفي يوم، بينما نحن في جلسة ودية، سألني عما إذا كنت أحبه، فنظرت في الأرض وقلت بسرعة: لا، أنا أكرهك.

طبعا بالنسبة لطفل لم يكن يفهم ماذا يعنيه «الأب» وما هي مسؤلياته تجاه أبنائه وماذا تعني «التربية»، ثم فررت سريعا خشية أن يضربني، وتكرر منه السؤال في جلسة أخرى ورددت ببراءة الأطفال نفس الرد. ولا أستطيع أن أقول لك أن المعاملة تغيرت بعد هذين الموقفين تغيرًا كبيرًا، فهي لم تكن أصلا حسنة لأقول أنها صارت سيئة، أو ابتدأ أبي يضربني، ولكن منذ هذه الفترة وأنا أشعر أنه يكرهني كرها شديدًا.

سألته: معذرة، ولكن متى كانت هذه الفترة تحديدًا؟

شعرت أنه يعتصر ذهنه، ثم قال:

لا أتذكر تحديدًا، ربما في الصف الأول أو الثاني الإبتدائي، ولكن لا أعتقد بعد ذلك.

هززت رأسي وأشرت إليه أن يكمل السرد، فواصل قائلا:

لم تتغير المعاملة القاسية التي كان يعاملني بها أبي، ولكن ازدادت سوءًا بدرجة بسيطة، وزاد على ذلك أنه بدأ يعايرني.

سألته: بماذا؟

قال بصوت خافت:

كان يقول لي دوما أنني امرأة ويسبني سبابا على نعومتي. صدقني أنا لم أكذبك حين قلت لك أنني سبب نجاح أبي، فعلى الرغم من خجلي وإهانتي منه إلا إني كنت أجد متعة في نجاح أبي، الذي هو في الأساس نجاحي، ولكنه كان يعايرني دومًا بأني لا أستطيع أن أواجه الناس وأني أحتاج إلى من يقودني ويوجهني، وكان من الممكن أن أبتلع هذه الإهانات، فهي في الواقع واقع، إلى أن ابتدأ السباب الجديد.

قلت: وما هو السباب الجديد؟

قال بصوت يحمل ألم الدنيا وقد بدأت الدموع تسيل من عينيه:

بدأ يناديني بالأعرج.

تعجبت وقلت مندهشا:

لم بدأ يناديك بهذا؟

قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

كانت لي مشية غريبة ولكنها في نهاية المطاف مشية طبيعية، لكلٍ منا مشية مميزة له، ولو لاحظنا طريقة مشي الناس لوجدنا كثيرًا منها مضحكا.

هززت رأسي موافقا، وقلت:

معك حق، قل لي لماذا بدأ يدعوك بالأعرج.

قال وقد بدأ صوته يختنق ويتقطع، مما يوحي بالمعاناة الشديدة التي يسببها له استحضار هذه الذكريات:

بدأ يناديني بالأعرج في الروحة والجيئة وأنا أضع وجهي في الأرض ولا أستطيع أن أرد عليه، ثم يتبع نداءه بضحكة سخرية كبيرة، أبي كان يتعمد إهانتي لأني كنت أواجهه بالحقيقة، إخوتي كانوا يعرفون كيف يأخذون حقوقهم من أبي وكيف يصلون إلى مبتغاهم منه، أما أنا فلم أكن مثلهم.

قلت: نعم، كلمة الحق صعبة، وللأسف لستَ ممن يتحملون نتائجها.

قال بحزن بعد أن جلس ووضع رأسه بين كفيه:

نعم للأسف، المهم أن أبي استمر يعايرني بعدم قدرتي على مواجهة الأمور، وأنني أتخذ دوما موقفا جانبيا من الأمور ولا أستطيع أن أواجه أي أمر مواجهةً مباشرة، هذا بخلاف ندائي بالأعرج، إلى أن حدثت الكارثة.

قلت: أي كارثة؟

شعرت أن الدمع جف في عينه وأن الكلام بدأ يتحشرج في حلقه، وأنه يجاهد من أجل أن يتكلم، إلى أن خرج الكلام من مندفعا من فيه:

لقد تحقق الكلام في.

قلت بحيرة:

ماذا تقصد؟

قال بصوت متقطع بعد أن بدأ بالبكاء مرة أخرى:

كنت ذات مرة أعد كوب شاي، ولاحظت وأنا أقف أمام الموقد أني أقف وقفة مائلة، وقفة جانبية.

قلت بحيرة أكبر:

وماذا في هذا ؟

قال وهو لايزال يبكي:

أنا متأكد أني لم أكن في صغري هكذا، كنت أقف وقفة مباشرة أمام الأشياء، ولكن بعد أن بدأت المعايرة لاحظت أن وقفتي تغيرت، والحق يقال أني لم ألق للأمر بالاً عندما لاحظته أول مرة، ولكني أدركت بعد ذلك أن هذا أصبح موقفي من كل الأشياء واقعيا.

حاولت أن أخرج هذه الخاطرة من فكره، فقلت له:

ألم تتعرض لأي حادث من الممكن أن يؤدي إلى ....؟

قاطعني بعد أن توقف عن البكاء:

بتاتا، لقد حدث لي هذا التحول بعد المعايرة المستمرة من أبي وأصبحت في الواقع أقف موقفا جانبيا من الأشياء، لقد تغيرت تغيرا فسيولوجيا سيدي، بسبب كلام أبي، ومنذ أن سيطرت على ذهني هذه الفكرة حتى أصبحت أنتظر الكارثة الأخرى.

قلت وقد بدأت الأمور تتجلى لي:

أصبحت تنتظر أو تخشى أن تصير أعرجا؟

قال وهو يجفف دموعه:

نعم، تصور الجحيم الذي عشت فيه، والقلق والبؤس الذي أصبحت فيه، أصبحت وأنا أمشي أكاد أن أنظر إلى ساقي وتصور الرعب الذي كان يحيق بي عندما تصطدم ساقي بشيء، وأقضي الليالي وأنا أتصور أني سأعرج.

قلت وأنا أتفحص جسده:

لَمَ لمْ تحاول أن تقنع نفسك أن وضعك هذا ناتج مثلا عن ممارسة خاطئة للرياضة أو لأي شيء، لم تركت هذه الفكرة تسيطر عليك؟

قال وهو يتنهد:

لأن هذا هو الواقع، أنا لم أتعرض لأي شيء، والحق يقال أني لم أظل بنفس السلبية، بل حاولت أن أغير نفسي، فلم أعد أقف موقفا جانبيا من الأشياء بل أخذت أمرن نفسي على أن أقف منها موقفًا مباشرًا سواء حقيقة أو مجازا، فأعدل وضع ظهري وصدري، واتخذ القرارات الحاسمة القاطعة قدر استطاعتي.

قلت مشجعا:

هذا جيد جدا، هذه خطوة للأمام.

إنفجر فجأة في البكاء وقال:

وهنا وقعت الطامة الثانية لقد بدأت أعرج، تصور إنسان سليم معافى يعرج، لا لشيء، نعم هو عرج خفيف، ولكني أصبحت أعرج، وأتحجج لمن يسألني أني إصطدمت بهذا أو ذاك من الأثاث، تصور الجحيم الذي أصبحت فيه، اعوج ظهري وعرجت رجلي.

سألته بحذر:

وهنا قررت أن تقتل أباك؟

قال وهو يمسح أنفه بمنديل بعد أن هدأت موجة البكاء:

لا، لم أكن لأفعل، فأنا لست عاقا لوالدي إلى هذه الدرجة، فعلى الرغم مما فعله بي

إلا أني أدركت –لما كبرت– أنه كان يفعل ذلك من أجل أن أصير رجلا يُعتمد عليه، رجلا خشنا يستطيع أن يواجه الحياة بصعابها، يستطيع أن يقود سفينة العائلة بعد وفاته، نعم لقد أخطأ الطريق تماما ولكنه كان يحاول أن يفعل ما ينبغي له أن يفعله بقدر ما هيأ له عقله.

أما مسألة الحب والكره هذه فلن أستطيع أن أفعل تجاهها شيئا، وعلى الرغم مما حاق بي لم أرد أن أضخم الأمور وقررت أن أُحسّن نفسي قدر الإمكان ..

قاطعته قائلا:

لمَ لمْ تحاول أن تلجأ إلى طبيب نفسي في هذه الفترة ؟

نظر إلي ببلاهة فلقد كان السؤال مفاجئا له تماما، فحك رأسه ثم قال:

ينبغي أن تُقدر وضعي، كيف لي أن أذهب إلى طبيب نفسي وأنا في هذه الحالة؟ ربما عرف أبي، وساعتها كانت ستحل كارثة، وأنت تعرف كيف ينظر الناس إلى من يذهب إلى طبيب نفسي.

قلت بإمتعاض وأنا أمط شفتي:

للأسف الشديد، لا يزال هذه الفكر المتخلف سائدا.

ثم سألته:

ومتى قررت إذن أن تقتله، أعندما انحرف بعد موت والدتك؟

هز رأسه بمعنى الإيجاب وقال:

إسمع لتعرف.

وبدون أن ينتظر إجابتي واصل الحكي:

مرت شهور قلائل بعد موت والدتي ثم بدأنا نلاحظ كلنا أن والدنا بدأ يتصابى، يرتدي ملابس لا تتناسب مع عمره، يتأخر خارج المنزل، ثم علمنا أنه يتردد على بعض الملاهي الليلية، يصاحب بعض الراقصات العاهرات وينفق الأموال ببذخ. حاولنا أن

نكلمه في هذا الأمر، فهاج وماج وسبنا ونهرنا وذكّرنا أن المال ماله وأننا لن نرثه وهو حي، وأنه حر يفعل ما يشاء.

ثم إزداد الوضع سوءًا فأصبح يصحب الراقصات إلى بيتنا، وعندما تصادف وجودي في المنزل ذات مرة ورأيته مع عاهرة طردتها ونهرته على فعله هذا، فسبني وأهانني واتهمني أني «شاذ» فكريا وجسديا، وقال أنه يعرف أن «عرجي» هذا ذا سبب معنوي وقال لي وهو يصرخ، أن «شاذا» مثلي لا يحق له أن يتدخل في حياته.

جمعت أخوتي ونبهتهم على خطورة الأمر، وأنه سيضيع الثروة وأنه لن يترك لنا شيئا بعد موته، فأبي ليس طاعنا في السن فهو من الجيل الذي تزوج في سن صغيرة، وأمامه من الزمن والصحة ما يعينه على تضييع المال، فاجتمعنا له مرة أخرى وحادثناه، فلما رأى كلمتنا كلمة واحدة، هاودنا هذه المرة ووعدنا أنه سيغير نفسه وأنه لن يظل على هذا الحال.

قلت: وبطبيعة الحال لم يوف بوعده؟

قال بعصبية:

لا لقد أوفى بوعده ولكن بشكل عجيب.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال بغيظ:

تصور كهل فوق الخمسين يتجه لممارسة رياضة رفع الأثقال لكي يصبح أكثر شبابا وقوة، ظانا أنه يستطيع أن يواجهنا بذلك، لعله كان يريد أن يضرب من يحادثه منا إذا تطاول عليه، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل اتجه إلى لعبة كمال الأجسام ليحصل على صدر جذاب كبير يوحي بالقوة ومظهرا عمريا أصغر -كما قال لي ذات مرة-، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل الأدهى أنه تجاوزه إلى المنشطات.

إبتسمت رغما عني وقلت:

شيخ فوق الخمسين يلعب رفع الأثقال وكمال الأجسام ويتناول المنشطات، هذا

عجيب، معذرة، ومضحك أيضا.

قال بمرارة:

شر البلية ما يضحك، والحق يقال أنه التزم لفترة جيدة فظننا أنه سيتغير ولكنه عاد مرة أخرى إلى غيه وضلاله مرة أخرى وأصبح يعاقر الخمور عياناً بياناً أمامنا، وعندما نصحته إتهمني «بالشذوذ» مرة أخرى وتركني.

قلت: وهنا قررت أن تقتله.

قال وقد بدأت شفتاه في الارتعاش:

تقريباً، بعد ما كلمه بعض إخوتي ضربهم، طبعاً كانوا يستطيعون أن يضربوه ولكنه مهما كان أبوهم، وتكرر هذا الموقف منه، أصبح يتطاول عليهم بيديه بعد أن غره وهم القوة، أما أنا فالحق يقال أنه لم يقترفها أبدا معي، ولكنه اكتفى باللقب الجديد «الشاذ»، كأنه كان يريد أن يبرأ نفسه من هذه التهمة، فأسقطها علي أنا.

ولكني وجدت في كلامه جزءا من الصواب، فأنا أحمل بعض الطباع الشاذة، تكويني العام جسدا ونفسا شاذ، المهم بعد أن خاطبت إخوتي في شأن رفع قضية حجر، لم يجرؤ أحد على رفع هذه القضية، لأنهم على الرغم من تبديد الثروة ينالهم حظ وافر في يومهم، ويقولون عندما يأتي الغد نفكر له.

وهذا من سوء التفكير، قصر التدبير، هم يرونها خسارة محتملة، أما يومهم فهانئ، فلم يفسدون العلاقة مع أبيهم المنحرف الفاسد الذي يعولهم، والذي أقنعهم أن المال ماله وهو يمن عليهم وأنهم عالة عليه.

ثم ارتفع صوته فجأة وتسارع قائلا:

في الواقع هم عالة علي أنا، أنا الشاذ، الأعرج الذكي، الخجول، المدبر، هؤلاء الأسوياء الأغنياء عالة علي أنا.

قلت له وأنا أناوله كوباً من الماء:

إهدأ قليلا.

شرب الماء بيد مرتعشة وتساقط كثير من القطرات على ثيابه وعلى الأريكة، وضعه جانبا ثم واصل:

في يوم آخر عاد بعاهرة فضربتها ضربا مبرحا وطردتها، ولأول مرة في حياته وحياتي سببت أبي وهددته أنه سيكون هناك عواقب وخيمة إذا تكرر فعله الشائن هذا. وهنا ثار وهاج وماج وأسمعني من السباب أقذعه وعايرني بما تتخيله وما لا تتخيله ثم ختم الحوار بصفعة قوية، ثم ركلني في ساقي العرجاء فسقطت على الأرض، فبصق فوقي وقال:

لو ارتفع صوتك مرة أخرى فسأطردك من المنزل وسأحرمك من الميراث، أيها الشاذ الأعرج.

لم يهمني كل ما قاله، بل بالكاد لم أسمع إلا هذه الكلمة، وهنا اتخذت القرار وقتلت أبي. وأنصحك لوجه الله سيدي الطبيب، احذر من المجانين أمثالي، فلقد قتلته بطريقة لا تخطر على بال أحد، فعلى الرغم من التوتر الشديد بينه وبين أفراد الأسرة كلها واحتمال الشبهة الجنائية، وعلى الرغم من جهود رجال المباحث المضنية، إلا أن أحدا لم يكتشف أنها قتل بل صنفها الجميع على أنها حالة وفاة قدرية.

سألته بفضول:

هل يمكن أن تخبرني الطريقة؟

حاول أن يشرح كيف فعلها، فاختنقت الكلمات في حلقه، فطلب ورقة وقلما، فأعطيته إياهما، أخذ يكتب لمدة عشر دقائق كاملة، ثم أعطاني الورقة.

أخذت في قراءتها وانقل بصري بذهول بينها وبينه، هل يحمل هذا الرجل هذا الرأس الجهنمي؟ لقد كان معه كل الصواب عندما قال أنه سبب نجاح تجارة أبيه، هو لم يكن يتقول إذن، هذا الرجل يحمل رأساً عبقرياً فعلا، ولكنه للأسف لا يستطيع أن يواجه الحياة، وحتى في تنفيذه للجريمة إخترع طريقة لا تحتاج منه بالكاد إلا إلى .....

قطع حبل أفكاري قائلا:

أنا أعلم ما تفكر فيه سيدي الطبيب، ستقول متعجبا، كيف أن هذا المتردد لم يتخذ في حياته إلا هذا القرار الدموي وينفذه، ومعك الحق، ولكن صدقني عندما كنت أنفذ هذا القرار كنت أفكر في إخوتي قبلي، كيف أُبقي أي شيء من أجل إخوتي الذي جعلهم عالة عليه، أيقنت أنه إذا اختفى أبي، فنستطيع أن نكمل أنفسنا، أن أخطط وهم ينفذون وبذلك يبقى مجد عائلتنا. هل تعلم أيها الطبيب لم أتيت إليك؟

قلت: لا، لم؟

قال بكل هدوء:

لقد كنت أحتاج إلى التنفيس وإلى استشارة لا أحتاجها من شيخ دين ولكن أحتاجها من طبيب، وسؤالي هو:

هل أذهب فأسلم نفسي إلى الشرطة أم أعود فأقود عائلتي؟

****

قلت وأنا أتمطى: وبماذا أجبته؟

قال مطرقا:

كان سؤالا عسيرا جدا يا دكتور عبد العليم، ولكني أشرت عليه بالاستغفار لأبيه والدعاء له، وقلت له أن تسليم نفسه لن يغير من الوضع شيئا بل سيزيد وضع العائلة سوءً، وأعتقد أن التوبة في حالتك والاستغفار قد تُقبل من الله، نصحته بمواجهة الأمور بمحاولة نسيان الماضي.

قلت: وماذا كان رد فعله؟

رفع رأسه مبتسما ابتسامة جزلة وقال:

**خرج من العيادة بوجه مشرق متهلل بخطى وثيقة لا عرج فيها ولا عوج، واتجه بقوام ممشوق إلى الحياة ليواجهها فيعركها وتعركه، بعد أن زال عائقه الرئيس من وجهه واكتسب ثقة في قدرته على مواجهة الحياة، .... وما أمرّها من ثقة تلك التي تأتي بعد أن يضيع العائل!**

**قلت متفهما:**

**حالة تثير الشفقة فعلاً، وتدفع المرء إلى كثير من التفكير.**

**قال: الحالة التي صادفتها بعد ذلك كانت أكثر عجبا وبؤسا -كما أرى-، ولا أطيل عليك فسأبدأها مباشرة.**

**استمع إلي حكايتي مع العاهرة.**

# أنا والعاهرة القديسة

جلست في الغرفة شاعرا بإرهاق شديد، فقمت وتمددت على الأريكة، وأخذت أنظر من النافذة أتأمل في النجوم، أنظر إلى هذا النظام المترامي، شردت مع هذا الجمال، وعرفت في هذه اللحظة لم كان العشاق يتأملون النجوم والقمر، شعرت باسترخاء يغزو جسدي، وبدأ الخدر يتسلل إلى جسدي، وبدأت جفوني تتساقط، لم أرد أن أقاومها، فتركتها تغطي عيني، ثم استيقظت فزعا على صوت الممرض يطلب الإذن لدخول الحالة الأخيرة، صرخت فيه: ألم تسمع عن اختراع اسمه (طرق الباب)؟

قال في حيرة:

ولكني طرقت الباب وانتظرت الرد، فلما تأخر دخلت.

أدركت أني غفوت غفوة شديدة، لم أشعر معها بطرق الباب، على الرغم من ذلك شعرت باستفاقة جيدة مع هذه الغفوة القصيرة، فقلت له وأنا أغير ملابسي: هل تستطيع أن تصرف الحالة الأخيرة؟

قال في تردد:

لست أدرى، لقد جاءت ثم انصرفت ثم عادت...

قاطعته:

هل الحالة امرأة؟

قال: نعم، سيدة فاضلة محترمة محتشمة.

وصمت لحظات ثم أردف بخبث:

وجميله جدا...

نظرت إليه نظرة جانبية ثم قلت:

لا بأس، أدخلها، ننتهي منها سريعا ثم ننصرف ..

تراجعت عن تغيير ملابسي، وجلست إلى المكتب، سمعت طرقا خافتا على الباب، فابتسمت وأنا أراجع الفارق بين الطرق الحريمي والطرق الذكورى، أذنت لها في الدخول.

ما أن دخلت الباب حتى أدركت أن ممرضي لا يفهم في النساء، إنها آية في الجمال، وعلى الرغم من أنها ترتدى ملابس محتشمة وغطاء رأس، إلا أنها كانت من النوع الذى يعطيك الانطباع بالضعف والرقة والطيبة والخضوع، وهذا يزيد جمال المرأة فى عيني الرجل، ولن أحدثك عن جسدها فليس هذا من حقي، ناهيك عن أني لم أطل التحديق فيها، حتى لا يظهر علي ملامح الانبهار.

كانت شفتيها تتحرك مهمهمة بكلمات غير مسموعة الصوت، وبفضل خبرتي المحدودة فى قراءة حركات الشفاة أيقنت أنها تكرر الاستغفار، فشعرت بنفسي تلومني على تحديقي وتأملي فيها على الرغم من أنه لم تَشُبْه شائبة شهوة، فأدرت وجهي واستغفرت وتظاهرت بأنى أسعل، ثم قلت لها بعد رد التحية:

تفضلى بالجلوس سيدتى الفاضلة.

شعرت أنها تنظر إلي نظرة لوم أو عتاب لا أدري لها سببا، ثم وجدتها أطرقت ونظرت إلى الأرض، ثم نهضت واتجهت إلى الأريكة وجلست عليها وهي لا تزال تنظر إلي الأرض، ثم قالت شيئا بصوت خافت لم أسمعه، فطلبت إليها أن ترفع صوتها قليلا، فقالت:

من فضلك أطفئ النور!

ذهلت كثيراَ من طلبها وحاولت أن أمنع نفسي من أن أظن بها ظناَ سيئاَ، وقلت في نفسي من الممكن أن يكون لطلبها سببا منطقياَ فسألتها بهدوء:

هل من الممكن أن أعرف سبب هذا السؤال؟!

شعرت أنها تكاد تبكى وهى تكرر:

من فضلك أطفئ النور!

أدركت أن لديها شيئا تستحي أن تقوله، لذا تريد أن تطفئ النور، فقمت لأطفئ النور وعدت لأجلس فى مكاني وأضأت مصباح المكتب الذي يكفي لإنارة المكتب لأتمكن من تسجيل المعلومات الضرورية.

بدأت في أخذ البيانات الشخصية، فسألتها:

ما اسمك؟؟

قالت بصوت خافت –والذي استمر طيلة الجلسة حتى أني كنت أجاهد من أجل تمييز كلماتها–: مارلين أندراوس.

توقفت يدي وأنا أكتب الاسم، هذا الاسم مسيحي صرف! وهي من المظهر العام تبدو مسلمة، ثم نهرت نفسي على غبائها، كان من المنطقي أن أستنتج أنها كانت مسيحية فأسلمت ولكنها لم ترد تغيير اسمها.

سألتها: معذرة ولكن ما هو سنك تحديداً؟؟

شعرت بدهشة من إجابتها:

فى السابعة والثلاثين من العمر.

قلت: الحالة الاجتماعية؟؟

قالت: متزوجة وأم لولدين.

أخذت منها باقي البيانات ثم سألتها:

ما هي مشكلتك أو معاناتك يا سيدة مارلين؟؟

تأخرت الإجابة كثيرا، حتى أنى شككت أنها سمعت السؤال، أو أنها مترددة في الإجابة، فطرحت السؤال مرة أخرى.

فأتتني الإجابة بعد لحظات:

أنا عاهرة في نفسي.

خيل لي أني لم أسمع الإجابة جيدا، فهممت أن أطرح السؤال مرة أخرى، لكنى أدركت أن ما سمعته هو عين ما قالته بالحرف، فأطفأت مصباح المكتب حتى لا ترى هي الأخرى تعبيرات وجهي، كما وضعت نفسها فى الظلام حتى لا أرى ملامح وجهها وتعبيراته، وهى خصوصية أحترمها.

قررت أن أضع المدونة جانباً وأعتمد هذه المرة على ذاكرتي الفولاذية، التى كان زملائي يحسدونني عليها، على الرغم من أني لم أكن أحتفظ إلا بما يلفت انتباهي، وأنا لا أحتاج إلى اللغو من كلامها، كل ما أحتاجه هو النقاط الفاصلة.

سألتها بصوت لم يفلح إلا في أن يخرج خافتا:

ماذا تقصدين بقولك "عاهرة في نفسك"؟؟ هل تقصدين أنك تشعرين أنك عاهرة على الرغم من أنك لست كذلك؟ أم أنك أخطأت التعبير؟ أم أني أسأت الفهم؟

قالت بصوت متحشرج:

لا، لم تسئ الفهم يا سيدي، ولا أنا أخطأت التعبير، واستنتاجك الأول صحيح إلى درجة كبيرة.

قلت بفضول:

أين يقع الخطأ إذن؟

قالت بصوت يحمل نبرة خجل –وتخيلت وأنا أسمع كلامها أن رأسها قد تدلت أكثر وأكثر حتى أصبحت على صدرها–:

لا يوجد خطأ، أنا أشعر أنى عاهرة على الرغم من أني لست كذلك ... ولكني كنت كذلك. ثم أجهشت بالبكاء ...

ذهلت جدا من قولها!! هذا النقاء والعفة والطهارة، يحمل ...، لا، لا... كان يحمل الدنس والرجس والقذر فى داخله!! كيف هذا؟!!

ولكن لحظة، ربما اكتسبت ملامح العفة والنقاء بعد توبتها، ربما كانت تحمل ملامح شيطانية، أفعال الإنسان تنعكس بالفعل على وجهه بشكل كبير، إلا في حالات نادرة.

قلت لها بصوت مهدأ مطمئن:

إن الله حليم ستير، وعفى الله عما سلف، وإذا كنت كذلك، فالتوبة تمحو ما قبلها، ما نحتاج أن نعرفه الآن هو، لم تشعرين بالدنس فى داخلك؟ ما الذي جدد هذا الشعور فى داخلك مرة أخرى؟

قالت –وآثار البكاء فى صوتها–:

الأمر مرتبط به لايمكن فصله عنه، الكل متصل ببعضه.

لم أرد أن أسألها: ما هو "الذي هو مرتبط به" أو "لا يمكن فصله عنه"، لذا قلت لها:

إذا كان الأمر مرتبط به فيمكنك أن تحكيه أيضا، أو بمعنى أدق لتحكي الأمر من أوله، معذرة، ولكن بحالة كحالتك لا يمكن التجاوز عن أي نقطة مهما كانت صغيرة، احك بالتفصيل، الإنسان عندما يحكي أسراره إلى من يثق به يشعر أنه يضع عن كاهله عبئا كبيرا.

همهمت قائلة:

معك حق، معك كل الحق.

قلت لها:

احك وسأنصت بكل جوارحي.

زفرت زفرة طويلة ثم قالت:

لا أتذكر بطبيعة الحال تفاصيل حياتي، وكلنا كذلك، لا أتذكر إلا الخطوط الأساسية والتحولات الرئيسة في حياتي وأعتقد أن هذا ما سنحتاجه تماماً.

أومأت برأسي موافقا، ثم انتبهت أنها لا تراني فقلت:

نعم، بالضبط واصلي ...

أكملت القص:

وُلدت في الأسكندرية لأسرة مسيحية ملتزمة، بل يمكنك القول أنها كانت متزمتة، كلاً من الأب والأم ملتزم أكثر مما ينبغي، طمعاً في دخول السماء ...

قلت: هذا جيد.

قالت وقد ظهرت نبرة الضيق في صوتها الخفيض:

ليس جيداً تماماً يا سيدي، التضييق على الفتاة عامة قد يؤدي إلى نتائج غير حميدة، نعم لابد من المراقبة والسؤال ولكن لا يصل الأمر إلى درجة الحصار، الشاهد أني والحمد لله لم أتأثر بهذا التشديد، بل نشأت على الأخلاق الحميدة وعلى الصراط المستقيم، وأذكر لوالداي أنهما ربيا فيّ عادة جميلة وهي القراءة، وبالنسبة لفتاة مثلي لا يمكنها الخروج والانحلال مثل الفتى، وجدت متعتي في القراءة، أدمنت القراءة إدماناً، وعلى الرغم من كوني من أسرة فقيرة إلا أن كنت أختزن من مصروفي قدر الإمكان لأتمكن من شراء ما أبحث عنه من قصص وروايات وكتب، ولا بأس من شرائها مستعملة.

قلت موافقا:

جيد، القراءة توسع الأفق وتنمي الذكاء وتثري الأفق ..

قالت وهي تتنهد:

نعم، ولكن للأسف كانت هي بداية انحرافي، لم تكن هي السبب ولكن أخذت دوراً في ذلك ..

قلت بفضول لم يظهر في صوتي:

كيف كان ذلك؟؟

قالت وقد عاد الاختناق إلى صوتها مجددا:

تعرفت على بعض الصديقات الجدد، وفي يوم وجدت مع إحداهن رواية غالية الثمن فسألتها من أين اشترتها؟؟ فقالت أنها أخذتها من صديقتنا فلانة، فتعجبت لأني كنت أعلم أن صديقتنا هذه لا تقرأ، فأخبرتني صديقتي، أن هذه كتب أبيها وأخيها الأكبر وأنها تعيرها لمن يحتاجها أو يريدها ...

بدأت أوطد علاقتي مع صديقتنا هذه ثم سألتها أن تعيرني الرواية التي كانت مع زميلتنا، فقالت: مري علي ليلاً وتعالي وخذي من المكتبة ما يحلو لك.

عدت هذا اليوم إلى البيت وأنا أكاد أطير فرحاً، واستأذنت أبي الذهاب إلى صديقتي كذا من أجل إحضار بعض الكتب والروايات منها، وطمأنته بأن أباها سيتصل ليطمئنه على وجودي هناك، فسمح لي بالذهاب.

ارتديت أفضل ما لدي من ثياب، ذهبت إلى بيت زميلتي، كانت حالتهم الاجتماعية أفضل منا كثيرا ولكن هذا لم يؤثر في كثيراً، فليس لأجل هذا أتيت. بعد طقوس الاستقبال وأداء واجبات الضيافة أدخلتني إلى المكتبة، وقفت شاغرة فاهي!

هذه الحمقاء لديها كنز لا تقدره حق قدره، آه لو كانت هذه المكتبة عندي، المهم أخذت أتجول في المكتبة الكبيرة، أختار كتبا ثم أعيدها حتى استقر رأيي على أخذ بعض الكتب والروايات، وهممت بالانصراف، فأصرت زميلتي أن أظل قليلا فالزميلات سيصلن حالا وسنجلس مع بعض قليلا ثم ننصرف، وقالت أن أباها سيطمئن أبي فلم أجد بدا فجلست، جاءت الزميلات وأخذنا نمرح في غرفة مغلقة علينا طبعاً ..

ثم قامت اثنتان ليرقصا، ورقصا ونحن نصفق، ثم طلبوا إلي أن أرقص فاعتذرت منهن أني لا أعرف، المهم لم يتركنني حتى علمنني الرقص في هذه الجلسة وجلسات لاحقة حتى أصبحت أكثرهن رشاقة واحترافا.

ومرت الأيام إلى أن جاء يوم مشؤوم، وفيه قالت لي زميلتي التي استعير من عندها الكتب، أن هناك شاباً يحبني ويريد أن يقابلني، قلت لها أنني لست من هؤلاء الفتيات

وأنه لا يمكن أن أقابله، قالت أنه صديق أخيها، شاب مثقف محترم ملتزم وليس من شباب هذه الأيام، وأنه رآني عندهم مرة فأعجب بي ويريد أن يقابلني.

رفضت، ثم فوجئت بها في اليوم التالي تقول: أنه لم ييأس وأن هناك مفاجأة لي. لم ألق انتباهاً لما تقول وذهبت معها وأخذت بعض الروايات منها وعندما عدت إلى البيت، وأنا أقرأها وجدت فى إحداها خطاباً غرامياً منه، ترددت وأنا أمسكه، وددت أن أمزقه، ولكن فضول الأنثى دفعني لقراءته، فقرأته وأبهرني أسلوبه.

وبغض النظر عن التفاصيل والمطاردات وافقت على مقابلته، وتكررت لقاءاتنا، وصدقني كانت كلها بريئة؛ تصور لم يمسك يدي فى يوم من الأيام، وأنا لم أكن لأسمح له، المشكلة أنه كان مسلماً، كنا نتعذب كثيراً بسبب هذه المشكلة، كيف سنتجاوزها؟

على الرغم من ذلك استمرت العلاقة بيننا، آملين فى أن ننجح في حل هذه المشكلة بشكل من الأشكال. وفي يوم من الأيام خرجت لمقابلته ولما تأخرت عن الميعاد، أخذت بعض الطرق المختصرة.

تهدج صوتها في هذه الفقرة وهي تقول:

ثم حدث الحادث المشؤوم ...

سألتها بصوت رصين:

هل تعرضت للاختطاف؟؟؟

قالت بصوت يحمل كل معاني الحزن:

نعم، وكان هذا الاختطاف بداية الانحراف، كانوا بعض الذئاب البشرية الذين لم يكتفوا بفعلتهم، بل قام أحدهم بتصويري بدون علم الآخرين ثم قاموا بإلقائي وتهديدي ألا أفتح فمي وإلا سيقتلونني.

لا تتصور كيف كان شعوري وأنا عائدة إلى المنزل، أفكر في أبي وأمي وكيف سيكون وقع الصدمة عليهما، وكنت أفكر في أحمد حبيبي، أيقنت أني سأقطع علاقتي به..

الحمد لله لم أجد أبي فى البيت هذه الليلة، وكانت أمي نائمة فدخلت بدون أن يراني أحد ولم أجد في نفسي الجرأة لأخبرهما في اليوم التالي أو في أي يوم بعد ذلك ...

مرت الأيام والليالي وجرح كرامتي لا يزال ينزف، إلى أن اتصل بي هذا النذل يساومني على الصور، لم يطلب مالا، طلبني أنا، ولم أملك الرفض ولم أستطع أن أخبر أحدا خوفا من الفضيحة.

اعتاد على ذلك، تكررت طلباته مرات عديدة، وأنا أخضع في كل مرة؛ فكرت أن أقتله ولكن لم يكن لدي الجرأة لأفعل.

بدأ الكلام ينتشر هنا وهناك، فلم يكن من الممكن إخفاء أمر كهذا طيلة الوقت، فكرت في الهروب ولكني علمت أن هذا سيثبت الكلام والشائعات.

في هذه الفترة مات أبي بعد فترة مرض، لم يُعلم لها سبباً، شعرت أنه كان يعلم، أو هكذا أوهمتني نفسي وأنبني ضميري ومرت الأيام ...

وبعد شهـور قليلة من موت أبي، ماتت أمي حزناً عليه، وفجأة وجدت نفسي في المرحلة الجامعية بدون معين، نعم كنت فى آخر سنة ولكن ... بلا ...

أنت لا تتصور كيف كانت حالتي، شعرت أن هناك انقسام فظيع في حياتي، شعرت أني شخصية في مستر جيكل ومستر هايد، صباحاً طالبة متفوقة جداً في الدراسة، مثقفة على درجة عالية، تتناثر حولها الأقاويل، ليلا أعمل عاهرة على مستوى عالٍ.

المهم مرت الشهور وتخرجت من الجامعة، وهنا طرحت على قوادي اللعين أن ننقل النشاط إلى القاهرة، حيث العمل أفضل وأكثر ربحاً، في الواقع لم أكن أبحث عن الربح، كنت أشعر بالاشمئزاز من عملي هذا.

لا تتصور كيف كان شعوري وأن بين يدي حيوان يبحث عن المتعة الحرام، على الرغم أني لم أكن إلا لمن هم على مستوى عالٍ من الثراء، واحدة بإمكانياتي لا بد من استغلالها أمثل استغلال، إلا أني كنت أشعر باشمئزاز وحزن شديدين مع كثيري المال،

معدومي الأخلاق، ولكن ما باليد حيلة، فكرت أن الذهاب إلى القاهرة من الممكن أن يُوجِد فرصة جيدة للحياة الشريفة.

قلّب الأمر في رأسه ثم وافق وانتقلنا إلى القاهرة، والحق يقال أن هذا القواد اللعين كان يدير شبكته باحتراف، فلم يلق القبض على إحدانا مرة واحدة، كان ينفق من أجل ذلك كثيراً ولكنه يكسب أكثر، فلقد كان تعاملنا ينحصر في شخصيات من الطبقة العلياْ "عالة المجتمع" كما يقال ...

المهم أتينا إلى القاهرة، وأخذت أخطط للهرب ولكنه كان يفرض علينا حصاراً مشدداً فنحن بضاعته ورأس ماله، وحاولت مرات عدة ولكني فشلت ...

استمر الوضع على ما هو عليه إلى أن أصبحت محظية أحد الكبار، أصبحت الفتاة المدللة عنده التي يطلبها بالاسم، وهنا وجدت أن هذه هي الفرصة السانحة للهرب، واذا لم استغلها سأكون أكبر حمقاء.

باختصار؛ شرحت قصتي لهذا الرجل الكبير المهم جداً، ووضحت له كيف أني أريد أن أنتقم وأتحرر من هذا القواد اللعين الذي اختطفني.

شعرت أن بعض سمات الظفر والشماتة تلوح في كلامها، إلا أني لم أعلق واكتفيت بالإنصات إلى ما تقول.

وتكفل هذا الرجل بكل شيء أُحضر الرجل، وأَدبه بما فيه الكفاية حتى يضمن أنه لن يتعرض لي مرة أخرى، ثم أُعيد إلى الإسكندرية مع تهديد بالقتل إذا وطأت أقدامه القاهرة. وبذلك نلت حريتي من قوادي ولكن ظللت أسيرة الرجل الكبير، ولكن على الأقل أصبحت مقصورة على رجل واحد، ولست مشاعاً لكل من هب ودب من الأثرياء المتحللين...

التقطت أنفاسها ثم واصلت:

هل تتصور، طيلة هذه الفترة السوداء من حياتي لم أنقطع عن هوايتي المفضلة، استمرت القراءة كصديق وفيّ أُسري به عن نفسي في هذا المستنقع الآسن .....

قلت مواسيا:

ليس غريباً فأنت لم تدخليه مختارة.

واصلت ولم تلق بالا لتعليقي:

انتهزت فرصة حريتي وواصلت قراءتي بطريقة أكبر فلم يعد لي هم في الحياة إلا هي؛ كان إعجاب هذا الرجل يزداد بي يوماً بعد يوم فلم يجد فيّ مجرد امرأة جميلة، بل وجد في امرأة مثقفة، عالمة ببواطن الأمور ذات قلب حنون، مما زاده اقتناعاً بقصتي. ولم أدر كيف أقنعه بأنني أريد أن أتوب وأقلع عن هذه القذارات وأنسلخ من هذه الحياة الآثمة.

في تلك الأيام وجدت في نفسى ميلا إلى الإسلام واقتناعاً به، تلفت حولي فلم أجد ما يمنعني من التحول، فليس لدي أسرة أخشى عليها أو منها، أو منزلة اجتماعية سأضطر للتنازل عنها، اختصاراً، لم يكن لدي ما أخسره بتحولي إلى الإسلام، بل كان لدي الكثير لأكسبه، فلقد كانت لدي الفرصة الذهبية لأبدأ حياة نظيفة.

المهم جاءني هذا الرجل المهم في ليلة من الليالي فوجدني أضع غطاء رأس، فلم يلق لذلك بالاً، بعد لحظات أخبرته أني تحولت إلى الإسلام وتبت، إنفعل وثار وانصرف غاضباً. ولكن الحق يقال أنه اتصل بي في اليوم التالي واستفسر عما إذا كنت جادة في هذا الأمر، فأكدت له عزمي على ذلك، فاعتذر لي واستسمحني وقال لي أنه يعد لي مفاجأة وتهنئة على إسلامي.

فوجئت في اليوم التالي بمكتبة دينية كاملة تُنزل وتُركب في شقتي الكبيرة مع ورقة اعتذار منه وطلب للدعاء بالهداية. الحق يقال أن هذا الرجل كان له الفضل الكبير في حياتي بعد الله –عز وجل– فلقد أنقذني من القواد الذي كان يتحكم فيّ، ثم عرفني على أخوات فاضلات ساعدنني كثيراً.

قلت بتأثر:

الرجل يريد أن يكفر عن سيئاته.

**قالت: لا، يبدو أن هذا الرجل كان يحبني كثيراً، لدرجة أنه بحث لي عن زوج بعد أن تأكد من صدق توبتي، وبالفعل أتى لي في المسجد الذي كنت أُدرس فيه يعرض عليّ بعض الأزواج ممن يرغبون في الزواج مني لما عرفوا قصتي، والحق يقال كانوا كثرة؛ شكرت له صنيعه ورفضت.**

**مرت الأيام وتعرف عليّ رجل فاضل وطلب الزواج مني، رفضت، ولكنه أصرّ، فحكيت له قصتي، لم يتردد وأصرَّ على الزواج مني.**

**قلت: الحمد لله لقد جزاك الله خيرا على نيتك ورغبتك في التوبة.**

**قالت بأسى:**

**الحمد لله على كل حال، ولكن الوضع عاد فتأزم مرة أخرى.**

**قلت: نعم، حتماً ولزاماً فالحياة لا تخلو من المنغصات، مع ملاحظة أنك لم تحك لي حتى الآن لم عاودك الشعور بالدنس والرجس؟**

**قالت بصوت أصبح أكثر هدوءً وانسيابياً:**

**نعم، إسمع وستعلم.**

**لا تعلم مقدار السعادة والنقاء التي أصبحت أعيش فيها، أصبحت أشعر أني أسعد امرأة في العالم، لقد رزقني الله زوجاً صالحاً ملتزماً بمعنى الكلمة، يعطيني كل حقوقي ويعاملني بالحسنى، ورزقت منه بطفلين، وعشنا في رغدٍ من العيش، فلقد كان زوجي رجل أعمال ناجح.**

**لاحظت بعد فترة أن زوجي حزين مهموم البال، سألته فلم يجبني وتحجج بأنها ظروف العمل ... ثم جاءني الهاتف المشؤوم، كان من أحد رجال الأعمال من منافسي زوجي، كان يريدني أن أقنع زوجي بأن يتنازل عن بعض الصفقات وإلا سيقوم بنشر بعض الصور لي، التي تكفي بأن تدمر حياتنا ...**

**أصابني الغم والهم والحزن، ها أنا ذا مطاردة بماضي الأليم، بعد أن ظننت أن الأيام الغابرة قد انقضت وأنها أصبحت تاريخاً منسياً، ها هي ذا تظهر أمامي مرة أخرى،**

أصابني الهم لفترة قصيرة، ثم اهتديت إلى فكرة شيطانية أُخرج بها نفسي من هذا المأزق ...

أخذت أنقر بأطراف أصابعي على سطح المكتب بحركة عصبية، ثم أقلعت وقلت بصوت خافت:

وهذا الذي سبب عودة الشعور بالدنس إلى نفسك؟!

قالت: نعم، ولكن لا تسئ فهمي، فأنا لم أعد إلى هذا الفعل الدنيء مرة أخرى.

قلت لها بحذر:

لم أستنتج شيئا بعد، احك لأسمع وأعلم.

قالت بعد أن زفرت زفرة شعرت أن لهيبها وصل إلى وجهي:

استدرجت زوجي وعلمت منه من ينافسه في منافسات معينة من عمله، وعلمت اسم منافسه ... وهنا بدأت تنفيذ مخططي، ذهبت إلى بعض العاهرات ممن كنت أعرفهن من أيام الضلال، وطلبت إليهن أن يوقعن هذا الرجل في حبائلهن ويصورنه، وقد كان.

استعملت ثلاثة منهن وسائل شيطانية للتقرب منه، وهن يشعرنه أنهن سيدات عائلات دفعتهن الصدفة في طريقه، وبالفعل حصلت على سلاح مضاد، وهددته أنه إذا ظهرت الصور في أي مكان فسينفضح هو أيضاً، وبذلك أنجيت أسرتي من الضياع والفضيحة وحافظت على زوجي، ... هل تجد فعلي مبرراً يا سيدي؟

قلت بعد عميق تفكير:

هو إنسان غير شريف، ولكن لا يمكن تقدير المسألة بسهولة، لا يمكن أن أقول أن فعلك هذا مغفور أو مسموح به، ثم ...

قاطعتني وهي تبكي بكاءً خفيفاً:

المشكلة أني لم أسامح نفسي، فعلى الرغم أن هذا الرجل نذل، وأنه كان على استعداد لتفكيك أسرة كاملة من أجل مكسب دنيوي دنيء، إلا أني لم أستطع أن أسامح نفسي

على توريطه في ثلاث جرائم زنا، ضميري أخذ يؤنبني بشكل كبير، لقد تسببت في ارتكابه كبيرة كبيرة.

تمتمت: ولكنه كان هو البادئ.

قالت: ولو، أنت لا تعلم كيف يخدش ذلك نقاء المرأة التائبة.

شعرت أنها أهانتني بقولها هذا، ولكن لم أرد أن أعلق أو أن أدخل معها في جدل عقيم، فقلت لها:

وما كان مقدار تأثرك بهذا الجرم؟

قالت وقد انقطعت عن البكاء:

كبير جداً يا دكتور، لقد عاودني ذلك الشعور الدنس، واختفى شعور النقاء والطهارة بدرجة كبيرة، والأدهى من ذلك أني بدأت أشعر أني "شاذة".

شعرت بانفعال شديد، حتى هذه أيضاً ترى نفسها شاذة، اللعنة، ما هي مسألة هؤلاء الشواذ؟ ألم يبق إلا أنا؟!

خبطت بيدي المكتب، ففزعت وقالت مذعورة:

هل هناك شيء يا دكتور؟

قلت لها بعد أن انتبهت إلى فعلي:

لا، معذرة، لقد اصطدمت يدي بالمكتب، لم شعرت أنك شاذة؟

قالت بصوت متردد:

بسبب .. بسبب الأحلام التي أصبحت أراها بعد هذا الجرم.

سألتها: أي أحلام؟ هل ترين نفسك في ممارسات شاذة؟

رأيتها بعين الخيال تهز رأسها في قوة، وهي تقول:

لا، ليس دوماً، في بعض الأحيان كنت أحلم أني أخون زوجي، ولكن فى بعض الأحلام كنت أرى نفسي مع نساء.

قلت لها في حرج:

ولكن هل سبق لك أن ... أن ...

فهمت ما أريد قوله، فقالت:

لا، على الإطلاق.

تعجبت وقلت:

غريب، ولم ظهرت هذه الأحلام في هذه الفترة بالذات؟ من المحتمل أن ...

قاطعتني قائلة:

لا ترهق نفسك يا سيدي، قد يكون لدي الحل، ولا أدري إذا ما ... ما ...

قلت حاثا إياها على الحديث:

لا عليك، قولي ما لديك وسأقيّمه.

قالت بصوت يقطر خجلاً:

عندما كنت في تلك الفترة النحسة، كنت أحاول تقليل هذا الفعل الأسود، عن طريق رفع سعري، فاهتديت إلى ابتداع ومتابعة أحدث وأغرب الطرق في هذه العملية الحيوية، ولا ينصرف ذهنك إلى تلك الأشكال القذرة المنحرفة، التي يقوم بها شبابنا وحتى رجالنا تقليداً لما يشاهدونه في الأفلام الغربية، دون أن يعلموا أن هذا في الواقع مثير لاشمئزاز المرأة ولا متعة للرجل ولكنه التقليد الأعمى.

المهم كنت أقرأ في هذا المجال الدنس حتى أبتكر أشياء غريبة ترفع سعري، حتى لا أصير غنيمة لكل من هب ودب، لذلك قرأت بطبيعة الحال عن هذه الممارسات الشاذة من ضمن ما قرأت، فلربما يكون لهذا شأن في الأحلام التي أحلمها الآن؟!

قلبت الأمور جيداً في رأسي، تفكرت بضع دقائق ثم قمت فأضأت الأنوار، وقلت لها:

اسمحي لي أن أحييك سيدتي الفاضلة وأهنئك على عقلك وقلبك تهنئة صادقة نابعة من إنسان لا من طبيب نفسي، ولولا أنني أخشى أنك قد تسيئين فهمي لطلبت إليك أن أقبل يديك.

ألفيت وجهها يكتسي بحمرة الخجل وقالت وهي تطرق إلى الأرض:

لم، يا سيدي؟!

قلت وأنا أشعر بانفعال شديد يجيش في صدري:

اسمحي لي أن أقول لكِ أن تحليلك لحالتك تحليل خاطئ تماما، لا يرجع الأمر إلى قراءتك أو شيء من هذا القبيل، بل يرجع الأمر إليك أنت، أنت السبب والمنبع.

قالت في حيرة وهي لا تزال تنظر إلى الأرض:

كيف ذلك؟

قلت بنفس الحماس:

اسمحي لي أن استعير تعبيرك، ولكن انتظري حتى النهاية من فضلك.

قالت وقد بدأت ترفع رأسها قليلا:

لا بأس.

قلت: أنت فعلا حالة شاذة، لقد صفى قلبك وطهر إلى درجة كبيرة، لدرجة أنه أصبح يبغض مجرد ذكر هذه الدناءات والأوساخ، لذلك عندما تورطت في هذا المخطط، فسّر قلبك فعلك على أنه فعل ضال منحرف، وانعكس عندك في تأنيب الضمير وفي أحلام الخيانة، ومن كثرة بغضك لهذا الفعل فسره مرة أخرى على أنه فعل شاذ وليس فعلا ضالا، ووضعك أنت فيه.

أنا لا أستطيع أن أقول أو أحكم إذا كان الله سيغفر لك أو يسامحك لأنك كنت مضطرة لمثل هذا الفعل، فالله أعلم بتصريفه، ولكن الذي أعلمه وأعرفه الآن علم اليقين أنك

**إنسانة طاهرة نقية، أخلصت توبتها، واستقامت على طريقها، ولن يخيبك الله، اذهبي فنامي وقري عيناً، فبإذن الله لن تعود إليك هذه الأحلام مرة أخرى.**

**رفعت إليّ عينين مغرورقتين بالدموع:**

**هل أنت جاد يا دكتور؟**

**قلت لها وقد بدأ الدمع يتسلل إلى عيني أيضاً:**

**جاد؟! طبعاً جاد، جاد جداً، اذا كنت أنت شاذة، فنحن والعياذ بالله شياطين تمشي على الأرض.**

**قامت تمسح دموعها وابتسمت ابتسامة شعرت فيها وبها ومعها بطهر الدنيا.**

**قبل أن تنصرف ناديتها:**

**يا أخت .....؟؟؟**

**التفتت وقالت مبتسمة:**

**فاطمة!**

**قلت:**

**أخت فاطمة، لا تنسيني من دعائك!**

**قالت: بإذن الله لن أنسى.**

****

**جففت بعض عبرات تسللت من عيني، وقلت متأثرا:**

**قصة بائسة مؤثرة فعلا، تحمل كثيراً من الملامح الإنسانية.**

**قال وهو ينظر نظرة، لم أعرف إذا كانت إشفاقا علي أو تأثرا بالموقف:**

هل تعلم يا دكتور *عبد العليم*، لقد أثرت هذه القديسة في كثيراً، هي في منتهى الطهر والنقاء وتشعر بأنها شاذة لبعض الأحلام التي رأتها كرد فعل لدفاعها عن أسرتها.

قلت وأنا أخرج بعض الفاكهة من المبرد:

نعم، هذه هي المشاعر الأصيلة التي ينبغي أن تتوفر في المرأة، حتى تؤدي دورها الطبيعي في الحياة كأم وزوجة وأخت، النساء هن زينة الحياة وسكنها، ألا ليت نساءنا يأخذن هذا الحس المرهف والإحساس بالذنب، بدلا من تبلد مشاعرهن وجمودهن، الذي حول الأسرة إلى مكان جامد لا دفئ فيه.

قال: بما أنك ذكرت الأسرة وما حدث ويحدث فيها، فأرى أنه من الأفضل أن أحكي لك حكايتي مع الذي صار سفاحا، والذي صادفني بعد هؤلاء، لقد أردت أن أهرب منهم، فوجدتني ألتقي أحدهم!

تعجبت وقلت:

سفاح، في مصر؟!

قال وهو يبتسم:

نعم، سفاح ولكنه لم يقتل أحدا.

ولكن دعنا نأكل أولا هذه الفاكهة ثم نحكي قصة السفاح.

قضمت قضمة من التفاحة التي أمسكها وقلت مبتسما:

معك حق الأكل أولا، ثم يأتي السفاح بعد ذلك.

# أنا والسفاح

كانت حالتي النفسية والعقلية في حالة تقلب في تلكم الأيام، فبعد أن قابلت الحالات الخمس الماضية وبعض الحالات الأخرى التي لم أذكرها لك، والتي يحمل كل منها نظرة مخصوصة للحياة، نعم نظرة متطرفة بعض الشيء ولكن بها جزء كبير من الصحة، بدأت نظرتي للحياة تتبدل جزئيا، وبدأت أدرك أن هناك الكثير من المناظير التي يمكن أن ترى بها الحياة، تلك الحياة الدنيا القاسية الرخيصة التي لا تستحق.

قررت أن أنزع نفسي بعض الشئ من عجلة الحياة وأن أنعم بقليل من الراحة، فمنذ أن افتتحت العيادة لم أنعم بإجازة أكثر من يومين في نهاية الأسبوع، لذا قررت أن أعتزل العمل أسبوعا كاملا، أعود فيه إلى قريتي الحبيبة، حيث الهدوء والراحة والهواء النقي، وأهم من ذلك كله مشاعر الود والحب والتراحم، صحيح أن الريف قد تغير كثيرا، ولكنه يظل أدفأ مشاعرا وأرحم قلوبا من المدينة بقدر وفير، وخاصة إذا كانت مدينة لا ترحم مثل القاهرة.

قلت له بعد لحظات من التفكير:

أنت من الدقهلية على ما أتذكر؟

رد بابتسامة باهتة:

ذاكرة تحسد عليها يا دكتور عبد العليم، نعم أنا من الدقهلية، وغالبا لا تذكر اسم القرية، وهذا لايهم، المهم أنها قرية من قرى الريف البعيدة عن العاصمة، المنصورة طبعا، قرية من تلك القرى القليلة الحظ والتي تقع في نهاية طريق من الطرق، حيث تجد نفسك مضطرا إذا لم تكن معك عربتك الخاصة، أن تكون في القرية قبل الثامنة مساءً.

اتصلت بوالدي وأخبرته أنني سآتي لأقضي أسبوعا كاملا عندهم في القرية، أنا وزوجي وابننا، فرحب ترحيبا كبيرا، أنهيت أعمالي في القاهرة، أعددت حقيبة السفر واشتريت بعض الهدايا لأقاربي واستقلتني سيارتي إلى بلدتي.

وهناك استُقبلنا بعاصفة من القبلات والأحضان والسلامات والابتسامات البريئة، والتي يكفي أنها تشعرك أنها لا تحمل خلفها أي غرض أو رياء أو منفعة، كنت أعلم علم اليقين أن النظام –غير القاسي– الذي أتبعه في غذائي سيختل، ولكن لا بأس من هذا الاختلال، فسيحفز جهاز المناعة والهضم و.... وأجزاء أخرى في الجسد.

ابتسمت وقلت:

ما أروع هذا الاختلال، كنت أنتظر الأيام التي أعود فيها إلى قريتي أنا الآخر، حتى أنعم باختلال رائع في الوظائف الحيوية.

واصل بدون تعليق:

بدأ سيل الطعام بعشاء، لم يسبق أن تناولت مثله في القاهرة في غدائي قط، وأمام إصرار الجميع والجمعة الجيدة من الناس، اقتحمنا الأكل اقتحاما، ومع جهدة السفر وتخمة الأكل وثقله لم يكن في إمكاني إلا النوم والنوم العميق.

استيقظت في اليوم التالي مع آذان الفجر، قمت فارتديت جلباباً كان قد أحضره لي أخي وخرجت لأصلي، ما كان أروع الجو، هواء نقي، تكاد ترى نقاوته لا تشمها، أعداد الذاهبين إلى الصلاة لم تعد كما كانت من قبل، ولكن هذا لم يشغل بالي، فالعادات السيئة انتشرت في الريف بشكل كبير.

ما لاحظته ولم أجد له تفسيرا –وفي نفس الوقت لم أشغل بالي به كثيراً– هو أن الناس يذهبون مسرعين بطريقة ملحوظة إلى المسجد، أنا أعرف فضل المسارعة إلى المسجد ولكن ... لم أشغل بالي كثيرا، صليت الفجر، وكنت أمني نفسي بجولة كبيرة في الصباح الباكر، ولكن الحق يقال، شعرت بإرهاق فقررت العودة إلى المنزل، لاحظت

**أثناء رجوعي أن الناس يسرعون الخطى في العودة إلى منازلهم، ابتسمت في قرارة نفسي وقلت:**

**ما هذا النشاط الذي حل على أهل القرية، أصبح الناس يتحركون بسرعة كبيرة، بهذا الشكل ستغزو منتجاتنا الصين قريباً.**

**عدت إلى المنزل وخلدت إلى النوم، أيقظوني في العاشرة لأتناول الإفطار معهم، وكالعادة دار الحديث عن القرية والناس في القرية والمعارف والجيران والأقارب، وأن فلانا تزوج، وتصور فلانة تزوجت من عائلة فلان، والحاج فلان توفاه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم تكتشف بعد هذا الكلام المثير أنك أكلت طنا من الخبز وكميات لا داعي لذكرها من المواد المصاحبة كالفول والقشدة والبيض والعسل –الأسود طبعا–، الريف لم يعد كما من قبل.**

**بعد الإفطار خرجت لألقي نظرة على أرضنا، وجلست هناك تحت شجرة جميز أنظر إلى العمال في الأرض، وأحسدهم على راحة وهناءة بالهم، هؤلاء لا يشغلون أنفسهم ولا عقولهم، يعبدون ربهم ويطعمون عيالهم، ولا يعنيهم ما وراء ذلك.**

**ثم ابتسمت في سخرية وقلت لنفسي:**

**الكل يحسد الآخرين، فالكل يرى نفسه في شقاء والآخرين في هناء، والحق أن العالم كله في شقاء، فليست هذه الدنيا بدار راحة بل هي دار كبدٍ ومعاناة.**

**قررت أن أنزع هذه الخواطر من رأسي، فأنا لم آت إلى هنا إلا من أجل الراحة وراحة البال قبل راحة الجسد، قررت أن أمر على بعض أصدقاء الطفولة، لنلتقي ليلاً ونتحادث ونتذكر أحداث الطفولة، ونتعرف على ما جد في حياة كلٍ منا.**

**مررت على بعض الأصدقاء، واتفقنا على أن نلتقي بعد العشاء عند الصديق الذي كنا نجتمع عنده دوماً في صغرنا، عدت إلى المنزل وأنا أشعر بسعادة غامرة لمجرد أنني قابلت بعض الأصدقاء، ولأننا سنعيد ذلك التجمع القديم، كم أن قلبي لا يزال قلب طفل صغير، أو كما يقولون عندنا في الريف –قلب أخضر–.**

بينما نحن مجتمعون على طعام الغذاء والذي يكفي لإطعامنا لأيام عديدات، أخبرت والدي أني قابلت فلانا وعلانا وأننا سنجتمع اليوم عند فلان بعد العشاء.

لاحظت نظرة قلق عابرة في وجه أبي، إلا أني فوجئت بأمي تضع أمامي نصيبا من البط وتقول لي وهي تبتسم:

ولم لا، المهم أن تنتبه لنفسك.

قلت في نفسي:

كم هي عظيمة أمي هذه، تطلب إلي الانتباه لنفسي كأني لا أزال طفلاً صغيراً، نعم فأنا لا أزال بالنسبة لها طفلا، والأهم من ذلك أنها تقوم بعملية (علف) جيدة لي، حتى أني أشك أنهم سيذبحوني في اليوم السابع!

أخلدت إلى النوم بعد الغذاء، مخالفا كل نصائح الإنجليز، ومتبعاً لنصائح أمي وبطني، واستيقظت مع المغرب، صليت وعدت إلى المنزل، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث عن الأرض والمحصول ...إلخ.

وما أن حانت العشاء واستعددت للخروج، فوجئت بأبي يعطيني "كشافا" يدويا. اندهشت وقلت له:

أنا لا أحتاجه، الكهرباء موجودة والحمد لله.

قال بصوت يحمل بعض نبرات قلق:

الكهرباء تنقطع منذ فترة في البلدة، وأنت ستتأخر عند إبراهيم وقد تحتاجه. أخذته ووضعته في جيب الجلباب على الرغم من يقيني أني لن استعمله، فحتى لو خيم الظلام طبقات طباقا فوق البلدة، فسأستطيع أن أعود إلى بيتي فأنا أحفظ الطريق عن ظهر –بل وبطن– قلب.

تجمعنا بعد العشاء عند صديقنا إبراهيم وأخذنا نتكلم ونمزح، قمت بإخراج الهاتف الجوال ووضعته أمامي حتى أكون حرا فى جلستي.

فوجئت بكلٍ منهم يخرج هاتفه ويضعه أمامه، أخذنا نمزح ويسخر كلٌ منا من هاتف صديقه، ويسخر من دواعي استعماله، ومن احتياجه إليه، ثم اتفقنا على أنه مظهر لا فائدة فيه لمعظمنا.

خلعت ساعتي ووضعتها أمامي، فخلع كلٌ ساعته ووضعها أمامه من باب المزاح، فانفجرنا في الضحك.

فقلت لهم: إذن، سأخرج شيئا، أجزم أني لن أجده مع أحد منكم.

وقمت بإخراج *الكشاف* ووضعته أمامهم.

وجدتهم ينظرون إلى بعض، ثم أخرج كل منهم كشافا ووضعه أمامه بدون أن ينطق بحرف واحد.

اندهشت كثيراً لأن كل منهم يحمل كشافا في يده، وسألتهم:

هل أصبحت الكهرباء تنقطع كثيراً، لدرجة أن كل واحد يحمل كشافا في جيبه؟

نظر بعضهم إلى بعض في قلق، ثم قال إبراهيم في حذر:

المسألة ليست مسألة كهرباء، ألم يخبرك الحاج؟

قلت وقد بدأ القلق يتسرب إلى قلبي:

لا، لم يخبرني الحاج، ماذا هناك؟

عاودوا النظر إلى بعضهم، ثم قال إبراهيم:

تكلم أنت يا علي، فأنت خير من يستطيع أن يحكي هذه الأمور.

التفت إلى علي لأسمع منه ما يقول عما يحدث في بلدتنا، ووجدته يلتفت حوله ليعطي الأمر أهميه، ثم قال بصوت مبحوح:

في بلدتنا سفاح!

"هاها هاها هاها"

قفزنا كلنا من أماكننا على الرغم من أن التيار الكهربائي لم ينقطع!

"هل تصدقون هذه الخرافات؟!!"

التفتنا فوجدنا صديقنا خالد، لم أكن قد قابلته صباحا فأوصيت زوجه بأن تعلمه باجتماعنا. كان كما هو، نفس القوام الضخم، ازدادت أكتافه اتساعا وعظامه عرضاً، كان صورة مصغرة لعملاق في كل شيء؛ المظهر، الصوت، إلا القلب فلقد كان يحمل قلب طفل.

فابتسمت وقمت لأحتضنه وتبادلنا القبلات والأحضان والعتاب واللوم؛ ثم سمعت إبراهيم يقول:

لقد أفزعتنا يا رجل

قال مبتسماً:

وما شأني، لقد ناديت فقال لي الحاج أنكم خلف الدار، فأتيت فوجدت عليا يتكلم عن السفاح فضحكت ضحكة مرعبة، فاكتشفت أن أصدقائي على قدر عظيم من الشجاعة.

ضربته في صدره فلم يتزحزح قدر أنملة، ثم رمى نفسه إلى الخلف متظاهرا بالتوجع:

آه، آه، لا تزال لكَ قبضة من حديد يا عامر.

قلت ساخرا:

نعم، ولا تزال أنت كلك من حديد، المهم اصمت لنسمع عليا وهو يحكي عن السفاح.

ابتسم في سخرية وقال:

إذن، لنسمع حواديت العجائز.

ابتدأ علي الحكاية قائلا:

حتى لا يسخر مني سأختصر قدر الإمكان، بدأ الأمر منذ حوالي شهر تقريباً، كانت ليلة عادية انقطع الكهرباء، لم يلق أحدنا بالا، أشغلنا مصابيح الكيروسين وظل الشباب الذي كان في الشارع منتظراً عودة الكهرباء، ثم سمعنا صرخة!

لا، لا، صرخات وعويل، فوجئنا بمجموعة من الشباب المنحرف يأتي إلى حرم القرية عدواً، محطم الأنوف والأسنان، بعضهم قد شجت رأسه، ومنهم من أصيب في قدمه.

سألناهم: ماذا هناك؟ قالوا بعد أن هدأناهم وعالجناهم، أن السفاح ظهر لهم وضربهم.

سخرنا منهم ومن عقولهم، وكيف أن شخصا واحدا ضربهم، فقالوا أنه يرى في الظلام بوضوح، فلم تفلت ضربة من ضرباته.

سخرنا منهم مجددا وقلنا لهم: إذا كان هناك سفاح، فماذا يريد إذن؟

قالوا: لا ندري، ضربنا وأخذ أسلحتنا وحذرنا أن يشاهد أي شخص يمشي في البلدة بعد الواحدة مساءً.

بطبيعة الحال لم تلق القرية بالا لحديثهم واتهموهم بالتخريف، وخاصة أن الحادث وقع قبل الحادية عشر.

مرت ثلاث أيام ثم انقطع التيار الكهربائي مرة أخرى عن كامل البلدة، ثم سمعنا صراخا، خرجنا فزعين، فوجدنا بعض الشباب المنحرف مصابا كسابقيهم وحكوا لنا نفس ما حكاه السابقون مع تعديل بسيط، فلقد قال السفاح إنه قرر تقديم ميعاد الحظر إلى الثانية عشر من منتصف الليل.

أصبح الناس في قلق عظيم منذ وقوع الحادثة الثانية، ومع وقوع الثالثة والتي عاد فيها أحد الشباب الفاسد شبه مشوه، أيقنت القرية أن السفاح حقيقة وليس وهما وخاصة بعد أن أجمع الكل على مواصفات واحدة، طويل، ضخم، عريض، مرعب، يخفي وجهه، يرى في الظلام.

قلت وأنا أبتلع ريقي بالكاد:

ألم يحاول أهل القرية اصطياده؟

قال وهو يتلفت حوله مجددا:

حاولنا مرارا وتكرارا ولكن فشلت جميع المحاولات، فأيقنا أن له عيونا في القرية أو أنه نفسه من القرية.

قلت بعد أن بللت حلقي بماء (القُلة) المجاورة:

ولم سكتم عن هذا؟ لماذا لم تتصلوا بالشرطة؟

قال وهو يتبادل النظر مع باقي الرفاق:

الشرطة لن تظل معنا طيلة العمر، ثم إنه غير ضار تماماً، فله بعض الفوائد فلقد لاحظ أهل القرية أن كل ضحاياه من الشباب الفاسد والمنحرف.

ضحك قليلا ثم قال:

إن الناس أصبحوا يصلون الفجر في اليوم التالي لانقطاع الكهرباء لأنهم يضطرون للنوم مبكراً.

قلت: إذن فقد اقتصر الأمر على ثلاثة حوادث؟

رد خالد هذه المرة وقال:

لا، كانت هناك بعض الحوادث المتفرقات التي نجا فيها بعض الشباب منه، ويبدو أنه كان يريد أن يرعبهم فقط.

قلت وأنا أقلب ما سمعته في رأسي:

عجيب! كل هذا يحدث في قريتنا الصغيرة! حقا لقد تغير الريف كثيرا.

قال إبراهيم وهو يخفض درجة صوته:

سأخبركم سراً، لقد رأيت هذا السفاح ذات مرة.

شعرت أن التوتر سيطر على الجلسة؛ ووجدت خالد يسأله بعصبية:

هل أنت جاد أم أنها مزحة من مزحاتك؟

قال بعصبية وقد خفض صوته أكثر:

لا، لقد رأيته فعلاً، الحق يقال، لقد خمنت أنه هو، كنت عائدا ذات ليلة مسرعاً الخطى إلى المنزل بعد انقطاع الكهرباء، فلمحت على ضوء القمر رجلاً ضخم الجثة يمشي بخطى واثقة، لا يتحسس طريقه مثلي، والأهم من ذلك أن رأسه كان مغطى تماماً من أسفل إلى أعلى.

قلت مستنكراً:

وعلى الرغم من ذلك يرى؟!

قال بحيرة:

نعم، ولست أدري كيف، المهم أني أسرعت إلى منزلي، ولم أخبر أحدا إلا زوجي، وأظن أن نساء القرية كلهن قد عرفن.

تدخل أحمد في الحديث وقال:

لنغير الموضوع يا جماعتنا، لن نظل نتحدث طيلة الليل عن السفاح، ثم غمز قائلاً: خاصة أنكم ستعودون كلكم إلى بيوتكم قبل منتصف الليل!

ابتسمنا ونقلنا الحديث إلى موضوع آخر.

****

قلت وأنا أفرك عيناي وأتثاءب:

سفاح في الريف المصري هذا غريب! بل ويتقمص دور رجل الخير، فيضرب الأشرار فقط.

وسرعان ما انتقلت عدوى التثاؤب إليه، فقال وهو يغطي فمه:

لقد تعجبت كثيراً، ولكن عجبي لم يدم كثيراً فلقد اكتشفت الأمر سريعاً.

**ارتفع حاجباي من الدهشة، وقلت:**

**سفاح وشيرلوك هولمز في آن واحد، ما هذا الحظ؟!**

**قال بجدة حادة:**

**ليست مسألة شيرلوك هولمز سيدي الفاضل، لقد أتاني السفاح بنفسه وأخبرني عن كل شيء.**

**قلت وأنا أعتدل:**

**عجباً لهذا السفاح، احك لي بالتفصيل!**

********

**عدت إلى منزلنا كأي سبع غضنفر –قبل الثانية عشر طبعاً–، واستلقيت إلى جوار زوجي، وأخذت أفكر في هذا الأمر، هل ما رووه صحيحاً، أم أنه من خيال ال...، لا، لا، لقد اتفقت الروايات، ...**

**قلت لنفسي: لن أشغل نفسي، أنا أتيت إلى هنا لأستجم وأرتاح ولن أشغل نفسي ببعض أوهام ال ... والآن لأنااااااااااااام.**

**بعد يومين ... أخذت رواية هزلية لأقرأها تحت شجرة الجميز القابعة على رأس حقلنا، وبينما أنا منهمك في القراءة وجدت ظلاً يسقط عليَّ فيغطيني رفعت رأسي فوجدته خالد، حييته وطلبت إليه الجلوس.**

**لم يُبد أي رد فعل لإشارتي، وإنما قال:**

**لقد ذهبت إليك في الدار فقالوا إنك هنا، فأتيت إليك.**

**قلت له: إذن، اجلس لنتكلم.**

**قال: معذرة، عندي بعض المشاغل، لنلتقي ليلاً.**

قلت: عند إبراهيم؟

قال بعصبية لم أجد لها مبررا:

لا، هل يمكن أن تشرفني في بيتي بعد العشاء؟

بعد صلاة العشاء مباشرة كنت أطرق بابه، فتح ورحب بي وأدخلني. وسريعاً أتى العشاء ثم الشاي.

وبينما نحن نشرب الشاي سألته:

خيرا ماذا هناك؟ لم أردت أن نلتقي عندك هنا في البيت بعيدا عن أعين الأصدقاء؟

قال وهو يتحاشى النظر إلى وجهي:

أريد أن أعترف لك بشيء، ولا أريد أن يسمعه أحد غيرك، وأرجو أن يظل ما سأقوله لك سراً.

قلت له وقد أهمني الأمر:

خيراً، اطمئن لن يعرف به أحد، قل، لقد أقلقتني.

قال مباشرة وبدون تردد وهو ينظر إلى الأرض:

أنا السفاح.

تجمدت يدي بالكوب الذي أحمله، ونظرت إليه نظرة مصدومة، وكاد الشاي أن ينحبس في حلقي، فسعلت! ولم أستطع أن أقول شيئاً.

وبعد ما يزيد عن الدقيقة سألته في حذر:

هل أنت جاد؟

قال بمرارة:

نعم، كل الجدة.

قلت وأنا أنظر إليه بعجب مشوب بالحذر:

**عجباً لك يا زمن، خالد الإنسان المثقف الهادئ الخجول المسالم، يتحول في يوم من الأيام إلى سفاح!**

**قال في عصبية:**

**أنا لست سفاحاً، أنا لم أقتل أحداً، لقد اخترت هذا الاسم من أجل الانطباع العام فقط.**

**سألته بفضول مشوب بالحيرة:**

**ولم اخترت هذه الشخصية أساساً؟ ولم تكشف نفسك أمامي الآن؟**

**قال وهو ينهي كوب الشاي:**

**سأحكي لك كل شيء بالتفصيل.**

**تجرعت الشاي وقلت لنفسي:**

**هل كُتب علي في كل مكان أذهب إليه أن أواجه هذا الموقف (الاعتراف)، لم لا أعمل كـ....؟! دعك من هذا واسمع للسفاح.**

**قام من مكانه وأخذ يجول في الغرفة، ربما ليفرغ قدرا من التوتر، وقال أثناء ذرعه الغرفة:**

**أنت تعلم أني سافرت إلى فرنسا بعد إنهائي التعليم الثانوي والخدمة العسكرية.**

**قلت: بصدق يا خالد، على الرغم من أنك لم تحصل إلا على الدبلوم، إلا أنك أفضل بكثير من بعض حاملي درجة الدكتوراة، لست أدري لم لم تكمل دراستك؟**

**قال وهو يهرش رأسه:**

**ظروف الحياة، أنت تعلم أن الوضع لم يكن يتحمل الانتظار حتى أحصل على الدكتوراة، والشهادة الجامعية كعدمها، المهم لا تخرجني عن الموضوع.**

**سافرت إلى فرنسا وعملت هناك لفترة، تعرفت على بعض الجزائريين، وفي إحدى الزيارات أهداني أحدهم نظارة الرؤية الليلية، والتي تعمل بالأشعة تحت الحمراء!**

قلت متعجبا:

ومن أين أتى بها؟

قال وهو يهز كتفيه:

لست أدري، وأنا من جانبي لم أسأله، وفي المطار ظنوا أنها لعبة من ألعاب *البلاي ستيشن*، فلم يأخذوها مني.

عدت إلى البلدة واشتريت قطعة أرض كبيرة، وبنيت دارا محترمة وأخذت أمارس حياتي الطبيعية.

لاحظت أن الناس تغيرت سلوكهم وأخلاقهم وعاداتهم كثيراً، الناس لم يعودوا يصلون الفجر! أو يستيقظون مبكراً، ساءت أخلاق الناس وقلّ الود بينهم، لم يكن لدي شيئاً لأفعله، فاكتفيت بنفسي.

في يوم من الأيام كنت أبحث عن بعض الأوراق فلاحظت النظارة الليلية فوضعتها على الدولاب لأستعملها لاحقاً، فيمَ؟ لست أدري.

المهم في ليلة من الليالي انقطع التيار الكهربائي، وأنا أبحث عن الشمع على الدولاب اصطدمت يدي بالنظارة فلبستها ووجدت الشمع وأنرت البيت.

وقتها خطر ببالي أن أصعد فوق سطح المنزل لأرى قريتنا ليلاً في الظلام الدامس فصعدت، ولأن بيتنا أعلى من البيوت المجاورة كنت أستطيع أن أكشف منطقة كبيرة.

أخذت أسلي نفسي برؤية قريتنا ليلاً، ثم فوجئت بامرأة تمشي بحذر فتتبعتها إلى أن عرفت من هي، فوجئت بها تطرق بيت أحد الجيران وتدخل، صُدمت منها ومنه، فهذه المرأة معروفة في البلدة بالعفة والطهارة، والرجل كذلك، تسمرت مكاني وأخذت أراقب البيت حتى خرجت وعادت إلى منزلها.

من هذا اليوم وما أن تنقطع الكهرباء ليلاً حتى أصعد إلى السطح وأراقب البلدة، فاكتشفت أن أشياءا كثيرة تحدث، خيانات زوجية، فتيات تجلب إلى القرية، مخدرات تباع ... إلخ

صرخت مندهشاً:

هذه الأشياء تحدث في قريتنا؟!

قال بمرارة:

نعم، للأسف البالغ لم يعد الريف كما كان من قبل، لقد تغير كثيرا إلى الأسوء، المهم؛ إذا كان تغير الناس الظاهر قد هالني كما قلت لك، فكيف تتصور ما حاق بي عندما رأيت ما يحدث ليلاً، لقد أصابني إحباط شديد وألم بالغ، وقررت أن أفعل شيئاً لإيقاف هذه المهازل ولو بالقوة.

قلت: ومن هنا ظهر السفاح.

ولكن من أين أتيت بفكرة السفاح هذه؟

عاد إلى مقعده مرة أخرى:

كنت أتكلم مع بعض الشباب المتدين في القرية –في نفس عمرنا– على ما يحدث في القرية، وكيف أن هذه المساخر ستنزل الكوارث ببلدنا.

فقال أحدهم ساخراً:

الحل في أن نفرض حظر تجوال ليلي، هذا سيحل المشاكل ويلغي هذه الأمور.

أكملنا حديثنا بشكل عادي وقد علقت هذه الكلمة بذهني، أخذت أقلب الموضوع في ذهني ثم صارحت به اثنين من أخلص الأصدقاء المتدينين، الذين تحمسوا للفكرة.

أخبرتهم بموضوع نظارة الرؤية الليلية وبفكرة السفاح، وأنهم سيقطعون لي الكهرباء، ويراقب أحدهم لي الطريق ويؤمن ظهري وأنا أتولى الباقي.

سألته بحذر:

ومن أين لك بهذه الشجاعة والقوة؟

قال بنفس المرارة:

يفترض ألا تسأل هذا السؤال أيها الطبيب النفسي، أنت تعلم أن القوة لا تنقصني بأي حال.

قلت مبتسما:

بسم الله ما شاء الله ثلاثة ثيران في بعض.

قال وهو لا يزال مطرقا:

مسألة الهدوء والمسالمة أو حتى الجبن تلغى عند أَمْنِ كشف الهوية، فالناس لا تعرف السفاح ولن تأتي في يوم لتنتقم من خالد أو من أولاده، ثم إن الإنسان يشعر بقوة عظيمة عندما يصير رجلاً خفياً، فما بالك وأنا لا تنقصني القوة.

بدأنا في تنفيذ الخطة؛ ارتديت ملابسا كنت أحتفظ بها منذ أيام الجيش، وغطيت وجهي كاملاً حتى لا تظهر النظارة الليلة، وطبعاً تركت مكاناً لأرى منه، وفي حالة الفزع لن يلاحظ المهاجَم إلا أن الرأس مغطاة.

قلت بإعجاب:

تحليل نفسي رائع.

واصل الحكي:

وقع اختيارنا على بعض الشباب المفسد، والذي سبق أن اعتدوا على بعض الأخوة في القرية ولم يحاسَبوا على ذلك، لأن كل الناس يخشون انتقامهم.

كانوا تقريبا في آخر القرية، انقطعت الكهرباء، ومع الهجوم المباغت من العبد لله ومع تغطية بمسدس مزود بكاتم صوت لُقنوا درسا لن ينسوه، مع تحذيرهم من التطاول على أهل القرية، بداهة لم يذكروا هذه النقطة.

قلت مبتسما:

مسدس مزود بكاتم صوت، أين نحن، في شيكاغو؟!

قال بأسف بالغ:

أصبح الحصول على هذه الأشياء هيناً، وخاصة لمن يعيش في القاهرة.

قلت وأنا أهرش رأسي:

أنا أعيش في القاهرة، ولا أعلم من أين ولا كيف تُشترى هذه الأشياء!

قال وهو ينظر إلى السقف: الدنيا أقبح مما تتصور، هكذا علمتني الحياة.

المهم قمنا ببعض العمليات التأديبية، وبمساعدة الزميلين نجونا من كل الكمائن التي نصبت لنا، أقصد لي.

قلت : ألم تصب ذات مرة؟

قال وهو يهز رأسه:

بتاتا.

انتبهت إلى الكلمة فقلت له:

ماذا تقصد بالعمليات التأديبية؟

قال وقد عاود النظر إلى الأرض مرة أخرى وقد اختنق صوته وأوشك على البكاء:

العمليات التأديبية هذه هي التي دفعتني إلى أن أجلس إليك هذا المجلس وأعترف لك. هل تعرف، لو اقتصر الأمر على تأديب بعض الشباب الطائش لما أحسست بتأنيب الضمير، على الرغم من أنه ليس من الصواب أن أصير قاضيا وجلادا في ذات الوقت، ولكن في بعض الأحيان تبرر الغايةُ الوسيلةَ.

ستقول لي: هذا مبدأ ميكيافيللي عفن. سأقول لك: الحياة ليست مثالية كما نتصور.

قلت له: لن أقول، أكمل، ما هي هذه العمليات التأديبية؟

قال بصوت متهدج متقطع:

لقد فضحنا بعض النساء، ليس أمام القرية ولكن أمام أزواجهن، وهذا ما أنب ضميري كثيرا، نعم هن خائنات عاهرات فاجرات، ولكن الله يحب الستر، وأنا أعرف هذا

ولست أدري ما الذي دفعني إلى فعل هذا؟ أهي نشوة القوة أم شهوة الانتقام؟ الله أعلم.

قلت وأنا أقلب شفتي امتعاضا:

تصرف خاطئ تماما، ما كنت أتصور أن يصدر منك يا خالد أنت بالذات!

قال وهو يعض على يديه وقد بدأت دموعه في التساقط:

يا ليتني لم أبدأ في هذا الأمر!

ثم انخرط في بكاء شديد ارتج معه جسده الضخم.

اشفقت عليه فقمت لأربت على كتفه.

رفع إلي عينين مغرورقتين بالدموع وقال:

ما كنت أريد إلا الإصلاح ما استطعت، كنت أريد أن يعود الناس إلى بيوتهم مبكرا، يجتمعون ويجلسون ويتحاورون مع بعضهم، يتسامرون، يسري بينهم شعور الألفة والمودة، لا أن يتسمروا أمام التلفاز، كنت أريدهم أن يناموا مبكرا ويستيقظوا مبكرا ليصلوا الفجر ويبدأوا عملهم، كما كان يفعل أباؤنا!

عاد إلى البكاء مرة أخرى وهو يكرر بصوت متقطع من أثر البكاء: يا ليتني اكتفيت بنفسي، أو اتخذت طريقا سليما للإصلاح، ليتني لم أدنس نفسي.

قلت له مواسيا بطريقة الطبيب النفسي:

هون عليك، لقد اتخذت طريقا خاطئا لفعل الخير، ولكنك في نهاية المطاف لم تفعل شيئا سيئا، على الأقل أنت كنت تظنه فعلا حسنا، هناك الكثيرون ممن يفعلون أشياءا كثيرة سيئة ابتداءا، أما أنت فلا تزال على طهرك ونقائك كما كنت في سابق عهدك.

بكى بعنف وارتمى على كتفي قائلا:

لم أعد يا أخي عامر، لم أعد.

قلت بحيرة وأنا أربت على كتفه:

**كيف ذلك، ماذا تعني؟**

**بعد أن أنهى بكاءه عاد وجلس مكانه وهو ينشف عينيه وأنفه بكم جلبابه، ثم قال وهو يتنهد:**

**لقد تدنست ووقعت في الخطيئة بسبب هذه الأفعال.**

**سألته وأنا أتحاشى النظر إليه:**

**كيف ذلك؟**

**أجابني قائلا:**

**بطبيعة الحال عندما كنت أتقمص شخصية السفاح لم أكن أخرج من دارنا بعد انقطاع الكهرباء، فهذا مدعاة للشك وقد يراني أحدهم، ثم قد يُصلح التيار وتعود الكهرباء بسرعة، لذا كان لزاما أن أخرج قبل انقطاع الكهرباء بفترة معقولة حيث أكمن في مكان ما في أطراف القرية، أجهز نفسي ثم أبدأ في الانقضاض.**

**عجبت في قرارة نفسي وإن لم يبد ذلك على وجهي، وقلت له:**

**تصرف محكم ينم عن ذكاء في التخطيط.**

**واصل الحديث بدون التفات إلى تعليقي:**

**في آخر مرة خرجت لأقوم بعملية تأديب لبعض الرجال الفاسدين، فاختبأت خلف "عشة" في أطراف البلدة، ففوجئت بشاب يتسلل إلى العشة، فعجبت من ذلك، فنظرت من ثقب من الثقوب التي تملأ العشة فوجدت شابة غير حديثة الزواج تنتظره، الحق يقال، ليس لأني لم أكن قد تنكرت بعد، لم أهجم عليهما، ولكنه الفضول، فهذه أول مرة أشاهد هذه الأمور، فجلست أتسمع ما يقولان.**

**كانت تتدلل وتتمنع منه وتقول له أنها ما أتت إلا لأن زوجها لا ينجب وأنها تريد أن تصير أما، وأنه يجب ألا يسيء فهمها وأشياءً من هذا القبيل، وهنا ضربت على الوتر الحساس.**

سألته: أي وتر حساس تقصد؟

قال وهو يتحاشى النظر إلى عيني:

شهوة ... شهوة الأبوة.

قلت في حيرة:

شهوة الأبوة، ألم تنجب؟!

قال بحسرة:

زوجي لا تنجب، وأنا أحبها حبا جما، ولا أريد أن أجرح مشاعرها بأن أتزوج عليها، ناهيك عن أن أطلقها.

قلت متفهما:

أكمل الموضوع.

قال وهو يعض على شفتيه:

ما أن سمعت هذا الكلام حتى تحركت شهوة الأبوة، وصدقني هي شهوة جارفة لمن يشعر ويعرف أنه سيحرم منها، هل تعلم أنه جاء في الكتب القديمة أخبار عن نساء كن يزنين من أجل أن يصرن أمهات.

لم أدر ماذا كان يقصد ب "الكتب القديمة"؟ هل يقصد بعض المؤلفات القديمة أم بعض كتب التراث القديمة أم بعض الكتب المقدسة لبعض الأديان؟ كلها احتمالات واردة، فلم أشغل بالي وواصلت سماع القصة.

واصل الحكاية وقد خفض صوته إلى أقل درجة ممكنة:

هاج ذلك الأب الخفي الحبيس في داخلي، وبدون مقاومة تذكر مني هزمني سريعا، فوضعت الحقيبة التي أخفي فيها عدة العمل جانبا واقتحمت العشة.

حاول الشاب الهرب ولكن ضربة واحدة كانت أكثر من كافية ليخر مغشيا عليه، ولن أطيل الوصف فلقد افترست المرأة الشابة.

وانقطع التيار الكهربائي ولم يظهر السفاح ...

وعاد السفاح إلى منزله وهو يعض على يديه ...

عاد وهو يحمل أكاليل العار وليس الغار ...

عاد بظهر محني، عاد وقد لوث رسالته بالدنس ...

عاد وهو يخشى أن يصير له ابن من السِّفاح....

صمت لحظات ثم انخرط في البكاء قائلا:

يبدو أني بشرت نفسي، سميت نفسي سفاحا فيولد لي ولد من السِّفاح.

قلت له:

اهدأ يا أخي، قد لا تحمل المرأة، وقد ...

قاطعني بانفعال:

ولو، يكفي الدنس الذي حاق بي، كنت أريد أن أصلح بطريق منحرف، فجرني الطريق غير المستقيم إلى الانحراف وإلى السقوط، يا ليتني ظللت بعيدا وما خطوت خطوة في هذا الطريق المشبوه.

قلت: إذن فقد انتهت شخصية السفاح؟

قال وهو شارد الذهن:

نعم، انتهت ولكنه سيظل في ذاكرة أهل القرية، وسيحكون هذه القصة لأولادهم، ولن يصدق الأبناء ما يحكيه الآباء وسيحسبونه خرفا وقصص عجائز.

قلت وأنا أنظر إليه نظرة احترام بالغة:

عجيب فعلك يا خالد، تريد أن تجبر الناس على فعل الخير، الخير لا ينبع إلا من داخل الإنسان ولا يمكن إجباره عليه.

قال بعصبية وهو يجفف دموعه:

**أنا لست أحمقا، أنا لم أرد إجبار الناس على فعل الخير، فأنا أعلم أنه لا فائدة ولا ثواب فيه إذا لم يكن رغبة ذاتية للإنسان، وإنما أردت منع الناس من فعل الشر وتأديب بعض المتجبرين العالين في الأرض، أقصد في قريتي، فهذا ما أستطيع.**

**قلت ناصحا:**

**يا أخي، هذا ليس من شأنك هذا من شأن أولي الأمر، أما أنت فأصلح نفسك وادع الناس إلى فعل الخير وترك الشر بلسانك، لا بيدك وعصاك .**

**قال متنهدا:**

**إني أشعر بندم شديد على فضحي بعض النساء، وطبعا على جريمة الزنا والتي أرجو أن لا يجعل الله منها ولدا.**

**قلت له مطمئنا ومهدئا:**

**بإذن الله لن يكون منها ولد، وبإذن الله ندمك هذا كاف لأن يغفر الله لك، وخاصة إذا أكثرت من فعل الخيرات.**

**قال مهمهما:**

**سأفعل، سأفعل بإذن الله، ولكن لدي سؤال أريد أن أطرحه عليك، فأنا محتار فيه كثيرا.**

**قلت مبتسما:**

**تفضل يا خالد!**

**قال بحذر:**

**أرجوا أن لا تسيء فهمي وأن تفهم سؤالي فهما صحيحا.**

**شعرت أن الفأر والقط وحيوانات كثيرة بدأت تعبث في صدري، فقلت له بحذر: أعتقد أنني يمكنني أن أستنتج هذا السؤال.**

**قال متحيرا:**

**من الصعب ذلك، ولكن حاول، ولم لا؟!**

قلت وأنا أطيل النظر إليه:

أنت تريد أن تسألني إذا كنت بهذا السلوك "شاذا" أم لا؟

اتسعت عيناه اتساعا فظيعا وتدلى فكه وارتمى على الأريكة، ثم قال في دهشة:

لم أكن أعلم أن التحليل النفسي قد تقدم إلى هذه الدرجة!

****

قلت: إذا فهذا الرجل يعد نفسه بسلوكه هذا شاذا أيضا؟

قال وقد قام وأخذ يتجول في الغرفة:

نعم يعتبر أن سلوكه غير طبيعي.

سألته: وبما أجبته؟

أجاب قائلا:

أفهمته أن سلوكه شاذ، ولكنه شذوذ من النوع غير الخبيث.

ولكن على أي حال فالغالب في الشذوذ ألا يكون نافعا، لذا فمن الصالح أن يلتزم الإنسان الطريق الصحيحة المباشرة للإصلاح.

قلت: إذا كان هذا الرجل قد تحول بإرادته إلى سفاح من أجل أن يصلح بعض الفساد الذي ظهر في قريته، فنحن بحاجة إلى جيش من السفاحين والقتلة حتى ينصلح الفساد وخاصة في مدينة مثل القاهرة، حيث انحدرت فيها الأخلاق إلى مستوى وطيء وانعدمت فيها الروحانيات أو كادت، و ...

قاطعني قائلا:

انحدرت فيها الأخلاق إلى مستوى بشع، نعم، أما الروحانيات فأجزم أن بها آثارة لم تنطفأ بعد.

**قلت متفهما ومؤكدا:**

**حتما ستوجد آثارة، ولكنها كما قلت "آثارة"، شيء نادر في المجتمع.**

**قال بكل هدوء:**

**ولكنه تضخم بطريقة عجيبة عند بعضهم، عجيبة جدا جدا وهذا هو الشاذ التالي، ذلك الشاذ الروحاني.**

**قلت باستغراب:**

**شاذ روحاني؟!**

**قال وهو يرتجف رجفة خفيفة:**

**نعم، اسمع حكايتي مع عمر، والذي كان يحبه كثيرا ... كثيرا.**

**قلت في حيرة:**

**يحب من؟**

**قال في غموض:**

**اسمع لتعرف حكايته معه.**

# هو و.. هو

مرت الأيام سريعا وأخذت أعد حقيبتي بأيد متثاقلة، فها هي أيام الراحة، قد انتهت، وها أنا ذا عائد إلى القاهرة، حيث الدخان والزحام، ولكن ما باليد حيلة. عدت واسترحت يوما واحدا، ورجعت إلى العيادة، حيث العمل .. والشواذ!

وسريعا أتى الشواذ، ففي أول يوم جاء أحدهم! تصور أغيب أسبوعا كاملا، وأعود فيأتون في أول يوم! يبدو أن رائحتي جد مثيرة للشواذ، أو أني أصبحت مغناطيسا محترما!

في ذلك اليوم كان العدد كبيرا، وهذا ليس مألوفا في عياداتنا، ولكن كان هذا بسبب الإغلاق لأسبوع!

أنهيت جلساتي مع الزبائن، ولم يبق إلا الزبون الأخير، وكالعادة كان هو .. هو.

كان اسمه عمر، كما قلت لك، شاب في الرابعة والثلاثين من العمر، متأنق بشكل ملحوظ، وسيم إلى حد معقول، يُهيأ لي أني شممت رائحة عطر قبل أن يدخل غرفتي يفيح عطره في كل مكان.

ما أن رأيته حتى أخذت انطباعا أنه واحد من أولئك المرفهين، الذين لا همّ لهم في الحياة إلا التفاهات ومطاردة الفتيات. توقعت أنه سيحكي لي كيف أن سوسو أو توتو كسرت قلبه أو خدعته، فسببت له أزمة نفسية حادة، وهو لا يعرف كيف يتجاوز هذه المشكلة العويصة. لم أرد أن انجرف وراء هذه الأفكار فلربما كان لديه مشاكل أُخر.

أكملت أخذ بياناته، دهشت عندما علمت أنه موظف عادي في مصلحة حكومية، استفسرت منه عن ثروات أو تركات أو شيء من هذا القبيل، فقال بابتسامة جذابة هادئة:

كان لدي الكثير ولكن تبرعت به.

بعد القليل من التمهيد طرحت عليه السؤال التقليدي:

ما هي مشكلتك إذن يا سيدي الفاضل؟

نظر إلي نظرة مترددة، ثم قال بصوت أكثر ترددا:

لست أدري كيف أبدأ الموضوع .... لست أدري هل كان من الصواب أن آتي إليك أيضا، أم كان من المفترض أن أذهب إلى مكان آخر؟ .... عامة سأقول لك ما هي مشكلتي ولكن أرجو ألا تسيء فهمي.

شعرت أن الدم يكاد ينفجر في رأسي من شدة اندفاعه، لا يكاد يمر يوم حتى يأتيني من يعد نفسه من الشواذ، وهو بالتأكيد ليس شاذا ولكن له وجهة نظر شاذة، تسيطر عليه لذا يعد نفسه شاذا.

سألته بحذر:

هل ... هل للأمر علاقة بالشذوذ؟

اتسعت عيناه بشدة، ونظر إلي نظرة اندهاش، وقال:

لا بتاتا، ليس له أي علاقة بالشذوذ، من أوحي إليك بهذة الفكرة؟!

ثم سألني باستنكار شديد:

هل أبدو شاذا؟!

ابتسمت ابتسامة راحة أزاحت الكثير والكثير من توتري واستنكاره، وقلت:

لا، أبدا. كان هذا سؤالا عابرا له بعض الأسباب المتعلقة بي أنا، وليس له علاقة بك بتاتا، أرجو ألا تغضب مني وتأخذ الأمر على محمل شخصي، لا تتردد مهما كانت المشكلة، إروها وستجد بإذن الله حلا لمشكلتك وراحة لبالك!

همهم قائلا:

على الرغم من ميلي إلى عدم وجود تفسير لما أعانيه إلا ما سأرويه لك، ولكن لا بأس، بما أني قد أتيت أحكي، فسأروي لك.

قلت متفهما:

ستجد مني إن شاء الله قلبا منصتا وعقلا واعيا.

قال بكل هدوء وبصوت يعطيك شعورا بالطمأنينة:

بادئ ذي بدء لا بد أن أنبهك إلى أني لا أعاني من أي مشكلة أو اضطراب نفسي بأي حال من الأحوال، وما كان لي أن أصاب بأي مشكلة في يوم من الأيام، لا أنا ولا أمثالي.

قلت في هدوء من يتوقع مثل هذا الكلام:

ولم لا ينبغي؟ ما الذي تختلف فيه أنت وأمثالك عن الآخرين، حتى لا يمكن أن تصاب باضطراب نفسي؟

قال بهدوء أكثر مليء بالثقة:

السبب بسيط، لقد وصلنا إلى مرحلة من الهدوء والاستقرار النفسي الروحي الجسدي، لا تحلمون أنتم معاشر أطباء النفس، –ومعذرة، النفس التي لم تكتشفوا إلا قشورها، أما هي نفسها فلا تعرفوها البتة– درجة لا تحلمون بالوصول إلى معشارها في يوم من الأيام، لذا لا ينبغي أن أقع في أي مأزق أو اضطراب نفسي.

ابتلعت الإهانة على مضض وقلت بصوت ظل محتفظا بهدوئه:

إذن قص لأستفيد من خبراتك أو خبراتكم في مجال النفس، فلربما نفعتني وأفدتني عند علاج بعض المرضى المستعصين.

نظر إلى نظرة جانبية ثم قال:

ما أتيت هنا لأعلم، بل أنا عالم أنه ما من حل عندكم ولكنه خداع النفس، والغريق يتعلق بقشة حتى ولو علم أنها قشة غير ناجعة.

قلت وأنا أحاول أن أحتفظ بهدوئي:

بغض النظر، أنا لم أقصد أن تعلمني، ولكن أنا أريد أن أعلم سريعا كيف وصلت إلى هذا الهدوء النفسي؟

**قال: على الرغم من أنه عين السؤال، ولكن لا بأس من إجابته. وعلى الرغم من أن الحديث حول هذا سيستغرق وقتا طويلا، إلا أنه جد مفيد لربط عناصر الموضوع ببعض، لذا فإنه حَتَّمَ إجراء تمهيد للموضوع حتى نستطيع أن نصل إلى لبه.**

**قلت له: عين الصواب، تفضل!**

**قال بصوت واثق قوي:**

**أنا صوفي.**

**نظرت إليه نظرة جاهدت فيها نفسي، لكي أمنع منها معنى الاستخفاف، إذن فهو من أتباع طريقة صوفية، تدمن "التفقير"، ويظن نفسه بذلك من أولياء الله الصالحين، فقلت له بطريقة *روتينية*:**

**تشرفنا.**

**قال بنفس الصوت الواثق:**

**لا، لا ينصرف ذهنك إلى ما انصرف إليه، ليس لي أية علاقة *بالتفقير* أو الخرافات أو التمسح بالأولياء، هذا يفعله الآخرون، أما نحن فلا نقدس إلا الله الملك. الآخرون يغالون في النبي وآله، أما نحن فنذوب عشقا فعلا في الملك الرحمن، نقطع المفاوز من أجل قرب هو قريب، قرب ينتظر المريد.**

**قلت: معذرة، أنا لست متمكنا من العلم الديني، ولكن يُهيؤ لي أن كل الفرق الصوفية تدعي أنها غير الآخرين، وأنها متمسكة بالكتاب والسنة.**

**قال بذات الهدوء:**

**أولا: أنا لا أكذب،**

**ثانيا: نحن الفرقة الوحيدة فعلا التي ليس لديها أي تجاوزات، لأننا ببساطة ليس لدينا أي أولياء ولا نتقرب حتى بالرسول ذاته، الله قريب ونحن نذكره، فنزداد قربا وأنسا وحبا وعشقا.**

قلت: لا عليك، أكمل حتى نصل إلى المشكلة!

قال: كنت إنسانا عاديا إلى أن عزمت أن أتصوف، ولا تسلني لم، فلقد كان لدي من الأسباب ما يكفيني، وفي نفس الوقت لم أكن أتصور أبدا أن أصل إلى هذه المرحلة المذهلة من القرب والأنس بالله الواحد.

المهم ترقيت وبحمد الله سريعا، وكله بفضل الرب وليس بفعل العبد، فهو الذي غرس فيَّ هذا الميل والشوق، كثيرون محرومون منه، ويتمتعون بأشواك، لو يعلمون!

ظهرت ابتسامة ساخرة كبيرة ملأت وجهه، ما لبثت أن انقلبت إلى ضحكة كبيرة، ما لبثت أن تحولت إلى مسحة حزن كست وجهه، وهو يقول:

الناس على العذاب يتقاتلون ومن أجل الشقاء يسعون، وإلى البؤس أنفسهم يقودون، عن النعيم معرضون، في الضنك مقيمون ولأنفسهم واهمون، وآه آه لو يعلمون!

هل تعلم: قديما قالوا: "لو يعلم السلاطين ما نحن فيه من هناء لقاتلونا عليه بالسيوف"، وأنا أقول:

"لو شعر الناس بما نحن فيه من لذة وهناء لتبعونا بالألوف".

قلت وقد بدأت القشعريرة تغزو ظهري:

أكمل، لم تظهر أي مشكلة بعد!

قال وهو ينظر إلى السقف:

بحمد الله ازددت منه قربا وحبا، فتهاوت أمامي أوثان الدنيا ووصلت إلى ما لا تصفه الكلمات، ولا يكون إلا مع المحبوب، ما لا نذكره وإنما نشعره، كل له سره ولا يبوح به إلا له.

التفت إلي وقال بجد:

هل سمعت عن "حيض الرجال"؟

قلت بحيرة ساخرة:

**لا، ولا عن بيض الديوك.**

**قال بابتسامة صافية، لا يبدو فيها أثر ضيق:**

**كما يحلو لك، المهم بحمد الله قطعت الدرجات وأدمنت الذكر فحصل المراد، وحتى لا أطيل في وصف الكلام، عشت في جنتي فترة من الزمان لا يعلمها إلا علام الغيوب ثم طُردت.**

**كنت كثيرا ما أسمع عن الشطحات الصوفية، وها أنا ذا أواجه من يدعي أنه معتدل ملتزم، فكيف بأصحاب الشطحات! فسألته بحيرة:**

**أي جنة، ولم طُردت؟**

**قال بصوت يحمل نبرة حزينة:**

**جنة الذكر والحب والأنس، جنة يرفضها ويرفسها البشر، بحثت عنها حتى أنعم الله علي بها، لم أجدها أنا ولكن الله وهبنيها.**

**سألته: ولم طُردت إذن، وكيف؟**

**قال بمرارة:**

**فعلت فعل إبليس.**

**قلت بصوت زادت حيرته:**

**هل رفضت الانصياع وعصيت الأمر؟!**

**قال وقد بدأت عينيه تلتمعان من دموع بدأت تلوح في مقلتيه:**

**لم يكن عقاب إبليس أساسا لعصيانه وإنما لكبره الذي أدى إلى عصيانه، وأنا فيما يبدو، لا... ليس فيما يبدو، لقد تكبرت فعلا، داخلني الكبر وخالطتني الخيلاء، فابتُليت بأكبر عقاب سمعت به البشرية جمعاء، عذاب يهون بجواره عذاب النار وفقدان الدار، وضياع المال وهلاك العيال.**

**ازدادت الحيرة المختلطة بالقشعريرة، فسألته:**

وما هو هذا العذاب الشديد؟

انخرط فجأة في بكاء شديد –استمر سبع دقائق متواصلات–، ولم يقتصر الأمر على البكاء، فلقد فوجئت به يتشنج ويسقط في الأرض، حاولت أن أهدأه أو أمنعه، ولكن ما من فائدة.

وجدته يبكي وينتحب، يخبط رأسه في الأرض، يعض على يديه وشفتيه، تنثني أجزاء جسده بطريقة عجيبة، يصرخ ويصرخ ويصرخ، يلطم نفسه.

وعلى الرغم من أني نجحت في إعطائه حقنة مهدئة كفيلة بتهدئته وإنامته، إلا أن الثورة استمرت بعد ذلك أربع دقائق كاملة.

وبعد عاصفة السبع دقائق عاد إلى كرسيه، وقال وهو يعض على يديه فعلا:

آه .. آه عقابي شديد، عذابي أليم، ويلي مما حاق بي، لعن الله الكبر والمتكبرين.

قلت وأنا ألهث:

إذا كان الأمر يسبب لك كل هذا الألم، يمكنك ألا تحكيه أو تذكره.

قال بصوت متهدج: أنا لم آت إلى هنا لأصمت، لا بد من الاعتراف.

قلت في ألم لألمه:

إذن قص لنعرف!

قال وقد بدأ يبكي بكاءا خفيفا:

أنا .... أنا .... أنا لا أستطيع أن أذكر الله تعالى.

ثم عاد إلى نفس النوبة الجنونية من البكاء والضرب واللطم والصراخ.

وللمرة الثانية لم تفلح الحقنة الثانية، واستمرت النوبة ويا للعجب سبع دقائق كاملات مثل الأولى، ثم هدأ.

تعجبت وسألت نفسي:

**هل يتعاطى هذا الرجل مخدرا ما، حتى أن حقنتين كاملتين لا تؤثران فيه؟!**

**هدأت ثورته واستمر في بكاء خفيف متقطع، وقفت أمامه في حيرة تامة، ماذا أفعل مع مثل هذا الرجل؟**

**مثل هذه الحالة لم تخطر يوما ببال جهابذة الطب النفسي، لم يوردها مرجع، ما سمعنا عن شبيه لها! ماذا أفعل؟ العجز يغلفني من كل جانب.**

**ولكن لماذا الضيق، لماذا لا ترى الجانب الإيجابي؟ أليست فرصة نادرة لأرى وأجرب ما لم يره الآخرون؟**

**قلت له وأنا أنظر مباشرة إلى عينه:**

**هل يمكن أن أعرف الطريقة؟**

**قال بصوت متهدج يحمل نبرات الحيرة:**

**أي طريقة تقصد ؟**

**قلت: كيف لا تستطيع ... لا تستطيع ...؟**

**لم أرد أن أذكر الجملة حتى لا تعاوده الحالة مرة أخرى، هز رأسه متفهما وقال: إني ليحزنني أن أفضح سري ولكن لا بد من التنفيس وإلا سأنفجر.**

**أدركت أن هذا الرجل صادق فيما يقول، فهذا رجل استولى العشق على جسده وكيانه وعقله وروحه ونفسه بطريقة لم أسمع بها أو أرها من قبل. فقلت له: قص وأنت مطمئن، فسرك في بئر لا قاع لها.**

**قال وجسده ينتفض انتفاضات متلاحقة:**

**أنت تعلم أن الله هو قدس الأقداس؟**

**سألته بحذر:**

**هل تقصد أنه الأكثر قداسة؟**

**قال في ضيق:**

على الرغم من أنه لا مقدس إلا هو، ولكن نعم، هذا ما أقصده، الله هو الأكثر قداسة والوحيد المستحق للتقديس.

قلت: جميل جدا، الله قدوس، ماذا بعد؟

قال وهو لا يزال ينتفض:

ابتُليت بقداسة الله.

قلت بحيرة شديدة:

ماذا تعني بقولك هذا؟

قال: لكي تصل إلى التقديس التام لله تعالى لا بد من النزع التام لأي قداسة بجواره، لكي يظل هو القدوس الوحيد، والحمد لله كنت في الطريق، فنزعت بعناء قداسة الأوثان من نفسي، وظللت أقدس الله وأذكر الله حتى داخلني الكبر فانتكست أكبر انتكاسة أُصيب بها إنسان.

قلت بصوت حاولت أن أجعله هادئا، إلا أنه خرج مرتجفا:

ما هي هذه الانتكاسة، ومن فضلك بدون تشنج؟

قال وقد بدأ يبكي ولكن بدون تشنج:

لقد جدّفت نفسي.

اتسعت عيناي بشدة وقلت:

هل تقصد ... هل تقصد ...؟!

انفعل بشدة وصرخ قائلا:

لا، لا، ليس إلى هذه الدرجة، كل ما هنالك أنني لا أستطيع ذكر الله بسبب الخواطر.

قلت وأنا لا أزال غارقا في حيرتي:

أي خواطر؟

قال وقد التصقت رأسه بصدره وثبتت عيناه في الأرض:

خواطرٌ شواذ، أصبحت تقفز إلى ذهني، كلما أفكر في الحبيب فأخنس عن ذكره، لست أدري من أين أتت هذه الخواطر الشواذ، ولكن ارتباطها بذكر اللطيف أحال حياتي جحيما، تصور أنك محروم من ذكر الحبيب.

أنا والحمد لله لم أجدف وإلا لربما كنت نحرت نفسي. ولكن أن تقفز هذه الخواطر الشواذ إلى رأسك كلما حاولت ذكر الله لا يعني بالنسبة لي إلا معنى واحد وهو أن قداسة الله في نفسي لم تعد كما كانت من قبل. ......

لا لم أدنسها هي ولكن هناك اختلال في نفسي، قداسة الله، حاجتي الأساسية في الحياة حُجبت عني، تصور أن تحجب عنك حاجتك الأساسية في الحياة، تقديس الله، تبجيل الله، ذكر الله، يا الله! لا أستطيع أن أقدس الله، ويلي ... سيحترق جسدي، ويضطرم قلبي وتلعن نفسي، ويحي ما الذي حاق بي؟! يااااا الله ...... يا قدوس!

أنهى الكلمة وعاودته النوبة هذه المرة بطريقة أعنف، صرخت بالممرض، لم يرد، يبدو أنه قد انصرف، ماذا أفعل؟ هذا الرجل سيحطم المكتب قبل أن يحطم نفسه. لم أجد أمامي إلا الانتظار، سبع دقائق ستنقضي ويسكن. وما أطولها من سبع دقائق، عندما يُكتب عليك أن ترى إنسانا يتعذب!

ولكن لماذا أنظر إليه؟! أشحت وجهي وحاولت أن أسد أذني لكي لا أسمعه يتألم!

وبالفعل عاد إليه سكونه بعد السبع دقائق، وواصل حديثه كأنه لم يفعل شيئا، فقال وهو يمسح أنفه بكمه:

هل لديك تفسير يا سيدي لخواطر تخطر ببال إنسان، لم يخطر بباله يوما أن تخطر بباله مثل هذه الخواطر الشواذ، التي لا أساس لها في عقله، خواطر لم تراوده بأي حال من الأحوال، باختصار لا انعكاس لها في العقل الباطن؟!

وقفت حائرا بلا رد، ثم لم أجد بُدا إلا أن أقول له:

لا، ليس لدي تفسير، سوى أنك حالة شاذة سيطر عليها الحب الإلهي الذي كنت أسمع وأقرأ عنه ولم أقابل مثله في حياتي، فأصبحت تؤلم نفسها وتعذبها على ما اقترفته.

قال بهدوء:

هذا توصيف جيد للحالة وأنا أعرفه، أنت لم تقل لي: كيف قفزت هذه الخواطر إلى ذهني؟

قلت بصوت حاولت أن أنزع منه نبرة الحيرة:

لا أجد تفسيرا لما تقول، إلا أن أقول أنها حالة تفلت مؤقت للسيطرة على العقل، نجم عنه هذا الاختلال، أو أنها كما تقول نوع من العقاب الإلهي على كبر ما كان لأمثالك أن يقترفونه.

قال بمرارة:

وبطبيعة الحال لا ينبغي أن أنتظر العلاج عندك؟

قلت بمرارة أكبر:

لا عندي ولا عندي أمثالي، سيدي الفاضل، نحن الذين نحتاج العلاج عند أمثالكم، صدقني قد أزورك قريبا طلبا للعلاج الروحاني.

واصل الحديث كأنه لم يسمعني:

ابتلاء القداسة أشد ابتلاء يمر به الإنسان، تصور أن ينخلع أهم محور تدور حوله حياتك وتسقط إحدى حاجياتك الأساسية، كيف تكون الحياة؟

رددت سؤاله بسؤال: وما هي حاجياتك الأساسية إذن؟

قال بهدوء:

حاجياتي الأساسية هي نفس حاجيات الناس الأساسية، ولكن يختلف ترتيب كل منا لأولوياته ومساحتها في ذاته.

قلت بفضول علمي مصحوب بقشعريرة قلبية:

أخبرني بها إذن!

رد بعد أن عاد اللون الطبيعي إلى وجهه:

تأتي القداسة على القمة ثم الطعام ثم الأمن، ثلاث حاجيات أساسية لا غير.

قلت متسائلا: ألا يدخل فيها الجنس والحفاظ على النوع؟

قال بصوت واثق:

لا، لا يدخل فيها، هذه حاجيات متفرعة عن الحاجات الأساسية، فالإنسان يمكنه أن يحيا بلا جنس، أما إذا لم يأمن في ذاته فلن يفكر أو يخطر بباله شيء اسمه الحفاظ على النوع.

فتحت وجهة النظر هذه شهيتي للنقاش فقلت:

بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا حول هذه النقاط، ألا تشعر أن مسألة القداسة هذه غير أساسية بالنسبة لكثير من المؤمنين بالإله، ناهيك عن الملاحدة الذين ينفون الإله تماما؟

نظر إلي نظرة اندهاش، لم تلبث أن تحولت إلى نظرة ساخرة، أتبعها بضحكة طويلة جدا، شعرت معها وبها أنني أفضل مهرج في العالم، وما أن انتهت الضحكة حتى ظهرت نظرة شفقة واضحة في عينيه، شعرت معها أنني متسول كبير أو طفل عاجز صغير، ولم يلبث أن قال لي:

لست أدري أهذا استدراج منك لي لتسمع إجابتي، وهذا ما أتوقعه أم أنك – معذرة– أحمق ومغفل كبير؟

قلت بابتسامة هادئة تداري ما بداخلي:

اعتبرها ما يحلو لك وضعها تحت أي اسم، المهم أن تجيب على السؤال.

قال بعد أن عدل من وضعه:

القداسة أستاذي العزيز هي محور حياة الإنسان، مؤمنا كان أو ملحدا وبلا قداسة لن تستمر الحياة.

وفجأة انفعل وارتفع صوته وقال:

لقد انتبه أعداؤنا من الذئاب أرباب المال إلى هذه الحقيقة الجلية جلاء الرب، فلعبوا على أوتارها خير ملعبة وحجبوها عن الناس، فغلفوا كل سعي في الحياة بغلاف براق يدعي أنه مقدس، ولذلك تحرك الناس نحوه ولولا هذا الغلاف ما تحرك أحد قدر أنملة ولأضحى البشر بقرا!

نصبوا للناس أوثانا عديدة وقالوا هذه مقدسات. ثم غالطوا أنفسهم فقالوا: لا، لا تُعبد ولكنها مقدسة. فانخدع الناس واتبعوها، ظانين أنهم لا يعبدونها ولكنهم حقيقة ليل نهار لها ساجدون، أمامها خاضعون، لها مبجلون، من أجلها مندفعون، عن حرمها مدافعون، لفدائها أنفسهم باذلون، وعندما يناديهم رب الأقداس يولون عنه مدبرين معرضين.

توقف قليلا ليلتقط أنفاسه، ثم قال بلكنة ساخرة:

هل تعلم أن الجميع وراء "لاشيء" يعدون؟

قبل أن أفتح فمي لأرد، واصل حديثه قائلا:

قليل جدا –ممن أنعم ومنّ الله عليهم بفضله– هم من يلاحظون أنهم يعدون ومقيدون بأغلال ثقال، وأنا والحمد لله كنت من هؤلاء الذين انتبهوا إلى عدْوهم وعدُوّهم، فتوقفت لأسأل: لماذا أعدو؟ ما هذه الأغلال التي تحيط بي من رأسي إلى أسفل قدمي؟

حاولت أن أتوقف، لم أستطع، وجدت الناس يعدون فيدفعونني معهم، استوقفت أحدهم لأسأله: لماذا نجري؟ قال لاهثا وهو يعدو بدون أن يتوقف: لقد سبقني الآخرون ولا بد أن أدركهم وإلا أصبحت في المؤخرة.

سألته بحيرة: مؤخرة ماذا؟ ما هذا السباق من الأساس؟ لماذا نجري؟ ما الذي سنخسره؟

أجابني بضيق: دعني حتى لا أتأخر وأخسر.

تركته والناس لا يزالون يدفعونني أمامهم وأنا أتساءل:

ما هذا الطريق ولم هذا العدو ولم كل هذا العرق ولم هذا اللهاث؟ لم يجبني أحد، قررت أن أترك الطريق وأقف لأتفرج وأشاهد وأرى وأفكر، كان من الصعب أن أخترق الطريق ولكن في النهاية نجحت ووقفت لأنظر، إلى ما يعدو هؤلاء. وجدت في نهاية الطريق أوثانا مغلفة بالقداسة، أوثان متعددة، أوثان كثيرة متهاوية، قبيحة الشكل، أوثان ولكنها مغلفة بغلاف من القداسة وغير القداسة في نفس الوقت، وكل الناس إلا من رحم ربي إليها يعدون، بمعنى أدق إليها يُساقون، بعصي من الحلوى وبسياط من السكر وأغلال من العسل، ويظنون أنهم في النعيم غارقون أو إليه متجهون.

قررت أن أدير وجهي الناحية الأخرى فوجدته هناك ..... وجدته هناك .... يدعو الناس والناس لآذانهم صامون، لأهوائهم مؤلهون وبكل عِنِدٍ مصرون أنه هناك في الناحية الأخرى، على الرغم من أنه بكل وضوح ليس موجودا هناك، إنه هنا ظاهر جلي واضح متجل، لمن يدير رأسه، ولكن الناس لا يريدون.

لذا أدرت رأسي وجسدي وكياني، واتجهت إلى القدوس الحقيقي، نزعت كل القداسات الأخرى التي تعلقت بجسدي ونبشت أظفارها في لحمي وعظمي ودمي. وبكل ألم وبفضل الله نزعت كل المقدسات، حتى استقام لي قدوس واحد لا شريك له.

وبعد فترة اكتشفت أنني لست كما أظن وأن القداسة ليست كما ينبغي بداخلي، لا يزال أمامي الكثير، فأكبر وثن لا يزال كامنا، ينتظر ليثب، وما أن حانت اللحظة المناسبة حتى وثب واستحوذ وأدلى ساقيه.

قلت بعد بعض لحظات من التأمل والتفكر:

تنظير جميل، ولكن أين المقابل على أرض الواقع؟ أين القداسات المؤلهة؟

قال بحنق واضح:

المشكلة أنها أوضح ما تكون، والناس يؤلهونها ثم يعودون فينكرون تأليهها، ويدّعون أنهم يؤلهونه هو ويقدسونه، ولكن الواقع يعرّيهم ويكذبهم أشد تكذيب، أنت تطلب أمثلة على ذلك، أليس كذلك؟

قلت بهدوء:

نعم، فقط بعض أمثلة.

قال وقد انخفضت نبرة الحنق في صوته:

الأمر أوضح مما يكون وسأعطيك أمثلة كثيرة واضحة لكل أعمى، خذ هذه الأمثلة الواضحات، ولكن قبل الأمثلة لا بد من بعض الاستفسارات، حتى نتفق على المداليل.

قلت: تفضل استفسر كما يحلو لك.

قال: لو قلت لك أن في هذا الطريق حفر؛ في المكان س وص، ثم سقطت أنت فيها، هل تكون صدقتني؟

أجبته: بداهة لا، أنا لم أصدقك، أو صدقتك وأنا مجنون!

قال مبتسما:

جيد جدا، ولو قلت أنني أحبك ولكني لا أسهر أفكر فيك، وإذا غبت عني لا أفتقدك، هل أكون أحبك حقا؟

أجبت وأنا أهز رأسي:

قطعا، لا، أنت كاذب.

انقلبت الابتسامة إلى مرارة، وهو يقول:

كم من البشر يفكرون ويتذكرون الله؟ المهم حتى لا نحيد عن موضوعنا، اسمع هذا الكم من المقدسات، والتي هي غير مقدسة ابتداءا ولا تستحق أن يشغل الإنسان لها أو بها بالا، ولست أدري أجُن الناس أم ماذا؟ المهم، خذ هذا السيل من المقدسات:

الرياضة، المرأة، المال، المنصب، الحزب، العادات والتقاليد، النظريات غير العلمية، الحرية المزعومة، الآباء والأجداد، البروتوكولات، الأغاني، التقليد، الأفلام، القوالب المصبوبة، الرموز، الوطن، علم الوطن، ..

قاطعته قائلا:

حسبك، حسبك، ما هذا الأشياء من المقدسات، قد يكون اثنان أو ثلاثة منها، أمّا كل هذا فلا، أنت تخلط بين ...

قاطعني بهدوء حازم:

اسمع لتعرف ولا تتعامى مثل الآخرين، ولا تنس ما اتفقنا عليه قبل السرد، الأمر جد واضح، كل ما يصير غاية لذاته هو مقدس، عندي الله فقط هو الغاية، أما عندهم فجعلوها غايات كثيرة لذاتها وبذلك قدسوها ونسوا الله.

جذب الموضوع اهتمامي بشدة وأثارني، فقلت:

وضح لي إذن!

قال بحزن:

ليست العبرة يا سيدي بما يقوله الناس، العبرة بما يفعلونه، فهذا يعكس بواطنهم ودواخلهم، لا تتوقع أن يسجد الناس للمرأة أو للكرة مثلا، ولكن أفعالهم تدل على أنها مقدسة عندهم، وبداهة لن يتساوى الناس في مقدساتهم، فعند بعض الناس يقدمون الكرة مثلا، على الرغم من أنهم لا يقربونها، عند الآخرين المرأة هي الشغل الشاغل، عند أُخر ممثلو السينما هم قدسهم الأقدس ولولا الملامة لسجدوا لهم.

لقد لعب الغربيون على هذا الوتر خير لعب، أوهموا الناس وقالوا لهم:

**أنتم أحرار، افعلوا كل ما يحلوا لكم، لن يقف عائق أمامكم، دعكم من الدين وتحكماته، دعكم من الخرافات!**

**فأقنعوهم أن يلقوا مقدسات الدين خلف ظهورهم واتخذوها سِخريا. ولما كان البشر لا يستطيعون العيش بدون مقدس، خلقوا لهم مقدسات أرضية يلهثون وراءها، يقلدون الممثل الفلاني بغض النظر عن عقلانية ما يفعله، ثم يقول بعض العالة: "الدين لا عقلانية به"، يصرخون لأنهم رأوا الممثلة الفلانية ويريدون فقط أن يمسوها، فقط يلمسونها، أو قطعة ثياب يأخذونها، بالله عليك:**

**ما الفارق بين ما يفعله الغربيون المتحضرون –زروا وبهتانا– وبين ما يفعله عامة الناس عندما يطلبون البركة من إنسان صالح أو عند التمسح بالقبر؟! قدموا لهم نماذج وقالوا لهم: هذه هي غاية حياتكم، كيف لا تتمتعين سيدتي بقوام ممشوق؟ ماذا؟ ثدياك صغيران، كيف ستواجهين المجتمع؟! أما علمت أن شخصيتك تكمن في ثدييك؟**

**ماذا؟ هناك بعض الدهون في جسدك؟ يا للهول، هذا سيصرف المعجبين عنك! أما علمت أنك جسد، فقط جسد، حسنّي جسدك ليجذب إليك الذباب .. الذئاب، معذرة "الذكور"، نقصد: لتنالي إعجاب الناس! انظري كم أنت بعيدة كل البعد عن الممثلة الفلانية التي تدير رؤوس الفحول، معذرة: الرجال.**

**وتنهمك المرأة في سعيها إلى وهمها ووهمهم، وهي لا تشعر أنها تُستنزف في هدف لن تصل إليه أبدا، فالأخرى لها فريق إعداد، أما المسكينة ف ...**

**ثم يلتفتون إلى الرجل: هدفك أن تصير مصيدة للنساء، وكيف تجعل النساء يقعن في حبائلك، الحياة جميلة، لا تكن أحمقا، النساء في كل مكان .... وسواء وصل إليهن أم لم يصل فهو في ندامة.**

**لا، لا، نساء، أي نساء، هذه شهوانية محضة، اشغل نفسك في رياضة مهمة حتى تفيد نفسك وتحسن صحتك، ولا بأس من أن تصبح بطل العالم، فيطلقونك مثل الثور**

الهائج تسابق هذا وتضرب ذاك، المهم أن تكسر الرقم القديم وتأتي بالجديد، واطمئن فستصير مقدسا، ستصير معبود الجماهير!!

في نهاية المطاف ستصل بالاستقامة والرياضة إلى ما يصبوا إليه الآخرون، ستأتيك الشهرة والنساء والمال وكل ما تصبوا إليه. وبهذا يصبح هدف الإنسان مجرد رقم يحطمه أو يخترقه أو وزن يزيده، المهم أن يتعدى الآخرين، فالسباق منصوب، وويل للمنسحب!

ماذا استفادت البشرية من هؤلاء المتسابقين؟ لا شيء، يذهب بعض الكسالى ليشجعوا ويدفعوا أموالهم، فيأخذها المنظمون وبها يغنمون، ويتقاتل الناس على فرقهم ويتفرقوا، حتى يكاد يصدر قانون يطالب بوضع الفريق الذي يشجعه المرء في البطاقة الشخصية!

وينقسم الناس إلى أبيض وأحمر، وعلى ذلك يتناحرون، ومن أجل فرقهم يتنابذون وخلفها بمئات الآلاف يزحفون وللمال ببذخ ينفقون، ثم ماذا أفاد هؤلاء أو استفاد أولئك؟ لا شيء يذكر، لحظات من اللهو والتوتر.

يضعون أمامك نجوما مطموسة ممسوخة، ويقولون لك: اتصل!

فيتصل الحمقى بالملايين، وإذا حدث وقابلت أحد هؤلاء النجوم المسوخ على الأرض، فما أروع الشعور وما أعظم المفخرة! تنتفخ الأوداج وتشرئب الأعناق، لقد حدث الشرف الأعظم، ونيل السؤدد الأكبر.

لقد نجح أرباب المال في ترسيخ هذه التفاهة عند جيوش شبابنا وشيوخنا، فما عاد تفكير إلا في كُرة أو "مَرَة"!

لا، لا، دعك من هذه التفاهات، اشتغل بما ينفع الناس، انضم إلى حزب وقاتل دونه ودون نظرياته!

وهنا تصبح أقاويل الحزب مقدسات لا يمكن مسها، فالدين قديم يحتاج إلى التجديد ليواكب العصر، أما أفكار الحزب فلا يمكن أن تُمس، فلقد وضعتها عقول عظام لا تُقارب أو تدانى! لذا فالويل كل الويل لمن يقترب أو ينقد.

ثم إنه على الكل أن يلتزم بقواعد اللعبة، فلا بد من موافقة العوام على واقعهم، لذا تجد –ولا عجب في ذلك!– أن كل شعوب العالم في نظر ساساتها ذات عراقة وخلق حميد، وما يحدث من أزمات طارئة أو انحرافات ليس نابعا من داخلها، بل هو طارئ عليها.

تجد هذا عندنا في مصر، في لبنان، في المغرب، في أمريكا، في اليابان، ولست أدري من أين أتت هذه الأخلاق السيئة، إذا كانت هي طارئة على كل الشعوب؟!

المهم أن سياسات الحزب وأهدافه تكتسب القداسة، التي يستحل من أجلها السياسيون الحروب وإراقة الدماء، ثم نجد بعض الأبواق التي تقول أن الأديان شر محض، فهي تشعل الحروب المقدسة!

ألم يع هؤلاء الحمقى أن الحروب العظام ما قامت إلا لأفكار، والفارق هو هل الهدف نبيل أم لأطماع وأوهام وأفكار، افُترض قداستها فضُحي بالبشرية من أجلها؟

لا، لا يا عزيزي لست هذا أو ذاك، أنا إنسان عادي لن أحشر نفسي فيما لا يعنيني، سأكتفي بما نشأت عليه، فيتضخم عندي آباءي وأجدادي، عاداتهم وأفعالهم، فلا أتنازل عنها قدر أنملة، أما الدين .... إن الله غفور رحيم!

لا، لا، ما هذه الأباطيل، لا، لا بد من الوصول إلى لب الأمور وبواطنها، دعنا من القشور، فنرمز للأشياء برموز، والويل كل الويل لمن يخالفها.

ولما كانت كلها أمور متداخلة متشابكة تجدهم كلهم يدورون في فلك واحد، إذا اعْوج واحد تبعه الباقون. فالممثلون يؤدون رسالة الفن السامية! وأقسم بالعزيز أنهم يدورون في ذات سوار القداسة الموهوم!

**يبدأون بأدوار هابطة حقيرة من أجل الظهور، ثم ينتقلون إلى طور الأدوار الكبيرة التافهة من أجل جني المال، ثم يبدأون بعد ذلك في أداء الأدوار التي تناسب أعمارهم وفي نهاية المطاف تجد من كانت تقوم بدور العاهرة والراقصة تؤدي باسم الفن الأدوار التي تدعو إلى الفضيلة، ومجبر أخاك لا بطل!**

**ثم تصبح العاهرة قديسة، ويُنسى ما قدمه أو قدمته لأنه أو لأنها قدمت وأدت أدوارا تناسب عمرها، والويل كل الويل لمن ينتقد هذه الدائرة!**

**لا، لا، أهم ما يمتلكه الإنسان هو حريته، لذا فأنت حر في كل ما تفعله! فيبدأ الإنسان في التفكير، ولو فكر لوصل!**

**فيقولون له: لم ترهق نفسك؟! لدينا كل الحلول: في هذا الموقف افعل كذا، وفي ذلك الوضع افعل كذا، وهنا تؤدي كذا. وهنا عليك بهذه الوقفة!**

**ويُلّحون ويعيدون ويزيدون ليل نهار! ثم يدعون أنك أيها الإنسان حر تماما! تفعل ما يحلو لك! ويقلد المسكين بكامل حريته المسلوبة أساسا من المبدأ!**

**هكذا يلهث الإنسان وراء قداسات مزعومة، إذا تجنب إحداها سقط في أخرى، ما دام يجري في نفس الطريق.**

**شعرت أن حلقي قد جف مما يقول، فقلت وأنا أفكر فيما يقول:**

**معك حق فيما تقول.**

**قال بنبرة حزينة:**

**هل عرفت كم هي تافهة حيواتهم تلك! هل علمت لم جعلت محور حياتي هو الله تعالى، هل علمت الفارق بين محوري ومحاورهم وسلوكي وسلوكياتهم، أهدافي وأهدافهم، طموحي وطموحاتهم؟**

**هل علمت الآن لم أتألم كل هذا التألم؟ إنه الخوف من العودة إلى المستنقع، الخوف من العودة إلى العبثية، العودة إلى الضياع، إلى اللهاث، إلى المجهول، إنه الخوف**

القديم أستاذي، إنه الخوف من ترك النعيم، إنه الخوف من الخروج من الجنة! هل عرفت الآن مقدار عقوبتي؟!

****

قلت وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

يا الله، كم بعدنا فعلا عن الله!

قال وهو ينظر إلى السقف:

هذا ما استطعت أن أتذكره، لو استطعت أنت أن تسمع منه بسجعه الموزون وكلامه المنمق لأبغضت دنياك وأدركت مدى تفاهتها، ولكن ذاكرتي تذكر فقط بعض ما قيل.

قلت وأنا أقلب كلامه في رأسي:

ولكن ألا تعتقد أن كلامه متطرف بعض الشيء؟

قال بحدة المُدافِع:

أنت لا تعرف ما مر به حتى صار كما هو، هل تعلم أني أخذت رقم هاتفه وصادقته، فهو نموذج لإنسان صالح.

قلت باندهاش: حقا؟

قال: نعم، صرت أذهب معه في بعض حلقات الذكر، كان هناك بعض الأخوة ينشدون بعض الأناشيد، لا تتصور يا سيدي الفاضل كم هو رائع ومثير هذا الشعور، الذي يشعر به المرء في هذه الجلسات، لقد عرفت الآن لماذا يجن هؤلاء، الوقع شديد، الإثارة عظيمة!

هل تعلم أني كنت أقاومه، حتى لا أنتظم في حلقات الذكر هذه حتى لا أصير في يوم من الأيام أحد هؤلاء "المجاذيب"؟!

قلت متعجبا:

إلى هذه الدرجة؟

قال: نعم وأكثر، ولقد صارحته بهذا الشعور، فابتسم وقال:

أنت قاومت، أما أنا فلا، لقد استعذبت ما أنا فيه، أنا أعلم أنا ما أفعله غير مقبول من المنظور الديني، ولكنه ليس محرما، فأنا لا أفعل ما يغضب الرب العلي.

سألته وأنا أتمطى:

وهل حُلت مشكلته؟

قال: نعم، بعد عدد من هذه النوبات اختفت هذه الخواطر، وعاد إلى شعوره ونقائه وخلواته.

قلت وأنا أشبك أصابعي وأضغطهما:

إذا فلقد كان يطهر نفسه بهذه النوبات؟

قال: نعم، طهر نفسه وعاد إلى نفسه وإلى قدس الأقداس.

قلت متعجبا:

لو لم تكن أنت –وأنت بالذات– من حكى لي هذه القصة، لما صدقت أن هذه النماذج موجودة في واقعنا.

نظر إلى وقال بخبث:

وهل تعتقد أننا نعيش في عالم واقعي؟

قلت في حيرة:

نعم، أعتقد أننا نحيى في واقع، قد يكون مريرا ولكنه واقع.

قال بهدوء كبير:

لا يا سيدي الفاضل، نحن نعيش في وهم كبير، ونتجنب دوما الواقع!

# أنا .. وهم

كانت حالي في تلك الأيام في طريقها إلى تغير تام، فعلى الرغم من أنه يفترض بالطبيب النفسي ألا يسقط ويتأثر بأحوال مرضاه، ولكن المرء لا يستطيع أن يعزل نفسه عن التأثر بجديد الأفكار وجيدها، إلا إذا كان غُلفًا، وأنا لست كذلك وهم كذلك ليسوا مرضى بل هم أصحاب فكر، ناقضت أفكارهم سير الناس وعاداتهم، فرأوا أنفسهم شواذا، مع أنه من الأولى أن يصيروا هم الطبيعين.

فالمرء يرى مجموع سلوك الناس هو الطبيعي، وما تفرد عنه فهو الشاذ، وللأسف هذه قاعدة جد خاطئة.

المهم كنت أتدبر في هذه الأيام في حال الدنيا ووضعنا بالنسبة لها، ولكن ذلك لم يؤثر –وبحمد الله– على عملي.

ومرت أيام وقد أخذت أكتسب بعض أفكارهم ووجهات نظرهم في الحياة، وفي يوم من الأيام شعرت أن أحدهم قادم، لم يراودني ذلك الشعور بالضيق أو الرغبة في الفرار، بل تغيرت مشاعري تماما، وأصبح الشعور المسيطر هو الهدوء والفضول والرغبة في المعرفة، وفي ذلك اليوم فحصت المرضى الذين أتوا إلي وأخذت أترقب الزبون الأخير.

وما أن دخل حتى أخذت أتفحصه بنظرات مدققة، وعلى الرغم من تدقيقي وبحلقتي به لم يلق الرجل لذلك بالا، لم أستطع أن أحدد إذا كان شعوري وحدسي صحيحين أم لا، فلن يُكتب على صدر أحدهم: «شاذ فكريا» أو «صاحب أفكار متطرفة»!!

إلتفت إليه بكامل جوارحي وانتباهي مع البسمة المعهودة، وبدأت في أخذ بياناته الشخصية.

اسمه عبد الموجود، في الأربعين من عمره، يعمل كمهندس في إحدى شركات البترول، نحيل جداً، يرتدي ملابس بسيطة أنيقة متناسقة، وعلى الرغم من أن أنفه كبير إلى حد

ما وفمه واسع وعينه ضيقة إلى حد ما وشعره خشن، إلا أنه وسيم وجذاب، أكملت أخذ البيانات الشخصية، وبعد التمهيدات والمقدمات سألته بإبتسامة ودود:

ما مشكلتك يا أستاذ عبد الموجود؟

نظر إلي نظرة جادة، ثم قال:

أرجو أن لا تعتبرني عابثا، أو من الأخوة المتفلسفين ولكني جئت هنا أبحث عن حل لمشكلة عويصة تقابلني.

علت في داخلي إبتسامة ظفر، لم تنعكس آثارها على وجهي الذي ظل يحتفظ بهدوئه، فقلت له:

إطمئن فأنت في المكان المناسب، ولن أعتبرك كما تظن، هيا أخبرني ما هي مشكلتك؟

قال بتردد:

هل من الممكن أن يكون المجتمع مريضا والفرد سليما؟ بمعنى هل لا يلزم من مخالفة المجتمع وجود علامة مرض؟

قلت في قرارة نفسي: ها هو الرجل يحوم حول معنى التفرد والشذوذ، ولكنه لم يذكرها صراحة، وعامة إذا لم يذكرها هو فسأذكرها أنا.

فقلت له:

نعم من الممكن أن يكون غالب المجتمع مريضا، ويتحرك بخطوات عشوائية أو يتحرك بخطى منظمة ناحية ضلال، تبعا للتيار الذي يسوقهم ويوجههم، لذا لا يلزم من مخالفة المجتمع وجود علامة مرض.

كما أنه لابد من أن نلاحظ أن كثيرا من الأعراف والعادات والتقاليد، ولن أقول النظريات العلمية، والتي كانت تعتبر ممجوجة ومرفوضة ومستنكرة في زمن من الأزمان تصبح هي السائدة في زمن آخر، وسخرَ الناس من الذين سبقوهم، وكيف كانوا يصرون

على هذه القيود والتكلفات.

ولكن –حتى لا أنسى– لا يعني أيضا عدم وجود مرض، ألا يشعر الإنسان بالتفرد أو حتى «بالشذوذ» عن الآخرين فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، يحب أن يسير ويمشي في الطريق الذي يتحرك فيه القطيع.

قال بارتياح:

جميل جدا، تحليل جيد، يشجعني أن أطرح ما أعانيه مباشرة.

قلت: تفضل إطرح، وأنا أسمع.

قال بعد أن شرد بصره للحظة قصيرة ثم استعاد تركيزه:

أنا لا أومن إلا بالواقع.

قلت في حذر:

هل يعني ذلك أنك لا تؤمن إلا بما تراه عيناك؟

قال في حدة:

وهل أنا أحمق إلى هذا الحد، أنا لم أقل هذا، أنا قلت أنا لا أومن إلا بالواقع، والواقع ضده الوهم ولا علاقة له بالمرئي أو خلافه.

قلت له بهدوء لأمتص حدته:

جيد، رائع، نحن نحتاج فعلا إلى الكثير من أمثالك ممن يتركون أو حتى يستطيعون أن يتركوا عوالم الوهم ويعيشوا في دنيا الواقع، حتى نستطيع أن نغيره إلى الأفضل، .... ما هي المشكلة إذن؟

قال بهدوء: المشكلة أننا نعيش في عالم من الوهم.

نظرت إليه نظرة متفحصة وأخذت أفكر، ماذا يقصد هذا الرجل بقوله هذا؟ هل يقصد ما عناه الفلاسفة اليونانيون القدامى، أم ...؟

قطع حبل أفكاري بقوله:

لا تظن أنني معتوه مثل أولئك المعاتيه اليونانيين، الذين كانوا ينكرون الواقع المحسوس، لا أنا أقصد هذا بتاتا.

قلت بدون أن تبدو على وجهي الحيرة المحتدمة في داخلي:

وماذا تقصد إذن بقولك؟

قال بهدوء مشوب *بعصبية*!:

أقصد أن الناس يرون الواقع والحقيقة والصواب، ولا يتعاملون معها كما ينبغي، بل يصرون على أن يخلقوا لها ولأنفسهم عوالم من الوهم يتعايشون فيها ويتعاملون على أساسها، والويل كل الويل لمن يجرؤ على الخروج من إطار الوهم هذا ليقول لهم: هذا وهم كبير، هذا واقع قبيح أنتم تزينونه، ليس الواقع هكذا بل هو عكسه تماما، إنتبهوا ليس هذا هو الماء بل هو سراب.

وبطبيعة الحال الرد جاهز وموجود: هذا الرجل مجنون، أحمق أو حتى خيالي. والناس سوقة واهمون، يريدون أن يهربوا من الحقيقة فيبنوا قصورا للوهم ليعيشوا فيها، والويل لمن يعيدهم إلى دنيا الواقع.

قلت بهدوء:

كلام جميل يحمل جزءا كبيرا من الصحة والصواب، ولكن ألا ترى أن هناك نوعا من المبالغة فيما تقول؟!

قال وهو يهز رأسه:

بتاتا سيدي الطبيب، ليس من رأى كمن سمع، من وهب نفسه لمسألة فهو يتتبع أثارها وخطواتها من بدايتها إلى منتهاها، وأنا أجزم لك أن الوهم يسيطر على حياة الناس من أصغر فقير إلى أكبر غني، وهم كبير بسط أجنحته وأذرعته في كل مكان .

قلت متعجبا:

إلى هذا الحد؟

قال بحماسة:

نعم، هل تتذكر القصة التي حكوها لنا ونحن صغار عن الملك الأحمق، الذي أقنعه بعض المخادعين بأنهم سيصنعون له ثيابا من خيوط خفية، لا يراها إلا الأذكياء؟

قلت مبتسما:

نعم أتذكر القصة، ولقد ضحكنا كثيرا من غفلة وحمق هذا الملك.

قال: هل تتذكر من دمّر وكشف هذه الخدعة؟

أجبته:

نعم، طفل صغير صرخ وقال: إن الملك يمشي عاريا.

قال بظفر:

هكذا نحن، نكذب الكذبة على أنفسنا ونقنع بها غيرنا، فيصدقها ويقتنع بها على الرغم من عدم تصديقه أساسا بها!

وهكذا تستمر دورة الوهم والخداع والتصديق بعدم المصدق، إلى أن يأتي طفل فيصرخ فينتبه الجميع، وقد لا ينتبهون فيضعون أصابعهم في آذانهم، ويصرون على غيهم وضلالهم.

قلت وأنا أفكر فيما يقول:

بغض النظر عما تقوله –والذي يحمل فعلا قدراً كبيرا من الصحة– لابد من أن نعود إلى حالتك أنت، فنبدأ بها لنرى، كيف كنت في عالم الوهم وكيف خرجت منه، وما هي الأسباب التي دفعتك إلى الخروج منه.

لذا فهل من الممكن أن تحدثني وتخبرني عن نفسك منذ طفولتك، وحتى انتبهت إلى هذا الفخ الأخطبوطي!

قال بعد أن استلقى على الأريكة:

الأمر لا يحتاج إلى عبقرية ليدرك المرء، فالأمر أوضح من اللازم، ولكن على الرغم من

ذلك سأحكي لك الملامح الرئيسة لحياتي:

وُلدت في قرية من قرى دلتا مصر، نشأت في الريف كما ينشأ الكثيرون، ولكن الله أنعم علي بوالد –رحمه الله– ذي عقل مفكر مدبر، وكان هو السبب في انتباهي إلى حقيقة «الوهم» هذه.

كنا عائلة كثيرة الأفراد، قليلة الدخل ولكن والدي كان يستطيع أن يدبر أمورنا والحمد لله بما يرزقه الله من دخل قليل، وكان دائم الشجار مع أمي، أو بمعنى أصح وأدق كانت أمي دائمة الشجار مع أبي، لأنها تريد مطالب وأشياء ليست بالحاجيات، لا نحتاجها ومن الممكن أن تستمر حياتنا بشكل بسيط من دونها، فيرفض أبي، لأن هذا سيضطرنا إلى الاستدانة لغير الضرورة ويجعلنا نعيش في قالب ليس قالبنا.

ولكن والدتي كانت تصر على مطالبها، وحجتها في ذلك أن الناس يفعلون ويقولون، وكيف لا نكون مثلما يكونه الناس، ففلان فعل وفلان سوّى وهم لا يزيدون عنا، وكيف وكيف ...

منذ تلك اللحظات أخذت أفكر، لم يخدع الناس أنفسهم وهم يعلمون، لم أظهر بمظهر غير مظهري أمام من يعلم أن هذا ليس مظهري وهذه ليست حقيقتي؟

فعلى سبيل المثال عندما تكون هناك دعوة لأحد الأقارب وعائلته ليتغدوا عندنا، تُذبح الطيور وتُشتري اللحوم ويعد من الطعام أصناف وأصناف، ثم فاكهة وحلوى، وكل ذلك بكميات تكفي عددنا وعددهم مرتين على الأقل. لم كل هذا، مع أن واقعنا معروف وواقعهم وحالهم لنا مكشوف؟!

إنه التظاهر الكذاب أو «الوهم»، والتمتع بالعيش في الوهم، على الرغم من تبعاته، فتصور حالنا بعد دعوة كهذه.

وعلى الرغم من أن أبي رحمه الله كان يقول «الجودة بالموجودة» إلا إنه كان لا يستطيع أن يقوم بهذه الأمور، خاصة أن هناك عنصر إجبار وهو الإتهام بالبخل، وأن الكرم مرغوب فيه دينيا، ولكن هذا تبذير وليس كرم ...

المهم أخذت أتتبع هذه النقطة بالذات في حياتي وحياة من حولي متذكراً دوماً قول أبي: «لا يوجد شيء اسمه فقر ولكن هناك قلة عقل»، وطبقت هذا المبدأ في حياتي الجامعية وأخذت أجتهد في فصل الواقع عن الوهم في حياتي الخاصة، ولك أن تتصور كيف كانت حياتي عظيمة وناجحة وممتازة قبل الزواج، واستمر الحال بعد الزواج كذلك لأني كنت قد وضحت لزوجي منهجي في الحياة قبل الزواج ووافقت كذلك، ولكن عند التطبيق نسيت الإتفاق، فكان حتماً ولزاماً كثيرًا من المشاجرات حتى يستمر النجاح والمبدأ.

قلت: جيد، إذا فبسبب نشأتك في أسرة بسيطة أو فقيرة وبسبب موقف والدك انتبهت إلى هذه النقطة، وأدى هذا الانتباه إلى نجاح كبير في حياتك.

قال بهدوء: نجاح باهر، أنت تعلم أن هدف معظم الناس في هذه الحياة هو الغنى، أليس كذلك؟

قلت: نعم، ثم؟

ابتسم ابتسامة عريضة لم تلبث أن تحولت إلى ضحكة كبيرة دمعت منها عيناه، فاعتدل ومسح عينيه ثم قال:

كلنا نولد أغنياء، ولكننا وللأسف نبحث عن الفقر بأيدينا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: تدبر في كلمتي وستعرف أنها صحيحة بنسبة كبيرة، يستثنى منها الاستثناء الطبيعي من «كلنا».

قلت بعد أن تفكرت سريعا في كلمته، ودونتها في المدونة:

إذن فأنت لم تبحث عن الفقر؟

قال بهدوء:

لست أحمقا، أنا عندي الغنى الحقيقي فكيف أتركه وأبحث عن الفقر، إستثمرت الغنى

فزادني غنى، فاستغنيت عن الناس، تعلمت أن أقضي حوائجي لنفسي قدر الإمكان، علمت أنه ما حك ظهري مثل ظفري، فتوليت جميع أمري.

صمتَ قليلا، ثم قال:

أنت لا تتصور اللذة التي كنت أجدها عندما أكتشف شيئاً جديداً في حياتي، أو أستطيع الاستغناء عن الأشياء أو الناس بدرجة أكبر، فهذا هو الغنى الحقيقي، لا أن أفتقر إلى كل شيء، ثم أظن نفسي غنيا، بينما أنا مفتقر إلى كل ما أحتاج.

قلت بطريقة روتينية:

جيد أخ عبد الموجود، أنت رجل صاحب وجهة نظر في الحياة، وجهة نظر جيدة ومحترمة تستحق التقدير، وأنت ترى أنك حققت بها ونجحت بها في حياتك، لم تخبرني حتى الآن لم أتيت إلي؟ هل أتيت لتشكو كيف أن الناس يحيون في الوهم؟ هل شككت في مبادئك فتخليت عنها؟ أم أنه حدث أثناء تطبيقك لمبادئك بعض المشاكل والكوارث التي جعلتك تندم عليها؟

نظر إلي نظرة دهشة، لا أدري لها معنى، ثم قال: في الواقع، ليس أي شيء من هذا بتاتاً.

قلت له في حيرة:

ولم أتيت هنا إذن؟

قال بحرج:

أحتاج إلى استشارة.

قلت باستنكار:

استشارة من طبيب نفسي؟ أين ذهب زملاؤك، أين ذهب أهل الخبرة والحكمة؟!

قال بذات الحرج:

هي من الناحيتين، إطمئنان على الحالة النفسية العقلية واستشارة في نفس الوقت.

قلت: وما هي هذه الاستشارة إذن؟

قال: لقد توفيت زوجي، رحمها الله.

سألته بهدوء:

هل كانت تعاني من ارتفاع ضغط الدم؟

نظر إلي بدهشة، ثم قال بضيق:

أنت تلمح إلى أنني كنت السبب في موتها، إطمئن يا سيدي لقد ماتت بسبب آخر تماماً، ليس لي علاقة بهذا الموضوع بتاتا.

قلت: وما المشكلة إذن؟

قال بحرج وهو ينظر إلى الأرض:

أنا أريد أن أتزوج.

نظرت إليه في دهشة لم أستطع منعها:

وما شأني أنا بمثل هذه المواضيع؟!

قال بضيق:

ألم تنتبه إلى وضعي يا دكتور، أنا في موقف لا أحسد عليه؟! أنا الآن رجل في الأربعين من عمره، لديه من الأولاد أربعة، ليس وسيما جدا، نعم لدي دخل جيد جداً، ولكن المشكلة كما قلت لك في «مبدئي الواقعي»، ومن الصعب جدا أن تجد امرأة توافق على هذا المبدأ وترضى به.

وأنا الآن في ورطة كبيرة، إما أن أضطر إلى التضحية بمبادئي وأقع فريسة الوهم –وهذا ما أرفضه بتاتا– أو أن أربي أنا أولادي وهذا يعني أن أضيّعهم وأضيع نفسي، أريد حلاً يرضي عقلي وقلبي وواقعي؟ هل لديك هذا الحل؟ أو هل تستطيع أن تقنعني بالتخلي عن إحدى الفكرتين؟ فأرضى بالأخرى؟

فكرت للحظات فيما يقول، ثم قلت له:

بداهة لا أستطيع ولا أجرؤ على تحريضك على منعك من الزواج، لذا لابد من أن أسألك، لم هذا الموقف العدواني من الوهم؟ ألا تعتقد أن قليل من الوهم مفيد في بعض الأحيان، على الأقل حتى من أجل نسيان بعض المصائب والكوارث التي تنزل بالإنسان؟

قال بعصبية بسيطة:

العجيب هو سؤالك، يفترض أن يكون السؤال هو العكس، وسأخبرك لاحقا لم هذا الموقف. أما مسألة أن الوهم مفيد من أجل نسيان المصائب فهذا مأخوذ من أقوال الغربيين، الذين لا يعرفون للإيمان دوراً في الحياة، المؤمن يحمد الله ويشكره ويصبر على البلاء ويحتسب عند ربه، أما «وهمكم» هذا فاتركوه لأنفسكم.

قلت في غيظ:

هل تريد أن تقنعني أن الوهم شر محض لا خير فيه، وأن هذا الوهم يسيطر على حياة البشر سيطرة تامة؟

رد بصوت عال منفعل:

الوهم شر لا جدال في ذلك، الوهم لا مكان له في الدين ولا في الحياة، نحن خلقناه وربيناه، وغذيناه وأطعمناه حتى صار غولاً كبيراً، يلتهم كل من وما يقترب منه، والمشكلة والطامة أن الناس تستعمي أو تُربّي على الاستعماء وبذلك نتوهم الوهم حقيقة، مع أن حقيقة الوهم وهم، وهي واضحة.

توقفَ لحظة ليلتقط أنفاسه ويبتلع ريقه ثم واصل بنفس الاندفاع والعصبية:

مهما نظّرت لك، فلن تقتنع أبداً بما أقوله لك، لابد من أن أعطيك أمثلة على صدق ما أقول.

قلت له بصوت هادئ: لا بأس أعطني أمثلة، ولكن تكلم بهدوء.

قال وقد بدأ يستعيد هدوءه:

حسنا، لا بأس، إسمع!

لست أدري أأبدأ من أعلى المجتمع أم من أدناه، فالكل سواء، عامة سأبدأ بما يعن لي ولن ألتزم بترتيب معين، على سبيل المثال لنأخذ «علية القوم»، -مادياً فقط-، طبعاً عند هؤلاء العلية العالة من أسباب الوهم مالا يتوفر لغيرهم، فهم يتوهمون أنهم أفضل من غيرهم، وأن لهم من الحقوق ما ليس لغيرهم، وليس عليهم من الواجبات ما لغيرهم فهم صفوة الله من خلقه، لماذا؟ الله أعلم؟

قلت: ليس هذا قاعدة عامة، فليس هذا في كل العلية!

قال بثقة من يتكلم في البدهيات:

لا، قاعدة عامة، ولكن يختلف الأمر بين من يجتمع فيه كل أسباب وأنواع الوهم وبين من يجتمع فيه سبب من الوهم، مع وحش الوهم الرئيس وهو وهم الحاجة.

قلت بفضول حقيقي:

وما هو «وهم الحاجة» هذا؟

قال: الوهم الذي يلعب عليه أباطرة المال. *تحويج* ما لا يحتاجه الناس، وتصييره من أساسيات الحياة التي لا هناءة ولا فلاح من دونها، فتجد كثيرا من العناء والمشقة من أجل الوصول إلى ما لا يحتاجه الإنسان، وإذا وصل الإنسان إليه يفرح ويسر بوصوله إلى هدف ليس له فيه حاجة ولكنه الوهم.

أعجبني استعماله كلمة «تحويج» فابتسمت لمّا سمعتها، فأشرت إليه أن يواصل، فقال بعد أن التقط أنفاسه:

على سبيل المثال، المال طبعا من أكثر أسباب الفساد، تتفق معي؟

قلت مومئا برأسي: إذا غابت الأخلاق، طبعا.

قال بحنق: المشكلة أن الفتاة من هؤلاء تتزوج شابا فاسد الأخلاق، كان يقضي أيامه، بتعبير أدق: لياليه في السهر والجري وراء العاهرات، بغض النظر عن الخليلات، ثم

تتوهم بكل جرأة أنه ما أن يتزوجها –وهي ليست ربة الصون والعفاف– أن ينصلح حاله ويتغير شأنه ويستقيم جنانه، ويصير العارف بالله *توتو بن وائل*.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك على تعليقه، فضحكت ضحكة طويلة، ثم قلت له وأنا أبتسم:

معك حق، هذا وهم واضح.

واصل الحديث، فقال:

المشكلة أن المقدمات واضحة لكل أعمى –البصيرة– طبعا، وعلى الرغم من ذلك فالكل ينتظر أن تأتي النتائج مخالفة للمقدمات، ولست أدري هل ينتظر هؤلاء معاجز من أجلهم، حتى المعجزات التي حدثت للأنبياء حدثت بحق وللحق، أما هؤلاء فيريدون معجزات للباطل وبالباطل ومن أجل الباطل.

خذ مثالاً آخر لتصرف عِلية القوم: الصراع بين الواجب والتحلل، يريدون أن يلتزموا ويتحللوا من واجباتهم في ذات الوقت، حتى يُرضون أو بتعبير أدق «يوهمون» ضمائرهم أنهم على حق، تصور أنه كان هناك بعض الأغنياء، والذي يسأل إذا كان من الممكن أن يخرج زكاة ماله كسيارات يعطيها لأولاده؟!

قلت مندهشا:

وهل حدث هذا فعلا؟!

قال بحنق وهو يضرب الأرض بقدمه:

حدث فعلاً، وكل هذا منبعه الوهم، ياسيدي ما ضاع حق على الأرض إلا وكان منبعه الوهم، هل تعلم أن الأغنياء يأكلون مال الفقراء من أجل الوهم؟ الإنسان مهما علا كعبه وعظم بطنه فلن يأكل أكثر من خمس وجبات صغار، ولن ينام على أكثر من سرير في غرفة بجوارها بعض الغرف الأخرى في شقة تستره هو وأهله، ولكنه الوهم، الذي يوسوس إليه: أنت تحتاج إلى أفخر الطعام.

والعجيب أن أفخره أضره! فيذهب ليأكله وهو منه خائف ويقلل منه قدر المستطاع!

ولم تأتيه من الأساس؟!

أنت تحتاج إلى الزينة حتى تريح نفسيتك وتمتع ناظريك، على الرغم من أن الزينة منثورة حول الإنسان في كل مكان في الطبيعة، ونحن الذين أفسدناها، ثم نحاول أن نقلدها، وننفق على هذا وتلك الملايين بل المليارات من أجل إفساد وتقليد لما أفسدناه قبل إفساده!

الوهم كبير، ولأنه وهم لا أساس له فنخترع من أجل الوهم وهماً، حتى نحافظ عليه، محلات وفنادق كاملة تُزخرف وتُزين تزيينا مبالغا فيه، من أجل ألا يشعر الحمقى، وهم يدفعون المال، بالغبن: آه هذا المكان نظيف، مزين، يستحق ما سأدفعه فيه، ثم إنه المكان الذي يستطيع الأغنياء أمثالي أن يتميزوا به عن الفقراء، وإلا فما فائدة كوني غنيا؟!

وبمناسبة التميز هذا، كنت ذات مرة أتكلم مع أحدهم، وكان يحكي لي عن بعض المزادات التي يدخلها ويريني بعض التحف التي إشتراها، وكيف أنه يدخل بعض المزادات فيعجز عن شراء بعض التحف لعلو سعرها، ثم يضحك من بعض الحمقى الذين يشترون تحفاً بخمسين أو مائة ألف جنيه في تحفة هالكة لا يرضى أن يدخلها بيته.

تأملته وأخذت أفكر، كيف أن المسألة بالنسبة له مسألة مبلغ كبير جداً في تحفة قديمة هالكة، أما لو كانت سليمة فلا بأس، قلت في نفسي:

هذا وهم آخر يخدع به الناس أنفسهم، وجدوا أن الثراء وصل لمستويات هائلة، حتى أنه قال فعلا أحد الشباب الأثرياء لزميل لي: لو ظللت أنفق كل يوم ألف يورو لأنفقت ثمانين عاما وما إنتهت ثروتي!

علموا أن حاجاتهم محدودة، فاخترعوا لهم مسألة التحف والأنتيكات ليتنافسوا فيها تنافس الخيل البرية، وكله وهم.

خذ عندك أمثلة أخرى للوهم الذي يسقط الأثرياء فيه، كنت ذات مرة ...

**هنا شعرت أن الفكرة قد اتضحت، فقاطعته قائلا:**

**كفى، كفى يا أستاذ عبد الموجود، أنا أعلم أن الأغنياء يسقطون أنفسهم في الوهم بخيارهم لأحوالهم، لأنهم يظنون أن سعادتهم فيما أوهمهم به أرباب التجارة، وكذلك رغبة الناس في التميز، لذا يضعون أنفسهم بإرادتهم.**

**وأنا عندي من القصص الواقعية، التي إذا فسرت بهذا الشكل فهي نماذج أكثر من رائعة للوهم الاختياري، نكتفي بما ذكرت وبما عايشت أنا وأنت، اذكر لي بعض نماذج من الوهم في المجتمعات الفقيرة.**

**قال بمرارة وهو ينظر إلى الأرض:**

**المشكلة أن درجة الوهم في البيئة الفقيرة لا تقل أبداً عن البيئة الغنية، بل قد تزيد، على الرغم من حاجتهم الشديدة إلى التخلي عن الوهم، والالتزام والامتثال للواقع، فإذا كان الغني لا يجد من الدوافع والظروف ما يدفعه ليتخلى عن وهمه، فالفقير يشكو من واقع يريد أن يغيره، وعلى الرغم من مرارة الواقع، إلا أنه يتخلى عن واقعه ويُسكن نفسه في عوالم من الوهم تزيده فقرا على فقر، هذا إذا أخذنا بالتصنيف العادي للفقر والغنى.**

**لذا فإن المرارة تأكلني عندما أرى هؤلاء الفقراء يعانون ويذلون أنفسهم من أجل لحظات وهم، نجح هؤلاء القوم في تصييرهم مدمني وهم، يدفع هؤلاء جُل ملاليمهم من أجل لحظات وهم، يغيبون فيه عقولهم، ومن المضحكات المبكيات أن حكومات العالم أجمع يعنفون ويعاقبون على إدمان المخدرات، لم؟ لأنها تغيب العقل وتضره، وتجعل الإنسان يعش في عالم من الوهم لا علاقة له بالحقيقة، ولو أرادوا الدقة والحقيقة لطالبوا بإعدام نظام حياتنا من جذوره وإنشاء نظام لا وجود للوهم فيه ..**

**قاطعته قائلا: أستاذ عبد الموجود ...**

**انتبه إلى ما يقول، فرفع رأسه إليّ قائلا:**

**معذرة لقد شردت في تنظيري مرة أخرى، إليك بعض الأمثلة:**

أبرز ما يكون من الأمثلة هو مراحل حياتهم، فالواحد منهم يبدأ حياته في بيت فقير، يتطلع دوماً إلى الأغنياء المحيطين به، يتطلع إلى ما يحسبه نعيما مقيماً، يحسب هذا منتهى حياته ومبتغاها، ثم يتخرج في مدرسته أو كليته، ثم يصير منتهى أمله أن يظفر بعقد سفر إلى الخارج، ويعطيه الله فيسافر ويظل هناك السنة تلو الأخرى يضيع فيها عمره وأولاده، من أجل الشقة، ثم من أجل الأرض، ثم الرصيد ثم العربة، ثم، ثم ... ولا تنتهي المطالب أو «الثُمّات».

قاطعته قائلا:

لكن يجب أن تلاحظ أن معهم بعض الحق، فكثير منهم يسافر من أجل تلبية احتياجاته الأساسية، والتي لو ظل طيلة عمره في مصر فلن ينالها، فمن حق كل منا أن يجد مأوى يحميه ولقمة تكفيه.

قال بمرارة الصبر:

وأنا لا أعارض هذا، ولكن عندما يصير المأوى فيلا، واللقمة فالوذجا، وعندما تصير الكماليات أساسيات ينتقل المرء إلى مرحلة الوهم.

لم أفهم ما يعنيه بالضبط من «الفالوذج» هذا، ولكنه حتما نوعا من الطعام الشهي اللين، سألته:

إذا فأنت ترى رحلات المصريين الفقراء إلى الخليج أو الغرب نوعاً من الوهم؟

هز رأسه نفيا، وقال:

لا، هي تبدأ كرحلة مشروعة ثم تتحول إلى سعي خلف وهم كبير، والكل يسقط في شِراكه -إلا من رحم ربي-، ما قيمة المال لعيال لا أب لهم، يؤدبهم ويربيهم؟! ما قيمة مال يكنز ويوضع في حجارة؟

هل تعلم أني حانق أشد الحنق على دول عربية، تنفق المليارات في الوهم وتترك الفقراء في واقعهم المرير والذي يعالجونه بالوهم. لست أدري حقا، ألم تدرسوا هذا الكلام في كُليّاتكم وتقرأوها في كتبكم، أم أن السادة الغربيين كانوا ولا يزالون يحيون

في وهمهم؟!

نموذج آخر من الوهم لأناس غمر الفقر قلوبهم، فتضاءلت أحلامهم وقصرت أمانيهم:

تجد الموظف أو العامل منهم يجني الملاليم القليلة والتي يستطيع أن يكتفي بها، فيوهم نفسه أنها لا تكفي، لم؟ لأنها لن تكفي الوهم الذي يبحث عنه الجميع، فيوقعه وهمه في الاقتناع أنه لن ينجح في الحصول على الوهم، فيقوده وهمه إلى الهروب من الوهم بمزيد من الوهم، فيدخن ويشرب الخمور والمخدرات، ثم يزداد حاله سوءا على سوء.

والوهم مثل الجرب يقنعك بالهرش لتزيله، وأنت تعلم أنك بذاك تزيده ولكنك على الرغم من ذلك تهرش ... هل تعلم كم ينفق الفقراء من أعمارهم وأموالهم في لعب الكمبيوتر؟!

هل تعلم كم تنفق الدول الغنية على هذه الألعاب التي تجذب الغني وتُضيع الفقير؟ كان لي صديق أضاع قرابة ربع عمره في هذه الألعاب؟ هل لهذا تصنيف إلا الوهم .. الكبير؟!!

واقع مرير والأشد منه مرارة هو المتاجرة بالفقراء، وأخطر وهم يقع فيه الفقراء أن الدول الغنية تساعدهم من باب الإنسانية، وهُم يمتصوننا ويأخذون خيرنا ثم يرمون إلينا الفتات والملاليم، ثم يظهرون وهم يبتسمون أمام كاميرات الوهم الأعظم الذي يسوقون به الناس أمامهم كالبعير، ليقدموا المعونات إلى الفقراء.

يا الله، الفقراء في وهم عظيم جسيم، يتنقلون طوعاً وكرهاً من وهم إلى وهم، ومن وهم المجاراة والتقليد إلى وهم المفاخرة الكاذبة، ثم يسقطون في وهم الرضا بالوهم لأنه هو «الواقع» الذي لا يمكن تغييره.

شعرت من جفاف حلقي أن لعابي أصبح وهما! فقلت بصوت مبحوح:

إذن فالفقراء غارقون لآذانهم في الوهم، مثلهم مثل الأغنياء، ولكن ألا ترى أن أنواع الوهم الذي تقوله لا يمثل كياناً أخطبوطيا يسيطر على كل حركات الإنسان، فهناك

الكثير من الحركات البعيدة عن التجارة والمال والسياسة و ...

قاطعني بعصبية:

مؤسسات ماذا؟ حركات؟ أنت واهم يا سيدي، هؤلاء يُعلّمون الناس من صغرهم الوهم، يرضعونهم إياه مع ألبان أمهاتهم، يقولون لهم نحن لكم الناصح الأمين، أسلمونا أرواحكم وسنعطيكم الراحة والهناء، ثم لا يعطونهم إلا وهما في الدنيا والآخرة.

يجردونهم من عقولهم، وينشأون لهم كمّا كفيلا من الوهم لا علاقة له بالواقع باسم «الدين» وعلى الإنسان المسكين أن يخضع ويستكين، ويكون لهم خير معين، ثم يلتفت هؤلاء فينضمون لحزب أرباب المال فيتاجرون بالدين فيتربحون بالدين، فيقعون هم أيضا في وهم مرير، فهم يتنقلون بين وهم يوقعون فيه الناس ووهم يُوقعون فيه أنفسهم ..

إنها دائرة مفزعة مفرغة عقيمة تشمل كل جوانب الحياة، لا يمكن أن تستثني منها جانبا واحدا، النظريات العلمية، وحتى الوقائع التي ليست وقائع تاريخية، هناك الكثير من التزييف ليُوقعوا الناس في الوهم.

قلت: على سبيل المثال؟

قال بسرعة من لم يفكر في الأمر:

الأمثلة كثيرة نذكر منها صعود الأمريكيين القمر، فهم لم يصعدوه ولم يطأوا أرضه أو أرض أي كوكب غيره، كل هذا خداع وتدجيل، وطبعاً الإعلام جاهز ليصبغ أي شيء يريدونه بصيغة الشرعية والواقعية، هل علمت لم تُنفق المبالغ الطائلة على الإعلام، إنه أُس وقاعدة الوهم المنظم المفروض على الناس.

****

قلت: إذن فمنه علمت قضية "الخدعة الكبرى"؟

**قال:** الحق يقال، نعم دكتور عبد العليم، كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذه المسألة، ولقد قدم لي من الدلائل والتفاصيل ما تجعل المرء يسخر ممن يقول أن أرمسترونج رأى القمر في غير أحلامه، وبغض النظر عن اقتناعي من عدمه فالقول له ثقله ودلائله، ولا تتصور كيف كان شكلي وأنا أستمع إلى ما يقول، أعتقد أنني كنت أبدو كأحمق أبله في التاريخ!

**قلت:** وهل عرض لك نماذج أخرى؟

**قال:** نعم عرض لي حادث الحادي عشر من سبتمبر من مختلف الزوايا، وبتوثيقات لست أدري كيف يحفظها في ذاكرته أثبت لي بما لا يدع مجالاً للشك حتى ولو بنسبة واحد من ألف في المائة، أن أسامة بن لادن لم يكن له أي يد أو حتى فخذ في هذه المسألة، وأن المسألة مدبرة من أولها إلى آخرها.

**قلت مبتسما:**

وأنت طبعاً إنتهزت الفرصة وأخذت تسمع؟!

**قال:** هذه فرصة لا تعوض، فرد يرفع عنك حجب الوهم ويضعك في مرتبة اليقين، هل تتركه؟ أنا لم أتركه، تنقلت معه بعد ذلك في بعض الحقب التاريخية وكيف زُور التاريخ فيها عمداً، ثم تنقلنا بين بعض النظريات –غير– العلمية، وكيف أنها اكتسبت صبغة أو صفة «العلمية» فقط لأهواء وأوهام أصحابها وتأثيرها على أصحابها وأصحابهم، وكيف أنتجت هذه الأوهام «العلمية» صروحا كاملة من الوهم أنتجت أجيالا كاملة من البشر ساقطة في براثن الوهم، يتطرف بعضهم فيصل إلى الوهم القاتل الضار وهو وهم الإلحاد بحجة العقل.

جذبتني جملته الأخيرة، فقلت باهتمام:

وهل تعرض لمسألة الإلحاد وربطها بالوهم؟

قال بعينين شاردتين:

لا تتصور يا دكتور كيف هاج وماج عندما لمحت له أن بعضهم يلحد استنادا إلى

العلم، لقد سخر منهم، ووضع باختصار مربط الفرس في وهم الملاحدة وهو «عقولهم» فهم يظنون كأفراد –وليسوا كجماعات– أن عقل كل واحد منهم بمفرده في أي زمن كان هو المرجع الأول والأخير للبشرية في جميع العصور، وبذلك ألَّهوا عقولهم فعبدوها، ورفضوا أن يسجدوا للخالق، لأنهم هم المقياس والمعيار، فهم العقول ولا عاقلين سواهم.

لذا تراهم يرفضون الإنصات إلى صوت العقل، ويسمعون فقط إلى صوت «الأنا» النابع من دواخلهم، فأنواتهم متضخمة متورمة بدون سبب، ثم يدعون أنهم يستندون إلى الواقع ويهجرون الأوهام، مع أن أكثر الناس تعاملا مع الأوهام هم الملاحدة، فهم يبدأون بها طريقهم ولا يستطيعون التنازل عنها في حياتهم، فهم يتعاطونها كمسكنات وعندما تنقطع المسكنات ينتحرون، ثم يدعون الناس إلى الانضمام إلى هذا الوهم القاتل.

قلت متأملا:

وجهة نظر جديرة بالتفكر.

قال: لقد أخذ يحلل لي نفسية الملحد حتى شككت أنه حائز على إحدى عظمى الدرجات في الطب النفسي أو أن زوج أمه كان ملحدا.

إبتسمت من تعليقه وقلت له:

المهم أن الرجل ينبهك إلى الوهم الكبير الذي نعيش فيه باختيارنا بأمثلة عدة لا راد لها، فماذا فعلت لتقنعه بالتنازل عن الزواج أو بالزواج؟

قال بكل بساطة:

لم أفعل هذا ولا ذاك.

قلت: وماذا فعلت إذن؟

قال وهو يبتسم:

الرجل لم تكن عنده مشكلة في الزواج نفسه، ولكن المشكلة في الزوج التي تقبله، لذا دللته على من سيساعده.

**قلت:** من؟

**قال:** هل تتذكر أسامة؟ ذلك العاقل جداً؟

**قلت:** نعم، أتذكره، صاحب المدينة الفاضلة المعاصرة.

**قال:** لقد عرّفته عليه، وقلت له أن هذا الرجل حتما سيوفر له امرأة جد واقعية لا علاقة لها بالوهم، ومن الممكن أن تكون له زوجاً خير من زوجه.

إبتسمت ثم اتسعت الابتسامة حتى صارت ضحكة كبيرة، ثم قلت:

إذا فلقد عملت «خاطبة»؟!

قال مبتسما:

نعم، هذا أربح كثيرا هذه الأيام، ثم إن هذا كان رغبة وحاجة الزبون، والزبون دوماً على حق.

**قلت:** حالة عجيبة جداً، هذا الذي كره الوهم لهذه الدرجة، والأغرب من يعيشون فيه ويتركون واقعهم.

**قال:** الزبون التالي لم يترك واقعه، عاش فيه تماما كما هو ولكن المشكلة أن واقعه كان مريرا جدا إلى درجة كبيرة، لذا أورد نفسه حتفها .. راضيا، مختاراً، عامداً متعمداً.

# أنا والضحية

«هل ترى أنه من الأفضل أن نحتسي بعض القهوة؟»

ولم، بالفعل، لقد تأخر الوقت، ولكن ما فائدة القهوة؟ هل تعتقد أنها منبهة فعلاً؟

«لا ولكننا نوهم أنفسنا أنها تنبهنا، لذا لا بأس من بعض الوهم النافع»

إبتسمنا عند هذه النقطة وقمت لأعد بعض القهوة وقلت له:

أرأيت يا عامر، ليس كل أنواع الوهم ضارة؟

قال: نعم يا دكتور ولكن إذا صار الشيء هو القاعدة العريضة أمكن تعميمها. ناولته فنجان القهوة وارتشفناها سريعاً بدون اتفاق، وبدون أي كلمة.

وما أن وضعناها جانباً حتى قلت له وأنا أنظر إلى الساعة:

هيا احك حكايتك مع الشاذ التالي، الذي تعمد ما تعمد.

قال بعد أن شرد قليلا:

كان هذا الشاذ مختلفاً عن الآخرين تماما، فلقد كان ضحية وساقته ظروفه إلى طريق مظلم، أشد ظلاما من أي طريق آخر، ولكن حتى لا أطيل عليك، أسمع الحكاية لتعلم!

****

أغلقت الهاتف في مكالمة تليفونية، تشاجرتْ فيها زوجي معي. لقد أصبحنا نتشاجر كثيرا هذه الأيام، أو بمعنى أدق تتشاجر زوجي معي، لأني قد تغيرت، لم أعد كما كنت من قبل.

المهم أنهيت المحادثة ووضعت السماعة بكل هدوء، وأذنت للطارق بالدخول، وأنا

**أبتسم بكل هدوء كأني لم أتشاجر حالا مع زوجي العزيزة.**

**نظرت إليه بنظرة أفلحت أن أخفي معها مظهر الشفقة، كانت كل خلجة من خلجاته توحي أن هذا الفتى مكسور .. نفسيا، مشيته، إنحناءة رقبته، نظراته الزائغة المليئة بالحزن، ذقنه النامية، ملابسه وأعني طريقة اختياره لملابسه وألوانها، لا أنها كانت غير مهندمة ..**

**طلبت إليه الجلوس بتلك الابتسامة الحنون الودود، وبدأت آخذ منه بياناته الشخصية، كان اسمه مهاب –اسم على غير مسمى تماماً– في الثالثة والعشرين من عمره، خريج كلية الحقوق، عاطل، يحمل بقايا وسامة انقرضت منذ أزل.**

**سألته بدون أن أخفي ملامح الشفقة بعد أن جلست إليه:**

**ما مشكلتك يا مهاب؟**

**ما أن سمع السؤال حتى رفع إلي عينيه ثم حولها سريعاً، فلم يطل النظر إليّ وقال بسخرية مريرة:**

**مشكلة؟ .... هناك الكثير والكثير منها، من الأفضل أن تسألني مما لا تعاني.**

**قلت له بصوت هاديء:**

**لا مشكلة، نُعدّل السؤال قليلا، مما تعاني، ومن فضلك ركز على المشكلة الأساسية؟!**

**عاد فأطرق ونظر إلى الأرض وأخذ يقرض أظافره، ثم قام وذهب ووقف أمام النافذة ثم قال:**

**أنا أعرف أنك ستسيء فهمي وتظن بي الظن السيء، ولكن أرجو منك أن تتفهم موقفي بعد أن تسمع حكايتي.**

**قلت وقد بدأت ابتسامة كبيرة في التكون في صدري:**

**أقسم لك أني سأتفهم موقفك تماماً.**

**صمت فترة قصيرة ثم قال:**

أنا شاذ.

انتقلت الابتسامة من صدري إلى شفتي، وقلت له بصوت هادئ مكملا كلامه:

ولكنك لست شاذا بالمعنى المفهوم المعروف، بل تحمل شذوذا في مجال آخر، لا يفهمه الناس ولا يقدرونه.

التفت إلي وقد حملت ملامحة ملامح الدهشة والاستغراب مما أقول، ثم عاد وأعطاني ظهره مرة أخرى ثم قال:

لست أدري ما الذي دفعك لتقول ما قلته، ولكن أود أن أقول لك أن استنتاجك جد خاطئ، مجانب للصواب، فأنا شاذ بالمعنى المألوف للكلمة أم أنك تريد أن أقولها لك بالعامية.

شعرت أنه يكاد يبكي وهو يتلفظ بالجملة الأخيرة، وأن الكلمات تكاد تخنقه وهو يتلفظها فازداد شعوري بالشفقة تجاهه، فقلت له:

معذرة، ولكني مررت في الفترة الأخيرة بمجموعة من الخبرات والتجارب والتي دفعتني إلى قولي هذا، لا عليك يا مهاب، إذهب واستلقي على الأريكة!

إتجه بخطى متثاقلة واستلقى على الأريكة بدون أن يرفع عينيه من الأرض، وما أن استلقى على الأريكة حتى أغمض عينيه ولم يفتحهما أبدا طيلة الجلسة.

قلت له:

أنا متفهم موقفك تماما، لذا أرجو منك أن تأخذ راحتك تماما، وتحاول أن تلغي أي شعور بالخجل كلية، وتتحدث بكل تلقائية كأنك تحادث نفسك، واطمئن كل الاطمئنان فأنت وأسرارك محفوظة تماما.

لم يعلق أو يرد على ما قلته وإن لاحظت أن هناك ابتسامة ساخرة طغت على وجهه، فقلت له:

يمكنك أن تبدأ الآن القص، أحك لي هل ولدت هكذا أو أنك لأسباب معينة أو

لحوادث معينة تحولت فصرت شاذا!

خرج صوته متحشرجا:

بطبيعة الحال أنا لم أولد هكذا، بل حدثت لي كوارث حتى صرت بهذا الشكل، وسأحكي لك كيف صرت إلى ما أنا فيه، .... أنا فعلا بحاجة إلى التنفيس عما أشعر به وإلا انفجرت، ولكن أرجو ألا تقاطعني!

كنت شابا مرحا مبتسما للحياة، أخ لأختين، يطمح أبي وحتى أمي أن أحمل اسم العائلة –كأنها عائلة الناصر صلاح الدين– كنت أنا الأصغر بين إخوتي، تزوجن مبكرا، ولم يبق مع والداي إلا أنا، نجحت في المرحلة الثانوية بمجموع باهر أهلني للالتحاق بكلية الحقوق! ودخلت الكلية، كنت انطوائياً بعض الشيء، فلم أصاحب أي فتاة، وكان لي قليل من الأصدقاء.

مرت السنون في الكلية، أذهب إلى الكلية أحضر المحاضرات، أعود فاستذكرها وأدخل الامتحانات لأفرغ ما استذكرته. والحمد لله نجحت في السنوات الثلاث الأولى بامتياز، وتوقعت أن يكون الحال كذلك في العام الرابع، وبدأت الأحلام تراود مخيلتي، أن أصير وكيل نيابة ثم أرتقي في السلك القضائي، وظللت هكذا إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، لا أتذكر تاريخه تحديداً ولكنه كان قبل امتحانات الفصل الدراسي الأول في الصف الرابع حيث جاءنا زوار الليل.

قلت بحذر: هل تقصد رجال المباحث؟

لاحظت أن شفتيه بدأتا في الارتعاش وهو يقول:

نعم، طرقوا الباب بعد الرابعة فجرا بكل رقة، فاستيقظنا مذعورين وقام أبي ليفتح الباب، فدفعوه بكل رفق وأسقطوه على الأرض بكل حنان، واقتحموا البيت بكل أدب وأخذوني من فراشي على الرغم من توسلات أبي وأمي.

غطوا عيني بعصابة سوداء، ورُفعتْ من عليهما وأنا في مكان لست أدري ما هو، بدأت جلسات الاستجواب المريرة، والتي يراعى فيها كل حقوق الإنسان، وطبعاً لما لم يكن

لدي ما يعجبهم، فقد تعاملوا معي كما ينبغي، ولما أصررت أنه لا علاقة لي بأي تنظيمات إرهابية محتملة أو غير محتملة، بدأت ألوان العذاب الرقيقة، ولما رجوتهم أن يعدوا لي ما يرغبون فيه وأنا مستعد للتوقيع عليه رفض الضابط، والذي أخطأ خطأه الأكبر عندما سمح لي بمعرفة اسمه، وقال أنه لا يلفق التهم للناس. ولكنه يستطيع أن يجبرهم على الاعتراف.

وكان ذلك اليوم المشؤوم الذي ربطوني فيه وأدخلوا علي وحش غير آدمى، لم أرى وجهه، وحدث ما حدث. ولك أن تتصور الذل والهوان والألم النفسي والجسدي الذي عانيت منه في هذا اليوم، وتكرر الأمر مرات عدة، وأنا لا أجد ما أقوله، إلى أن جاء اليوم الذي سمحوا لي فيه بالانصراف مع تهديد ظريف إذا أنا بُحت بما حصل، فسي...

بداهة لم أكن أنا بحاجة إلى هذا التهديد حتى لا أخبر أحداً، وعدت وأنا جريح النفس والجسد، وقد فاتتني كل امتحانات الفصل الأول ولم يكن لدي أي استعداد أو قدرة لدخول الفصل الثاني، عدت إلى منزلي وأنا محطم تماما، ظللت حبيس المنزل، عدت لأجد أبي مريضا، طريح الفراش، لقد بحث عني في كل مكان فلم يجدني، فأصابه المرض، ولازم الفراش، وعندما عدت، لم أعد كما كنت من قبل بل صرت شبحا لما كنته، شبح إنسان لا يغادر المنزل، فأصاب والدي الهم بعد الغم، فازداد مرضاً.

حاول أهلي إقناعي بالخروج من المنزل، فخرجت أتجول على غير هدى، مجرد تجوال، المهم جاء الوقت الذي اكتشفت فيه أنني تحولت إلى شاذ! لم يحدث هذا التحول فجأة ولكنه مر بالمراحل الثلاثة المعروفة، كُره وتقزز، عدم استطاعة أو تقبل في بداية الأمر، ثم ينتقل الأمر بعد ذلك إلى مرحلة التقبل وصيرورته أمراً عادياً، ثم للأسف الشديد ينتقل الأمر إلى مرحلة التلذذ بالشيء والبحث عنه والاشتياق والحاجة إليه.

وبسبب حالة الانكسار التي كنت أعاني منها، لم أستطع مقاومة الرغبة، فتعرفت على بعض الشواذ من الإنترنت، ودخلت في هذا الطريق الأسود.

في هذه الفترة مات أبي، مات حزنا وكمدا على إبنه الوحيد، والذي لم يعد كما كان، كانت لطمة إفاقة.

توقفت لأفكر ولأنظر لحالي: رأيت عجباً، هل كان من الممكن أن أتصور مجرد تصور، أن يصير هذا حالي قبل بضعة أشهر لا تصل إلى العام؟ حزنت على موت أبي حزنا شديدا، وقررت أن أنتقم لأبي.

قلت وأنا أقاوم الدموع:

تنتقم مِن مَن؟

قال وقد بدأ جسده في الانتفاض:

من الضابط، طبعا لم يكن لدي القدرة أو الجرأة لأقتله أو أضربه ضرباً مبرحاً، فقررت أن أذيقه ما أذقاني وعائلتي، حصلت على بياناته، ولا تسألني كيف، راقبته فعرفت مسكنه، وتنقلات أولاده، قمت أنا وزملائي باختطاف ولده الأكبر وفعلت به ما فعل بي، وهددناه ونصحناه بألا يخبر والده، وبالفعل حدث.

ثم اختطفنا إبنته وفعلنا بها نفس الفعل ثم أطلقناها، وقبل أن تعود إلى المنزل، كان أحد الزملاء يتصل به تليفونياً ليخبره بما فعلناه بابنه وابنته، اكتفينا بالاثنين ولم نتعد إلى باقي أبنائه.

شعرت أنني قد أرويت شهوتي في الانتقام، فلقد كسرت عينه ودمرت له أولاده، حتى يعلم هؤلاء كيف يكون شعور العائلات البريئة أو حتى المذنب أبناؤها، كيف يكون شعورهم بالغبن وبالضياع، لابد من أن يذوق هؤلاء كأس السم الذي يذيقونه الناس.

وبعد أن هدأت نفسي قليلا، أخذت أفكر فيما فعلت، هل كان ما فعلته صحيحاً، أم أنه كان تصرفاً خاطئا؟ والعجيب أني كنت ألوم نفسي على اعتدائي على أبنائه لا عليه هو نفسه، ولكن لم يكن تأنيب ضميري عاليا.

أخذت أنظر إلى هذا الفتى المستلقي أمامي على الأريكة، وقد انقلبت نظرتي إليه، أهذا الذي كنت أشفق عليه، قاس إلى هذه الدرجة؟!

نعم، لقد مر بظروف عسيرة، ولكن هذا ليس مبررا ليفعل فعله، إن هذا الفتى خير مثال للضحية، التي تنقلب إلى جلاد! احترت في مشاعري تجاهه، أأشفق عليه، أم أكرهه أم أحتقره؟!

انتبهت إلى أن ذهني قد شرد ولم أعد استمع إلى ما يقول، فهززت رأسي واستكملت الإصغاء إلى ما يقول:

إلى أن جاء يوم مشؤوم آخر أخبرني فيه أحد الشواذ أصدقائي، أن ابن هذا الضابط قد انتحر.

لا تعرف كم ازدادت الدنيا بؤسا في عيناي، وكم سيطر علي الشعور بالذنب، لم نأخذ الطير بذنب أهله؟ كان ينبغي أن نعاقب الأب لا الأولاد! وبدلا من أن أتوب وأندم، قررت أن أقتل هذا الضابط، الذي تسبب في موت أبي ودفعني إلى ما فعلت بابنه، فأدى إلى موت ابنه.

أخبرت زملائي بنيتي هذه، تردد بعضهم، ووافق آخرون، بعد أن مر أربعون يوماً على وفاة ابنه، قمنا بخطة قذرة لاصطياده، وسقط فيها ذلك الحيوان، وكان سقوطه دافعا لأن نذبحه بدماء باردة، استلمناه من العاهرة وذبحناه، ودفناه في مكان لا يخطر ببال أحد، عُدَّ من ذلك اليوم في عداد المفقودين، ولكنا كنا نعلم أين ذهب ذلك الحيوان الأثيم.

لا تتصور كيف صارت نفسيتي في هذه الأيام وكيف صارت ليالي وأحلامي، لقد أصبحت أستيقظ من النوم مفزوعاً صارخاً مبتلا في عرقي وبعض الأحيان في بولي، ازددت شحوبا يوما بعد يوم، وبطبيعة الحال لم أقرب الكلية في العام التالي كذلك.

كانت والدتي تتوقع أن يتحسن حالي في تلك الفترة وأبدأ دراستي بأي شكل في العام التالي، ولكن لما صار هذا حالي، مرضت والدتي أيضاً، ثم سرعان ما أدركت والدي، وهكذا صرت وحيداً، طريدا في منزلنا، لا أنيس ولا جليس إلا الخوف والبؤس والحزن والشيطان.

رأيت في هذه الأيام ليالٍ أسود من الليالي السوداء، لست أدري كيف أصفها، ولكن ما أعرفه أن مفهوم اليوم اندثر عندي، فلقد أصبح اليوم عندي يتكون من ليل وليلة وليس ليل ونهار، ساءت علاقاتي بإخوتي البنات، وأصبحت من معتزلي الناس، أظل نهارا في بيتي حائراً مضطرباً أتجول في الشقة، وما أن يحل الليل الطبيعي وينصرف الضوء حتى أخرج فأهيم على وجهي في الطرقات كالمجنون، أضرب هذا وأسب ذاك وألكم هذا.

تعرفت على بعض البائسين والمعاقين من أمثالي، استمعت إلى حكاياتهم وظروفهم، فهون ذلك علي بعض الشيء من باب «من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته»، وزادني ذلك حزنا من ناحية أخرى، أصبحت أرى الدنيا كابوسا كبيرا، كابوس لا أستطيع الاستيقاظ منه، والعجيب أنه لم يخطر ببالي فكرة الانتحار قط، وأنا أحمد الله، لأنها لو خطرت ببالي، مجرد "مرت" ببالي، لنفذتها مباشرة، ولكن الحمد لله ما جالت بخاطري.

قلت وأنا أجفف دموعي، التي لم يرها لكونه مغمض العينين:

معذرة، ولكن كيف كنت تحيا في هذه الفترة، أقصد الجانب المادي؟

قال بهدوء: من المعاش، بالإضافة إلى أن أختاي لم يتركاني على الرغم من سوء العلاقة بيننا، ولكنهما كأختين كبيرتين كانا يقدران حالتي.

قلت متفهما مشفقا:

حالة سيئة جدا، كان الله في عونك، لقد مررت بظروف كافية تماما لأن تصاب بجنون تام، ولكنك والحمد لله لازلت تحتفظ بعقلك، هل لي أن أسألك:

هل ازداد الوضع سوءً أم أنك بدأت في التغيير؟

قال بمرارة:

لا أعتقد أن الوضع كان سيسوء أكثر من ذلك، في إحدى الثورات التي مررت بها في المنزل جلست لألتقط أنفاسي بعد أن أوشكت على تكسير أحد الجدران بقبضتي

ورأسي، أو تكسير رأسي وقبضتي بالجدار، وأخذت أفكر في لحظة الإعياء هذه التي تفصل بين الوعي واللاوعي.

أخذت أفكر في حالي؛ فبعد أن كنت أُمنّي نفسي بمستقبل مشرق باهر أو حتى ممل عادي، ها أنا ذا قبل أن أتجاوز الثالثة والعشرين قد مررت بكل ما هو أكثر من كاف لتدمير حياتي لا مستقبلي فقط، لقد صرت شاذا، ذا علاقات بفتيات، قاتل، مغتصب لضحيتين لا ذنب لهما إلا أبيهما، باختصار أصبحت وحشا شاذا. ثم غبت عن الوعي.

وبعد أن استيقظت من غيبوبتي كان حالي مثل قبلها تماما باستثناء التوصيف الذي وضعته لنفسي ألا وهو أنني وحش شاذ، واستمرت علاقتي مع أصحابي الشواذ إلا أني أخذت أنظر إليهم من هذا المنظور، فوجدت أنهم كلهم تقريبا مثلي؛ وحوش شاذة، سواء كانت الوحوش التي تحكمهم ظاهرة أو باطنة، بمعنى إما أنهم فعلا وحوش أو مشروع وحوش تنتظر الانقضاض، على الرغم من أن كل الذين تعرفت عليهم أو تعرفت على قصصهم تعرضوا لحوادث في صغرهم أو كبرهم قادتهم إلى هذا السلوك.

قاطعته قائلا:

معذرة، ولكن كم شاذا تعرفت عليه؟

قال بعد لحظات تفكير سريعة:

ليس كثيرا حوالي ثلاثين، ولكن كان كل منهم يحكي عن أصدقاء أخر لهم نفس وضعنا، ولست أدري ما الذي كان يدفعني للسؤال عن كيفية تحولهم، ولكن كانت النتيجة واحدة تقريبا بالنسبة لحوالي خمسين ومائة حالة.

كلها تعرضت بلا استثناء إلى حوادث وظروف ساقت إلى شذوذهم، وما سمعت أن واحداً منهم ولد هكذا، أو شعر بميول من نفسه إلى جنسه بدون ضغوط عنيفة جدا جدا.

قلت لنفسي: نتيجة غريبة تخالف ما قيل لنا، ولكن ما العجب في ذلك، ألم ندرس هذا في كتب غربية لكُتّاب غربيين من حالات غربية، تخضع لبيئات معينة، لم نتوقع

أن يصدق ذلك في العالم العربي إذن؟!

قلت له:

لدي سؤال نستكمل بعده الحديث مباشرة، هل أطرحه؟

قال: تفضل!

قلت: هل تعتقد أن هناك فعلا أن هناك بعض الشواذ، يولدون هكذا باختلال في الجينات تجعلهم «مثليين» بغير إرادتهم كما يقول الغربيون؟

صمت قليلا ثم قال:

لا أعتقد، في الواقع أنا أميل إلى رفض هذا الكلام، وأرى أن هذا تضخيم من الغرب، أنا أرى أن أكثر من 99 في المائة من الشواذ شذوا بسبب حوادث أو باختيارهم – كما يحدث في الغرب–، أما مسألة اختلال الجينات هذه فلا يزيد عن واحد في المائة من عدد الشواذ وليس عدد العشر بأي حال.

قلت وأنا أدون هذا الرأي:

حسنا، أكمل.

قال: منذ أن بدأت أرى نفسي وأراهم كـ «وحوش شاذة» حتى بدأت تتغير نظرتي إلى الحياة وإلى نفسي وإليهم تغيرا جذريا.

قلت: أي نوعٍ من التغير؟

قال وقد بدأ في الارتجاف مرة أخرى:

بعد أن كانت تسيطر عليّ مشاعر الإحباط والبغض للبشر وللمجتمع، واليأس وفقدان الهدف، سيطر عليّ شعور واحد .... الشعور بالخوف.

قلت: مم؟

قال: من نفسي، منهم، من الناس وعليهم، وكان الخوف بداية التغير في حياتي.

قلت: جيد، كيف حدث هذا التغير؟

قال بصوت متقطع كأنه يبكي:

أدركت أنني لم أعد ذلك المنتقم، لقد تحولت إلى شيء آخر، شيء نسي معنى الانتقام وألف هذا النمط من الحياة، فقررت أن أقطع علاقاتي بهؤلاء الشواذ وأن أمنع أذاي عن الناس، فاعتزلتهم وما يفعلون ... وظللت حبيس المنزل.

فترات طويلة قضيتها في المنزل تراودني الرغبة في الخروج، وأنا أمانع نفسي، أخدع نفسي أحيانا بأني سأخرج فقط للتمشية والتجول ثم أعود، فأخرج من المنزل ثم أعود، أجلس في ركن من أركان المنزل، أبكي على حالي، بعض الأحيان أقوم فأركل أثاث المنزل، أخبط الجدران، إلى أن أنعم الله علي الإنعام الأكبر الذي أخرجني مما أنا فيه.

قلت: ماذا حدث؟ كيف كان هذا؟

قال وقد عاد إليه هدوءه:

كنت في إحدى ثورات الهيجان –والتي أُعيد بعدها كل شيء إلى مكانه– فأخذت أقلب قطع الأثاث فاصطدم الكرسي بالمكتب، فسقط من على المكتب كل ما عليه من كتب، كان يعلوها التراب إلا كتاب واحد، فاندفعت لأسقطه وأطيح به أرضا هو الآخر ...

توقفت يدي قبل أن تصل إليه، فلقد اكتشفت أنه القرآن ... كتاب الله.

في هذه اللحظة تذكرت أنني مسلم، وأنه ثمت كتاب رحمة وهداية للناس.

توقفت يدي في الهواء ولم أستطع أن أعيدها إلى مكانها .....

تسمرتُ كلي في مكاني لفترة لا أعلم مداها، ثم بدأت في البكاء .......

سقطت في الأرض، أخذت أتقلب وأتمرغ وأضع التراب على رأسي ....

كان بكائي وتقلبي هذه المرة مختلفا تمام الاختلاف عن المرات السابقات، لقد كنت أبكي جزعا وقلقا وضيقا، أما الآن فأنا أبكي حسرة .. حسرة على ما فرطت في جنب

الله.

تذكرت أن هناك إله سأقف أمامه ليحاسبني على ما قدمت يداي، إله غفور رحيم، شديد العقاب.

اكتشفت أني كنت قد نسيت الله تماما في هذه المعادلة؛ .... معادلة الانتقام والضياع والخسران.

بكيت حتى لم أجد دموعا أذرفها أو نحيبا أخرجه، فانقطع صوتي وجفت دموعي وهنا أيقنت أني حتما سأغير مصيري وطريقي.

شعرت براحة وهدوء بعد هذا البكاء، لم أشعر بها منذ أكثر من عام، منذ وطئت قدمي ذلك المعتقل المشؤوم، شعرت أن نفسي تُغسل من داخلي.

قمت فاغتسلت فعلا فشعرت أني أغتسل داخلا وخارجا، عدت وحاولت أن أمسك المصحف لأقرأ فلم أستطع.

بكيت مرة أخرى، بكيت ... وبكيت وكلما أبكي أشعر أن حملا ينزاح من على عاتقي، قمت لأغسل وجهي من أثر البكاء فوجدت نفسي أتوضأ، فصليت ...

وبعد الصلاة أمسكت المصحف وقرأت، وما أن قرأت حتى شعرت برجفة وبزلزال داخلي، أكملت قراءتي ووضعت المصحف، وقمت فمزقت ثيابي، وقمت فأشعلت النار في كل ثيابي، ونزلت بالبنطال والفانيلا واشتريت ثيابا جديدة.

كنت أريد أن أقطع أي شيء قد يذكرني بالماضي، حذفت أرقام هواتفهم من هاتفي، عدت والتزمت الصلاة ولكن في البيت، ولم يعد أمامي إلا الصلاة وقراءة القرآن والبكاء.

بعد فترة استطعت أن أخرج لأواجه الناس وذهبت لأصلي في المسجد. كنت كثير البكاء في الصلاة حتى أن رواد المسجد لاحظوا ذلك، وذات مرة لم يحضر الإمام، فأجمع المصلون على تقديمي للإمامة، حاولت الرفض ولكن ما من مجيب، فلقد جذبوني جذبا وأدخلوني المحراب، توقفت أمام المحراب وأنا أرتجف، أخذت أفكر،

هل سيقبل الله صلاة هؤلاء إذا صليت أنا بهم، فكرت في الجري، ولكني منعت نفسي في اللحظة الأخيرة، صليت بهم، كانت صلاة العشاء.

صليت وكالعادة بكيت، وبكيت وبكى المصلون ورائي، وبعد الصلاة وعند المصافحة هم أب فاضل أن يقبل يدي ظناً منه أني إنسان صالح، فسحبت يدي وقمت أنا فقبلت قدميه وأنا أبكي.

ولا تتصور كيف أصبح الناس يعاملونني بعد هذا اليوم، لقد أصبحت أُعامل كولي من أولياء الله، وزادني هذا حملا على حمل، فأنا لم أتطهر بعد من أدران الماضي، ثم أجد نفسي في هذا الموقف.

وجدته يبكي عند هذه النقطة، يبكي بدون أن يفتح عينيه، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فبكيت وكانت هذه أول مرة أبكي فيها في العيادة منذ افتتاحها، بكينا إلى أن شاء الله، ثم قلت له وأن أجفف دموعي:

ما المشكلة إذن أخي، لقد تبت توبة نصوحا؟

قال بصوت متنهد: يا سيدي الحمل ثقيل، قتل ولواط وزنى و... و... القائمة طويلة ..

قلت له: إن الله يغفر الذنوب جميعا.

قال وهو يتنهد:

ونِعم بالله، أنا أعرف هذا، وأرجو من الله ذلك، فأنا لا أيأس منه أبدا، ولكن ليس لهذا أتيت، لقد أتيت لشيء آخر.

قلت له: لا تقل لي أنك تشعر أنك لا تزال شاذا!

قال بحرارة:

الحمد لله، هذه أيام ولت، ولكن يبدو أن دابرها لم ينقطع.

قلت بحذر:

هل لا تزال تجد في نفسك ميلا إلى بني جنسك؟

**قال بمرارة:**

**لا، لقد انقطع هذا تقريبا، إلا بعض الخواطر الطارئة، والتي سرعان ما أطردها بالاستغفار وذكر الله.**

**قلت متسائلا:**

**وما المشكلة إذن؟**

**قال: الاحتلام.**

**قلت: ماذا به، هل ترى نفسك شاذا في الحلم؟**

**قال وهو يشبك يديه على صدره:**

**لا، لا أعتقد هذا، كان هذا في مبدأ الأمر ولكن الآن انقطع ذلك بحمد الله.**

**قلت: وما المشكلة؟ ألا تحتلم أساسا أم ماذا؟**

**قال: لا، لقد أصبحت أمُرُّ بحالة غريبة، وهي أني لا أكمل الحلم أبدا، ففي الحلم أقول لنفسي إن ما تفعله هذا حرام ولا يصح، أو حتى في بعض الأحيان أقول لنفسي: أنت في حلم الآن وستلوث نفسك في فعلك هذا، ثم أستيقظ مع الإنزال وأنا أشعر بالمرارة والندم على فعلي، وإذا لم أجد ذلك في الحلم ومر الحلم بشكل طبيعي أجد نفسي أستيقظ عند الإنزال، وأجد ذات الشعور بالندم.**

**فهل تجد تفسيرا لهذه الحالة؟ هل هي آثار رفض للمارسة الطبيعية مع النساء حتى ولو في الحلم؟ أم أن هناك تفسير آخر؟**

**قلت في نفسي: هذا المسكين لم يأت عندما كان يمر بحالته المعقدة، ويأتي الآن ليسأل عن هذه المسألة. ولكن ما المشكلة، في تلك المرحلة المنكسرة كان يرفض الاعتراف أنه مريض، أو أن ما يفعله خطأ، أما الآن فهو يريد أن يعيش عيشة سليمة، ويخشى أي شيء قد يبعده عنها!**

**تفكرت قليلا فيما قال، ثم قلت له:**

على الرغم من غرابة حالتك، فهي المرة الأولى التي أسمع بها، إلا أنه من الممكن أن أجزم لك أن هذا لا علاقة له بوضعك السابق، بل هو ناجم عن وضعك الحالي.

قال: بمعنى؟

قلت: بمعنى أن نفسك عافت هذا الشيء بجميع أنواعه وأشكاله حتى الطبيعي منها، ولكن لما كان للجسد طاقة لابد من تفريغها فإن هذا يحدث في الاحتلام، ولكن لما أصبحت نفسك الآن في قمة الطهر والنقاء فهي تقول لك: لا تفعل، هذا حرام! حتى في الحلم.

أو حتى تنبهك إلى أنك في حلم وأنك في سبيلك إلى الاحتلام حتى لا تقع في ما تلوث به نفسك. وإذا تجاوز عقلك هذه المرحلة فتوقظك نفسك عند الإنزال مصحوبا بشعور الندم.

إطمئن يا مهاب لا مشكلة البتة عندك، هل أتيت من أجل هذا فقط؟

قال: أولا وقبل أي شيء آخر، أتيت من أجل أن أعترف وأزيح هذا الهم الجاثم على صدري،

ثانيا: لم يكن عندي أي استعداد للارتداد إلى الحالة السابقة التي كنت فيها، فما أن لاحظت هذا حتى أتيت، ووقانا الله الشذوذ وأحواله.

****

قلت وأنا أجفف دموعي:

قصة مؤثرة فعلا، لقد عانى هذا الشاب كثيراً، مر بما لم يحلم به أو يخطر بباله في يوم من الأيام أنه سيمر به، آذى كثيرا، وأوذي أكثر، فكان معظم أذاه واقعا على نفسه.

قال: نعم يا دكتور، مر بظروف وضغوط هائلة، على الرغم من ذلك لم يخطر بباله أبدا

**أن يذهب إلى طبيب نفسي، وعندما مر بهذه الحالة الغريبة أسرع إليّ، لقد أراد المحافظة على نقائه، لقد خشى الردة إلى الضياع.**

**قلت: هل تعلم أن هذا الشاب بلغ درجة من النقاء سيطرت على جوارحه وعلى عقله الظاهر والباطن، هذه الحالة لم أسمع بها قط.**

**قال: لا تنس يا سيدي الفاضل أنه مر بظروف لا يحتملها بشر، وتدنس بنجاسات وأحمال عظيمة، فلابد أن يكون رد فعله على هذا المنوال.**

**أخذت أفرك عيني وأنا أقول:**

**معك حق فيما تقول.**

**إتجه ووقف إلى النافذة وأخذ ينظر إلى الطريق مرة أخرى، ثم قال بعد فترة صمت:**

**لقد رأيت أنه من واجبي كطبيب نفسي أن أهدي هذا الفتى هدية تنفعه، وتشجعه على استكمال عامه الدراسي الأخير، حتى يتخرج في كليته التي يدرس فيها.**

**قلت: وماذا أهديته؟**

**قال: أهديته لوحة كبيرة جدا، باختصار لوحة جدارية مكتوب عليها قول الله تعالى:**

**﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾**

**قلت بخضوع خاشع: صدق الله العظيم، وما أجملها من هدية! هدية مناسبة فعلا لمن أسرف وطغى في حق غيره.**

**قال: الآخر كان على العكس منه تماما، فلقد كان أكبر همه ومدار حياته: هم.**

**قلت في حيرة: من «هم»؟!**

**قال وهو يبتسم:**

**إغسل وجهك أولا ثم إسمع لتعرف.**

# أنا والآخر

إرتفع صوت الهاتف فرددت بصوت متهالك:

من؟ زوجى العزيزة، لا، لا حالة طارئة، لا تقلقي، نامي أنت، لن يتكرر ذلك أبدا. وضعت السماعة وقلت:

زوجي تتصل لتطمئن علي.

قال بخبث:

ألا تحمل هاتفا جوالا؟

قلت: نعم، لماذا تسأل؟

ثم انتبهت لما يعنيه بسؤاله، فابتسمت ابتسامة سرعان ما تحولت إلى تثاؤب غطيته بكفي، ثم قلت له:

لم يبق إلا حالتان، حاول أن تنجز بسرعة لقد اقترب الفجر، وأود أن أدرك الإفطار مع زوجي وأولادي في المنزل.

قال بكل ثقة:

اطمئن ستدرك الإفطار بإذن الله، فلن تستطيع أن تنام قبلها، أعدك بذلك.

تعجبت من تأكده ولكن أيقنت أن لديه حالات جيدة يقصها علي، فقلت وأنا أتثاءب:

إذن أسرع يا عامر، فليس أمامنا من الوقت الكثير.

****

جلست أنتظر الزبون الأخير، أصبح الأمر سيانا، فسواء كان شاذا أم مريضا فما هي إلا

**دقائق أو حتى ساعات وينقضي الأمر، وأعود إلى داري إما بلا شيء أو محملا بمنظور جديد للحياة.**

**طُرق الباب، فأذنت له فدخل. كان شابا في الثلاثينات من عمره، لا تحمل ملامحه أو ثيابه أي علامة من علامات التميز، ما أن تراه حتى لا تأخذ انطباعا بأي شيء ولا حتى بالسلبية!**

**طلبت إليه الجلوس، وبعد التحيات وجمل الاستقبال بدأت في أخذ بياناته الشخصية، كان اسمه عادل، شاب في الحادية والثلاثين من عمره، يعمل كصاحب محل بقالة كبير، خريج كلية العلوم.**

**سألته: ما مشكلتك يا أستاذ عادل؟**

**نظر إليّ وأطرق إلى الأرض، ثم قال:**

**أرجو منك ألا تسيء فهمي أو تظن أني ...**

**لم أستمع إلى باقي الجملة، فلقد أصبحت مكرورة بالنسبة لي، فهو صاحب حالة غريبة ويرجو أن لا أظن أنه ..**

**قطع حبل أفكاري الكلمة التي ألتقطها بالكاد بسبب شرود ذهني فلقد قال:**

**ضعيف الشخصية.**

**قلت لنفسي: قد خيبت ظنك هذه المرة فيبدو أن الحالة هذه المرة عادية جدا، شخص يشكو من عدم المقدرة على مواجهة الآخرين أو الاضطراب عند معاملتهم.**

**قلت له:**

**اطمئن، احك لي كل ما لديك، وأنا سأنصت لك تمام الإنصات، أما الحكم فسيكون بإذن الله عادلا ومناسبا للحالة، مما المعاناة إذن يا أستاذ عادل؟ احك وبالتفصيل الممل إذا أمكن!**

**تردد ثم قال:**

**لست أدري كيف يمكن أن أصف لك حالتي، ولكن يمكنك القول أنني «شاذ حسابيا».**

**رفعت إليه رأسي مندهشا، وأنا أتفكر: «شاذ حسابي» ما هذا النوع الجديد، هل هو حالة عادية أم حالة شاذة؟**

**لذا قلت له بفضول لم أحاول مداراته:**

**ماذا تعني به «شاذ حسابي»؟**

**قال بعصبية:**

**أرجو أن لا تعتقد أن شذوذي له علاقة بالرياضيات ولكنه «شذوذ حسابي».**

**أخفيت هذه المرة حيرتي، وأنا أقول بلهجة من لا يهمه الأمر:**

**لا أفهم!**

**قال بعد أن قام وأخذ يتجول في الغرفة:**

**من تراه أمامك لا يمكنك أن تصنفه كمريض نفسي، ولكن يمكنك أن تراه حالة شاذة أو حتى «إنسانا شاذا» ولكن كان لي من الأسباب والدوافع والظروف ما دفعني وأدى بي إلى الوصول إلى هذه الحالة، ولكن على أي حال هي ...**

**دعك من تشخيصي، واسمع ما أقصده بـ «شاذ حسابي».**

**قلت له: تفضل، إنني هنا لأسمع!**

**توقف عن ذرع الغرفة وقال بضيق:**

**أنا أحسب كل خطوة أخطوها في حياتي، وما يترتب عليها وما يترتب على نتائجها وما قد يتشعب عنها وآثارها علي وعلى الآخرين.**

**ولقد سئمت من هذه الحالة وأريد أن أقلع عنها، أريد أن أعود إنسانا طبيعيا، أفكر فيما أفعله أو لا، أحسب خطواتي بشكل متزن لا مبالغة فيه، أحمل بعض البرود تجاه تصرفاتي وأفعالي، أريد أن أنعم بنعمة النسيان.**

قلت له وأنا أدون بعض النقاط:

حالة شعور بالمسئولية تضخمت بشكل مبالغ فيه، حسنا هل من الممكن أن توضح لي لم وكيف وصلت إلى هذه الحالة؟

عاد وجلس على الكرسي قبالتي ثم قال:

حسنا سأحكي لك كيف وصلت إلى هذه الحالة، نعم ستجد فيها بعضا من الغرابة، لكنها في النهاية قصصا واقعية ولكنها قابلت شخصية ... لا أطيل الكلام، لأحك لك كيف كان ما كان:

وُلدت في أسرة متوسطة الحال، كان أبي –أطال الله عمره– إنسانا جادا في حياته وفي تعامله، قد يكون قاسيا بعض الشيء حتى أني لم أكن أحبه وأنا صغير، ولكن ما أن تفتحت عيناي على الواقع وبفضل التربية والتوعية اللذين منحهما أبي إياي، أدركت كم هو عظيم أبي هذا.

لقد علمني منذ صغري أشياءً كثيرة ورباني على خصال حميدة ومفيدة، فلقد ربىّ لي عقلا علميا رياضيا سليما، عودني القراءة وحببني فيها، وأهم وأخطر ما رباني عليه هو الشعور بالمسئولية، عودني كيف أعتمد على نفسي منذ صغري. وعلى الرغم من أن أمي كانت تود أن ألهو وألعب مثل كل أقراني من الأطفال إلا أن أبي كان يرى أن قليلا من اللعب أكثر من كاف للطفل.

وبسبب قلة اختلاطي بالأطفال واعتمادي على نفسي أصبحت إنسانا جادا خجولا، ولست أدري كيف اجتمع الاثنان بداخلي، ولكني كنت إنسانا ماهرا خبيرا –بقدر سني أو متجاوزه– ولكني في نفس الوقت خجول بدرجة كبيرة، لذا قررت أن أقضي على هذا الجانب السلبي الذي يسبب لي بعض الإحراج.

صحيح أن هذا الخجل اقتصر على احمرار وجهي ولكن لما الرضى بالضعف، وعلى الرغم من صغر سني، وضعت نفسي في بعض المواقف التي اعتقدت أنها من الممكن أن تقضي على خجلي، ولكن للأسف أدت إلى نتائج عكسية.

**قلت: هل من الممكن أن أعرف بعضها؟**

**قال بعد لحظات:**

**لن ينتج عن ذلك أي فارق، فليست هذه مرحلة فاصلة، كانت هذه مرحلة طارئة حاولت أن أقضي فيها على خجلي، فازداد فيها خجلي وازداد وجهي احمرارا وبدأ التأثير يظهر نوعا ما على كلامي.**

**نظرت إليه محاولا استشفافه، إلا أني لم أفلح في شيء، فسألته:**

**ومتى انتقلت إلى المرحلة التالية إذن؟**

**قال: عندما صرت إلى هذا الحال، قررت أنه لا بأس من الاستمرار في الحياة على هذا الشكل، فأنا لا أعاني من عيوب خطيرة أو عيب جسدي، فالخجل يمكن اعتباره ميزة في بعض الأحيان.**

**ومرت الأيام والسنون، وعلى الرغم من حصولي على مجموع عال في المرحلة الثانوية قررت الالتحاق بكلية العلوم، لما اعتقدته أنها ستثير فيّ التقدم والبحث وتحفيز العقل إلى آخره، ودخلت الكلية.**

**صاحبت بعض الذكور فقط بسبب احمرار وجهي، والذي كان يسبب لي كثيرا من المواقف المحرجة، ولكن زملائي –سامحهم الله– أصروا على أن تكون لي علاقة بالفتيات، نخرج، نتنزه، نذهب إلى السينما، أشياء من قبيل ما يسمونه «بالعلاقة البريئة».**

**ولما كنت غير خبير بمسألة العلاقة النسائية، اختاروا لي فتاة يبدو عليها ملامح الخجل والهدوء، وقاموا بخطة اشترك فيها بعض الزملاء والزميلات حتى أقنعوها أني أحبها.**

**وبالفعل بدأنا بالخروج سويا، وكانت الخروجات بريئة، فلم تكن تسمح لي حتى بلمس يديها، ثم تطور الأمر لاحقا كالعادة، فسمحت لي أن أمسك يدها، ثم تطورت الأمور فأصبحتْ كلاً مباحاً بالنسبة لي –بعد الوعود الكاذبة المعروفة للطرفين–، ولولا أنني**

إنسان أحمل شعورا بالمسئولية لما اكتفيت بممارسات خارجية ولتحولت إلى كاملة.

بعد انقضاء عدة أيام أو أسابيع بدأت أشعر بالقرف والاشمئزاز من الخدعة الكبيرة، التي أمر بها وأخدع بها نفسي وأخدعها بها، بدأت في الانقطاع عنها تدريجيا إلى أن قطعت علاقتي بها تماما، وعدت إلى عادتي ولكن بعد أن اكتسبت بعض الخبرات في التعامل مع الأخريات.

بعد أن قطعت علاقتي بها لاحظت أنها تغيرت تماما، فأصبحت تصاحب هذا أو ذاك وتخرج مع هذا وذاك، تغيرت طباعها وحتى ثيابها، ولا تعلم كم أنّبني ضميري، ولا يزال يؤنبني لأني كنت السبب في فتح باب الفساد لهذه الفتاة.

ومنذ ذلك اليوم قررت أن لا أدخل في أي علاقة نسائية مرة أخرى حتى وإذا كانت بقصد الزواج، فلقد قررت أن أتزوج عبر ما يسمى بزواج «الصالونات».

مرت بعد ذلك فترة معقولة، عشت فيها حياة من تلك التي لا يتذكر منها المرء شيئا عن أي يوم من الأيام، نوم فاستيقاظ فذهاب إلى الجامعة، ثم عودة فمذاكرة فنوم وهلم جرا.

ثم بدأت بعد ذلك مرحلة كارثية عجيبة، ما أن أفعل شيئا حتى ينتج عنه نتائج كارثية، ظهرت كلها في فترة قصيرة استمرت، ثم انقطعت ولكنها كانت كافية لخلق التأثير الكافي.

قلت له:

وهل من الممكن أن أعرف بعضا من هذه المرحلة الكارثية، وما هو التأثير الذي أوجدَته عندك؟

قال بعصبية:

النماذج كثيرة وعلى المستوى العلاقاتي والمستوى العادي، فعلى سبيل المثال يتناقش معي زملائي في بعض النقاط فأثور وأتهمهم بالجهل وعدم الفهم، وبدلا من الاعتذار لاحقا عن ما بدر مني كنت أصر على قولي وأتجنبهم تماما، كأني أقصد أن أقطع

علاقاتي بهم، في هذه الأشهر الثلاثة قطعت علاقاتي بمعظم أصدقائي لأسباب تافهة، وتوترت علاقتي بأبي وأمي.

سألته: ولم تجعل هذه المرحلة عجيبة، لم لا نقول أنها كانت مرحلة قلق واضطراب نتج عنها هذا التوتر والانقطاع في العلاقات مع الآخرين، ثم أتبعها جهل واستمرار على موقفك فظللت على ما أنت عليه؟

تفكر قليلا ثم قال:

من الممكن أن يكون ما قلته صحيحا، ولكن لو كان الأمر اقتصر على ما قلته لكان من الممكن القبول، ولكن حدثت حوادث متواليات، أذكر لك بعضها:

في هذه الفترة فُصل بعض الزملاء من الكلية، فافتقدت زملاءً أعزاء، حوّل بعض الزملاء إلى جامعات أخرى، مات زميلان في حادثة إنقلاب أتوبيس، وأصيب أربعة معهم إصابات بالغة.

كنت في زيارة عند قريبة لي وبينما كنت هناك طلقها زوجها على الرغم من فترة الزواج الطويلة، أصيب بعض الأقارب باكتئاب حاد لوفاة والدهم –قريبا أيضا– وأيضا ..

قاطعته قائلا:

هل أنت متأكد أن كل هذا حدث في ثلاثة أشهر؟

قال بمرارة:

نعم. متأكد تماما.

قلت: وتعجب من انقطاع علاقتك بزملائك، ولكن على أي حال لم يكن لك يد في المسائل الماضية كلها، كل ما هناك أنك كنت في نطاقها.

قال بعصبية المدافع عما يقول:

أنا لم أحك لك عما كنت ضالعا فيه عمداً أو عفواً، على سبيل المثال: كنت أتجول ذات مرة على كوبري قصر النيل ... تعثرت، فاصطدمت بإحدى الجالسات على سور

الكوبري، فسقطت في النيل. ولولا مساعدة أهل الخير لهلكت غرقا.

كنت أمشي ذات مرة فطلب إلي أحد سائقي العربات أن أساعده في رفع عربته لتتحرك من الطين الذي غرست فيه، أخذت أرفع لفترة والعربة تتحرك ببطء شديد وفجأة اندفعت العربة بسرعة شديدة جدا فاصطدمت بعربة مقبلة.

كنت نازلا مرة من عند زميل لي، كان يقطن في أحد المباني القديمة المتهالكة، اعتمدت على «درابزين» السلم، ففوجئت به يتهاوى ولولا فضل الله لسقطت أنا أيضا. كنت أساعد شيخا ليعبر الطريق فيسقط فتنكسر ذراعه.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، وقلت له:

لقد كنت جد محظوظ في هذه الفترة.

قال وهو يضغط على أسنانه أثناء إخراج كلماته:

أنا لم أحك لك عن الكوارث التي حدثت بين بعض المعارف والأصدقاء والأقارب بسبب تصرفاتي حتى لا تسخر مني، ولكن المهم أني كنت «كارثة علاقات بشرية» أو صرت كما يقال: «هادم اللذات ومفرق الجماعات».

قلت: على الرغم من أهمية معرفة كيفية تصرفك في مثل هذه الأحوال إلا أنه من الممكن اعتبارها كأحوال شخصية، تود أنت أن تغض الطرف عنها، لننتقل مباشرة إلى تأثيرها فهذا ما نحتاجه، لذا يمكنك أن تحكي مباشرة عن تأثير هذه المرحلة عليك!

ورجاءً أخبرني بدون أن تضغط على أسنانك، ستنفجر!

نظر إلي في دهشة فاغرا فاه، وهذا هو المطلوب، ثم قال:

حسنا، كانت مرحلة عجيبة أثرت فيّ أيّما تأثير، من الممكن اعتبار بعضها نواتج لبعض آخر، ولكن العنصر الأهم بعد هذه المرحلة هو أنني توقفت فترة لأفكر وأتساءل:

ما أسباب هذه الكوارث التي ألحقتها بنفسي وبغيري، ولم تزامنت مع ما ليس لي فيه يد؟

**لم يكن الأمر بحاجة إلى عميق تفكر وتدبر، فمرجع كل هذا إلى علاقاتي بالآخرين وطريقة سيرها، أخذت أفكر كيف اختلت علاقاتي الطبيعية فجأة بهذا الشكل الفظيع، على الرغم من سيرها الطبيعي طيلة عمري؟!**

**لم أجد حلا أو تفسيرا منطقيا لما مر بي، وقررت أن أتناسى هذه الفترة التي أعلن فيها جزء مني تمرده على علاقاتي، وأبدأ فترة جديدة أعدل وأصلح فيها علاقاتي بالآخرين، ولما اتخذت هذا القرار، كان حتما ولزاما أن أفهم كيف تسير علاقات الناس، قررت أن أنظر نظرة متفحصة لأرى كيف تسير هذه العلاقات لأتخذ فيها –مسبقا– دوما الموقف الأمثل، حتى لا أقع مرة أخرى إلى ما مررت به.**

********

**الله أكبر الله أكبر ... الله أكبر الله أكبر**

**فركت عيني وأنا أتثاءب وقلت:**

**الله أكبر الله أكبر، لقد جرى الوقت سريعا وأُذن للفجر، هل لا يزال لديك الكثير أم؟**

**قال: لا، إطمئن يا دكتور لم يبق إلا القليل، سنصلي أولا حتى لا تضطرب علاقتنا مع ربنا، ثم نعود لنكمل حكاية هذا الرجل الذي اضطربت علاقاته مع خلق الله.**

**صلينا الفجر جماعة في العيادة ثم قمنا فجلسنا، كانت عيناي قد بدأت في الاحمرار، أخذت في التثاؤب، وأثناء تثاؤبي لاحظت أنه لا تبدو عليه أية علامة إرهاق، كما تذكرت أنه لم يتثاءب مرة واحدة منذ أن أتى.**

**لم أعلق على هذه النقطة، فقلت له وأنا أغمض عيني وفمي بيدي:**

**هلا أكملت!**

**نظر إلي نظرة طويلة ثم أخذ في الحكاية.**

****

**قال:** أخذت أتدبر وأفكر في العلاقات بين الناس، فوجدت العجب العجاب، وجدت علائق متشابكة متداخلة لا يحكمها المنطق في كثير من الأحيان، علاقة الوالدين بابنهما والعكس، علاقة الزوج بزوجته، علاقة الحبيب بحبيبته، الجار بجاره، الصديق، الزميل، العدو، الفقير بالغني، الرئيس بمرؤوسه .. إلخ

وبعد أن تدبرت وتفكرت في كل هذه العلائق، وجدت أن العنصر السائد المهيمن هو: اللامنطقية المنفعية.

**قلت:** قد يكون بعض ما تقوله مقبولا، ولكن لا يمكن تعميمه بأي حال، فعلاقة الأب بابنه علاقة تضحية وفداء، ولا وجه للمنفعة فيها.

**قال:** لا، يمكنني أن أجزم لك أن اللامنطقية والمنفعية سائدة في كل العلاقات ولنأخذ ما ذكرت مثلا:

الرجل والمرأة يتزوجان وينجبان ولدا، فيحوطانه بالعناية والحنان، ولكن تأمل! اللامنطقية تحكم العلاقة، فالأب أو الأم يكاد يطير فرحا عندما يتكلم ابنه، ويبدأ في الحكاية للناس كيف يتكلم، لا، كيف يهمهم، كيف يحرك رأسه، كيف يبتسم، يبدأ يزهو في فخرٍ أن ابنه بدأ في المشي، وبدأ في ... وفي ... الخ، ما الجديد؟ كل الأطفال يفعلون ذلك، ولكنها فرحة الأب غير المنطقية، وسروره بأنه أنجب إبنا سليما، فهو رجل فتي فحل، فلقد كان من الممكن أن يلد ابنا معاقا!

ثم ينتفع الأب بابنه، بخلاف مساعدته في شؤون الحياة، فهو الذي جعله أبا، وأرضى فيه شهوة الأبوة، ومكّنه من بسط سلطانه الأبوي عليه، مهيمن عليه متحكم فيه، ثم إن ابنه يحقق فيه الرغبة في الخلود ويعطيه معنى للحياة، فكأن حياته تمتد بحياة ابنه.

****

قلت: ألا تلاحظ أن هذا الرجل ذو نظرة تشاؤمية؟!

قال بعد أن قام واتجه إلى النافذة:

في الواقع أنا أرى أن ... هذا بغض النظر عن ظروفه التي مر بها، أليس كذلك؟

لاحظت أن هناك جزء من الكلام سقط من الحديث، وأن الحوار غير متناسق فأيقنت أنني غفوت قليلا. فقلت بسرعة:

بلى، بلى، أكمل الحكاية.

قال: أخذ بعد ذلك يحكي لي عن نماذج من علاقات الناس ببعضهم، وكيف أن هذه العلاقات المبنية على المنفعية المجردة من الحب، على عكس علاقة الأب بابنه أو الحبيب بحبيبه، قد سببت كوارث في علاقتنا اللاإنسانية، وكيف قاده اكتشاف طريقة سير العلاقات إلى اكتئاب حاد.

قلت وأنا أتمطى:

هل تعلم، أحيانا أفكر أنه من الخير ألا يفكر الإنسان في علاقاتنا وإلا سيصاب بمثل ما أصيب به صاحبك هذا.

قال: المشكلة أنه تفكر في العلاقات بشكل كبير وعلى كل المستويات تقريبا، لقد ظل يحكي لي كوارث ما اكتشف، حتى ظننت أنه كان ينوي الحصول بفكره هذا على درجة الماجيستير، وأعتقد أنه كان سيحصل عليها بدرجة إمتياز جدا.

قلت متعجبا:

إلى هذه الدرجة؟

قال: علاما العجب، أي إنسان يفكر سيصل، لقد قال لي إن نجاحه في حياته العملية عائد إلى هذه النقطة، لقد فهم كيف يدير الناس علاقاتهم فنجح بسهولة.

**قلت:** هل ذكر لك نماذج من تعامله مع الناس بعد فهمه حتى نجح؟

**قال:** لا، لم يذكر أي شيء عن نفسه كنماذج، كما لاحظت في المرتين الماضيين ولكنه ذكر لي كيف أن العلاقات من الدولية إلى الفردية تؤثر عليه أشد التأثير.

قلت وأنا أشير بإصبعي إشارة لم أعرف أنا نفسي لها معنى، ويبدو أنها كانت من آثار النوم!:

كما توقعت، هذا الرجل جد حساس .... لو لم يستطع الإنسان أن ينزع نفسه من أخبار العالم لمات كمدا وحزنا، العالم كله يموج بالظلم واللامنطقية، مجاعات في أفريقيا، كوارث في آسيا، طوام في الشرق الأوسط ..

قال موافقا:

لقد حاولت أن أنبهه إلى هذه النقطة، فثار وقال إن سبب كوارث العالم كله راجع إلى انشغال كل فرد بنفسه، الرأسمالية تركز أيما تركيز على عزلة الأفراد عن بعضهم، واهتمام كل فرد بذلك، ولقد نجحت في ذلك أيما نجاح، فترى الفرد يرى في أخبار العالم جوع وتشريد ومذابح، ثم يغير القناة إلى فيلم رقص وغناء! فتساوى الأمران عنده، بل إنه ينفعل مع الفيلم أو المسلسل أكثر من الواقع، لأن الواقع جاف يعرض سريعا، أم الأفلام فلها مؤثرات ولها بداية ونهاية سريعة.

**قلت:** إذن فهو يرفض ترك الاهتمام بمشاكل العالم!

**قال:** لقد كان يرى أن من أكبر كوارث العالم هو الشكل الحالي للإعلام، ذلك الذي قطع أواصر العلاقات بين الناس، وسمّر الناس في بيوتهم وأثار البغضاء والشحناء بينهم.

**قلت:** ولكن لا ينكر فوائده؟

**قال:** ومن ينكر، ولكنه ثائر على تأثيراته الاجتماعية الأخلاقية، والتي ساهمت في إلهاء الفقراء وإثارة أحقادهم على بعضهم وعلى أغنياءهم ... ولقد كان يمشي ذات مرة في أحد أحياء مدينة نصر، يتجول على غير هدى ....

**أيقنت أني غفوت مرة أخرى، فقمت لأغسل وجهي وأنا أركز فيما يقول:**

**قادته قدماه إلى أحد مراكز التسوق «المُولات» الشهيرة، فوقف يتأمل كيف يأتي الناس إلى هذا المكان ليتنزهوا ويشتروا ما يَعِنُّ لهم، على الرغم من كونهم في غنى عن هذه النزهة، لم لا يذهبون فيزوروا أقاربهم، بدلا من التجول الفارغ المعدوم الهدف.**

**استوقفه مشهد طفل صغير ممزق الثياب يبدو من مظهره أنه يتسول، توقف أمام عربة من العربات الفارهة، كان أمامها بعض الشباب والفتيات، والتي يبدو من مظهرهم أنهم من ذلكم الشباب التافه المعدوم الهدف في الحياة إلا الانحراف والانحلال والمزاح، لم يَكن يسمع ما يقولون ولكن يبدو أنهم كانوا يسخرون من الطفل. اقترب ليرى وليسمع عن كثب ما يحدث، وجد الطفل ينحني ليلتقط شيئا من على الأرض، فركله أحدهم في مؤخرته فأسقطه أرضاً.**

**فهم الموقف، أحدهم رمى له عُملة على الأرض فانحنى ليلتقطها فركله الآخر، توجه إليهم بكل هدوء ثم سألهم: لم ضربوه؟**

**سخروا منه وأمروه بالانصراف وإلا، وهنا انفجر فيهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا أربعة إلا أنه نجح في ضربهم وتحطيم أنوفهم، وعندما تدخلت إحدى الفتيات قام بتمزيق ملابسها.**

**قلت مازحا:**

**ثم قلب العربة؟**

**قال بجد: لا، لم يفعل، هو حتما ليس الرجل الأخضر، كل ما هنالك أنه كان في ثورة غضب.**

**لم أدر ماذا أعلق أو أقول، فلقد غاب عني جزء من الكلام ولا أدري ما قاله في هذه المرحلة، فرأيت أن أقول جملة عامة يربط بها هو الحديث، حتى أخرج من هذا المأزق فقلت له:**

**يبدو أن هذا الأخ حانق أشد الحنق على الأغنياء؟**

**قال بدون أن يغير وضعه أمام النافذة:**

**المسألة ليست مسألة حقد على الأغنياء، ولكنه يرى أنهم يحملون الوزر الأكبر في تصيير العلاقات إلى ما صارت إليه، وصبغها بصبغة مادية تحسب بالدينار والدرهم والجنيه واليورو، علاقة فردية يتحرك فيها كل إنسان من أجل كينونته، إنسان ينسى رسالته ودوره في الحياة، إنسان يتحرك بانقطاع عن الآخرين كلٌ في جزيرة منعزلة عن الآخرين ...**

**لذا فقد قرر أن تتغير علاقاته بالناس، وتصبح على هذا الأساس، الأساس الذي يتعامل به هؤلاء الناس .....**

**ولا تدري كيف تغير الحال ولا النجاح الذي قابله، طبعا نجاح مادي، تبعا للمقاييس التي يعد بها الفرد في هذا المجتمع ناجحا، وعلى الرغم من أني تركت مجال دراستي وعملت في التجارة الحرة إلا أنني ... وتوسعت علاقاتي لدرجة كبيرة ... أيقنت أني ...**

**أيقنت أني أنا أنام وأستيقظ، فألتقط بعض ما يقوله ويضيع مني الجزء الآخر فقمت لأتجول في الغرفة حتى لا أسمح لنفسي بالسقوط في الإغفاء مرة أخرى، وعلى الرغم من تجولي في الغرفة إلا أني كنت أشعر بصعوبة شديدة في إبقاء عيني مفتوحتين، وأذناي منتبهين لأسمع ما يقول.**

**اتجهت لأغسل وجهي مرة أخرى، وسمعته يقول:**

**يبدو أني أرهقتك كثيرا سيدي الفاضل، لقد احمرت عيناك كثيرا، ولكن أرجو أن تتحملني بعض الشيء أنا أعلم أني أرهقتك كثيرا، ولكن لم يتبق إلا حالة واحدة فقط، ويمكننا القول بكل ثقة أن هذه الحالة قد انتهت تماما، ووضحت وجهة نظرها في علاقاتنا البشرية. ... ما رأيك يا سيدي الفاضل فيما يقول هل تتفق معه أو تخالفه؟**

**هنا شعرت بحرج شديد، واندفع الدم في وجهي وأطار أي أثر أو رغبة في النوم! فها هو ذا يطلب إلي أن أدلي بدلوي في الموضوع وأخبره برأيي في وجهة نظر هذا الشاب. ما هذا الموقف السيء؟! ولكنه على الأقل أفاقني من نومي، فقلت:**

**إن لي في هذه المسألة وجهة نظر خاصة قد تتفق أو تختلف مع هذا الشاب وسأخبرك بها.**

**قال بكل أدب: تفضل دكتوري الفاضل، وأنا منصت لك تمام الإنصات.**

**قلت بعد أن تنحنحت:**

**العلاقات الإنسانية علاقات متشابكة متداخلة معقدة تمام التعقيد، تتفق بين كل الناس في جزء أو أجزاء منها وتختلف في نقاط، تبعا لمبادئ الإنسان وعقائده، بعض منها يخضع للعقل، لذا فهي قابلة للتغير والتطور حسب الزمان والمكان، ومنها غريزي ثابت لا يمكن تغييره مثل العلاقة بين الرجل والمرأة.**

**نعم النقطة التي ركز عليها وهي نقطة المصلحة أو المنفعة تحمل جانبا كبيرا من الصواب، ولكن لا يجب أن ننظر إلى المنفعة دوما على أنها جزء أو جانب سلبي، فهناك الكثير من المنافع حتمي وضروري، فعلى سبيل المثال:**

**ما تركه الرسل هو لمنفعتنا وهم لم يأخذوا منا أجرا مقابل ذلك. المخترعون عندما تحركوا واخترعوا واكتشفوا، ضايقهم شيء معين وقابلتهم عثرات وصعوبات، فحاولوا تجاوزها من أجل صالح البشرية وليس فقط من أجل أنفسهم، لذا ينبغي أن تذم المنفعة عندما تدور في فلك الفرد، فلا يرى الإنسان إلا نفسه ولا يتحرك إلا من أجلها، أو حتى عندما تكون نفسه هي المقدمة على الآخرين دوما، «فما استحق أن يحيا من عاش لنفسه».**

**وطبعاً لن يتحرك الإنسان ويضحي ويتنازل من أجل الآخرين إلا إذا كان صاحب مبادئ، فهي التي ترفع علاقته بالآخرين من المستوى البهيمي المعتمد على اللذة والمنفعة المباشرة إلى مستويات تتجاوز الـ ..**

**فوجئت به ينظر إلي في دهشة شديدة، فقطعت كلامي وقلت له بحذر:**

**ماذا هناك يا عامر؟**

**قال وهو يهرش رأسه:**

**أين الاختلاف يا دكتور عبد العليم، إنك تكرر بالحرف الواحد، ما قلته لك على لسان عادل؟!**

**شعرت بالدم يندفع مجددا إلى وجهي، وشعرت أن درجة حرارته فاقت الأربعين بمراحل، وأيقنت أنه قد فاتني الكثير والكثير من كلام عادل هذا فتلجلجت في الكلام وأنا أرد: أ ... أ ..**

**ابتسم وقال في خبث:**

**إما أنك لم تفهم جيدا، ما قلته على لسان عادل، فظننت أنه لم يقل ذلك، وهذا ما لا أعتقده، أو أنك كنت ...**

**لم يكمل الجملة لأنه –فيما يبدو– لم يرد إحراجي، فقلت له بصوت خفيض، وأنا أتفادى النظر إليه:**

**لا مانع أبدا من اتفاق وجهات النظر بين فردين في مسألة واحدة، هذا شيء مقبول جدا.**

**تجنب هو الآخر النظر إلى وجهي، وقال بعد أن أخفى ابتسامته:**

**هذا وارد جدا، ولن نقضي الليل كله نتجادل في مثل هذه النقطة، فالعمر أثمن من ذلك.**

**قلت وقد أسعدني أنه أدار الموضوع بعيدا عن هذه النقطة:**

**معك حق فالعمر جد ثمين ويجب استغلاله فيما هو نافع، لا أن نضيعه في الترهات.**

**قال وهو لا يزال مبتسما:**

**وهذه كانت مشكلة الحالة الأخيرة، والتي كانت تعاني من مشكلة مع عمرها.**

**قلت بعجب:**

**يعاني من مشكلة مع عمره، كيف هذا؟!**

**قال بهدوء: إسمع لتعرف!**

# أنا وعمري

**قال لي الممرض:**

**لم يبق إلا الزبون الأخير، أأدخله؟**

**قلت ببرود:**

**وهل نطرده أم نطلب إليه العودة في يوم آخر؟ أدخله طبعاً!**

**خرج الممرض وهو يتمتم ببعض كلمات الاعتراض، التي لم أسمعها. وما هي إلا لحظات حتى عاد الطرق مرة أخرى، لاحظت أنه خافت ولكنه متلاحق.**

**أذنت له بالدخول، سرعان ما انفتح الباب ودخل الطارق وأغلق الباب وراءه بسرعة، لدرجة أني لم ألمح وجهه إلا بعد أن أغلق الباب ووقف أمامي.**

**أشرت له بالجلوس. كان فتى حديث السن، بعد جُمل الاستقبال المألوفة والتي أصبحت أؤديها أبرع من أي ممثل مشهور، بدأت في أخذ بياناته الشخصية:**

**اسمه حسن، في التاسعة عشر من عمره، في كلية الألسن، يحمل ملامح جادة لا تتناسب مع عمره، بل إنه يكاد يكون عابسا.**

**إنتظرت للحظات أن يدخل أبوه أو أمه أو أي مرافق له، فلم يأت أحد، كان من الغريب أن يأتي شاب في مثل سنه إلى عيادة الطبيب النفسي منفرداً.**

**قطع حبل أفكاري بقوله: هل من مشكلة، سيدي الطبيب؟**

**لم أرد أن أقول له أنني أنتظر وجود أحد معه، فقلت:**

**«لا» لا مشكلة على الإطلاق.**

**ثم قلت له: خطوة جيدة يا حسن أنك تجرأت وأتيت إلى طبيب نفسي بمفردك في مثل هذا السن.**

رد بسرعة: كان الأمر يحتاج إلى مجيء إلى طبيب نفسي، والأمر لا يحتاج إلى تأخير فأتيت، ولو استشرت والداي لرفضا، فأتيت منفرداً.

قلت: أي أمرٍ هذا الذي لا يحتاج إلى تأخير؟

قال بسرعة: عامةً، كل أمور الحياة لا تحتاج إلى تأخير، أما مسألتي أنا فهي التفكير الذي قادني إلى الحدة والاكتئاب.

قلت مبتسما:

جيد أنك في مثل هذا السن وتفكر تفكيراً جاداً إلى هذا الحد، ما هي المشكلة التي أرقت حياتك إلى درجة الإكتئاب؟

رد بسرعة، تشعرك أنه جهز الإجابات وذاكرها جيدا قبل أن يأتي:

مشكلتي هي: كيف يقضي الناس حياتهم، أو بتعبير أدق، حتى لا نضيع أوقاتنا: «كيف يضيع الناس أعمارهم».

قلت وأنا أنظر إليه نظرة إعجاب، فقليل من يفكر من الشباب:

وما الذي دفعك إلى التفكير في هذه النقطة تحديداً؟

قال: كنت ذات مرة أحلم بالمستقبل وأتصور كيف سيكون بعد تخرجي من كلية الألسن، بعض الأحيان أجعله مشرقا، وأحيانا أراه مظلما كئيبا.

أثناء الكلية كنا ندرس بجوار اللغة الآداب والتاريخ وعادات تلك الدول وتقاليدها، وأنا كطالب نشط كنت أستعمل الإنترنت في الإتصال بأهل هذه اللغة ولقد تعرفت على بعضهم، كان منهم المؤمن والملحد، وسألتهم أيضا عن طموحاتهم وآمالهم في الحياة وكيف يرونها وكيف يعيشونها.

والحق يقال أني صدمت من ملحدة عند سماعي قولها: ثم أموت وأدفن وينتهي كل شيء. وعلى الرغم من معرفتي أنهم لا يؤمنون لا بإله ولا بعث ولا شيء من هذا القبيل، إلا أن سماعها من أحدهم كان ذا تأثير عجيب علي، دفعني هذا إلى معاودة التفكير،

ليس في مستقبلي فقط ولكن في حياتي كلها وفي حياة الناس كلها، تفكرت فوجدت أنه قد انقضى من عمري تسع عشرة عاما، وبعد عامين سأتخرج في الكلية وتنقضي مرحلة من عمري وتبدأ المرحلة التالية.

بهذا تكون قد انقضت مرحلة الإعداد والاعتماد على الغير وبدأت مرحلة المواجهة والإنتاج ونفع الغير، مرحلة الله أعلم بمداها، قد أكون جد محظوظ إذا انقضى على ثلاثة أضعاف ما مر، حتى أتجاوز الثمانين، وسواء مر ثلاثة أضعاف أو ضعفين، ففترة الإنتاج والسعي والحركة هي المرحلة القادمة أي حتى الأربعين من عمري، وبعد ذلك غالباً تبدأ مرحلة جني ما قدمت يداي في هذه المرحلة، قد يستمر إنتاجي، نعم، ولكن في الغالب بعد الأربعين لا حافز للإبداع، وهنا كان لابد من أتوقف وأطرح على نفسي السؤال الحاسم.

صفقت تصفيقة طويلة، وقلت له:

تحليل أكثر من رائع لشاب مثلك يا حسن، اسمح لي أن أهنئك عليه، ويمكنني أن أخمن سؤالك.

قال: نعم، فالأمر واضح، السؤال الحاسم:

ما هو الحل الأمثل لاغتنام العمر –حتى ولو بالحرام– وهذا ما لا أقبله، ولكن لنفترض: فإذا أنت أقبلت على الدنيا ومتعها الزائفة الحلال منها والحرام، فستجد أنك أفنيت زهرة شبابك في العبث واللهو ولم تحقق شيئا، هذا إذا كنت أساساً من الأثرياء، أما إذا كنت من الفقراء أو محدودي الدخل فستجرك مثل هذه الأمور إلى الانحراف والاختلاس والسرقة، وفي النهاية إذا سلمت –وهذا ما لن يكون– من كل مرض نفسي وعصبي وجسدي فسنجد أنك أصبحت صفراً على الشمال، شيئا لا قيمة له في الحياة، شيئا لم ينل الناس منه إلا الضرر.

رجل أضاع فرصته الوحيدة في تحقيق ذاته وهدفه ورسالته، ثم صار عبئاً على الأمة في هرمه، تداويه وتحمله وتضعه، فليته منع عنها أذاه في شبابه وهرمه. وإذا أعرض عن

الدنيا وأعطاها ظهره وأقبل على العمل والسعي بكل جد واجتهاد فسيفنى أيضا زهرة شبابه في العمل، نعم سينفع نفسه وغيره، سيُفيد المجتمع والبشرية –هذا إذا التزم طريق الصلاح في عمله– ولكن عندما يفكر في التمتع بالحياة يجد أن قطار المتعة قد فاته، وأضرب لك مثالاً:

لاعب الكرة يبدأ ويقدم ويشيخ وهو في مرحلة الشباب، وكل هذا في مرحلة العمل الأولى أي من العشرين إلى الأربعين، وعندما ينهي احترافه للكرة يكون سن التمتع قد مضى، ويكون أمامه خياران كلاهما مرير: إما أن يبكي على العسل المسكوب ويعيش عمره، أو يبدأ في التصابي ويدخل مرحلة مراهقة متأخرة فيبدأ في الانحراف على الرغم من كبر سنه.

هذا كله إذا نجح في حياته وجنى ثمار كفاحه المادي، إذ قد لا يوفقه الله فيكدح ويكدح ثم يخالفه التوفيق ...

حتى لا أطيل: المرء أمامه خياران: إما أن يحقق ذاته ثم يترك ذلك لمن يخلفه، ويُمني نفسه أن متعتهم متعة له، وإما أن يُقبل على الدنيا وفي هذه الحالة يفقد نفسه ويضيع مستقبله بيده، وبذلك لا يفعل شيئاً لمستقبله ولا حاضره، ثم يصبح عالة على من يليه، فما الحل؟

قلت في هدوء: ولم التطرف، لم رفضت إمكانية الجمع بين الاثنين؟ ما المانع أن أجتهد وأجدَّ في عملي وأوفق بين هذا وبين متعي؟

رد بسرعة: المانع كبير والحاجز عسير والأمر جد خطير.

قلت وأنا أبتسم:

إذن وضح لي أيها الخبير!

قال: هناك قاعدة متفق عليها وهي أن الواجبات أكثر من الأوقات، هل تعلم لقد كنت أتمنى كثيراً أن يصير اليوم ثمانية وعشرين ساعة حتى أستطيع أن أنام.

قلت: هل أفهم من ذلك أنك تنام أربع ساعات فقط؟

قال: نعم، وحاولت أن أخفضها إلى ثلاث ساعات ولكن لا أستطيع، ولكن سيكون بإذن الله، المهم حتى لا يتفرع الموضوع، لنكن صرحاء، حتى ينجح الإنسان ويتفوق في هذه الحياة لابد أن يكون متميزاً. أو يكون أساسا ممن ولدوا وفي أفواههم ملاعق ذهب، وهناك من يحركها لهم.

وأنا عندما ولدت لم أجد أي نوع من الملاعق، لذا قررت أن أكون متميزاً حتى أستطيع أن أكوّن نفسي وأن أحقق ذاتي، ولكن دوماً تقابلني مشكلة الوقت، فأنا لا أعيش في جزيرة منعزلة عن العالم أو في صومعة حجرية، أنا أعيش في أسرة لها واجباتها عليّ، وبعدما أنهي علاقاتي وحقوقهم علي، أجد أن الوقت المتبقي لي غير كاف.

أنا إنسان يبحث عن التميز، ولا بد من بذل مجهودات مضاعفة، أي إنسان يبحث عن التفوق ينفق الساعات الطوال في العمل، والأوربيون يبذلون الساعات الطوال في العمل ثم ينحرفون في آخر الأسبوع من أجل التنفيس عن الكبت الذي يلاقونه طيلة الأسبوع، أما نحن فلا يمكننا أن نفعل فعلهم وبالذات أنا، فأنا لا أضمن حياتي للحظة واحدة، ولقد وضعت لنفسي هدفاً أجتهد كل الاجتهاد في الوصول إليه، هدف نبيل أرجو من ورائه عائداً مادياً، وإن لم يكن في المرتبة الأولى للسعي، ولكن المشكلة يا سيدي أن هذا الهدف سيطر علي تمام السيطرة، فلم أعد أشعر بمتع الحياة، مللتُ عبث الشباب، بدأت أشعر أني كهل القلب، فتى الجسد، كل هذا من أجل الهدف، بدأت أشك في أني سأتزوج، وحتى إذا تزوجت فهل سأجد الوقت الكافي؟!

بدأت أشعر أني إنسان غير طبيعي، ويمكنك توصيفي كإنسان «شاذ» عاف كل شيء إلا هدفه وعلى الرغم من ذلك يصر على التمسك بدنياه، حتى لا يقع في فخ الشذوذ، إنسان يقاتل ليبقى طبيعياً.

****

قلت وأنا أفرك عيني:

مسكين هذا الشاب، شاب يحرق زهرة شبابه من أجل هدفه، شاب يريد أن لا يضيع عمره فيما لا ينبغي، ليت لنا كثير من أمثال هذا الشاب، شاب ذو عزيمة، ماذا قال بعد ذلك؟

إتجه إلى النافذة وأخذ ينظر إلى قرص الشمس الذي بدأ في الظهور، وإلى الأشعة التي بدأت ترسلها إلى الوجود معلنة بدْأَ يوم جديد، ثم التفت إلي وقال وهو يرتكن إلى النافذة:

لقد قال الكثير والكثير، كم هو رائع هذا الشاب، كم كان يحترق قلبه على واقعنا وعلى شبابنا وعلى زملائه، ويتألم لأنه يضطر أن يسايرهم في بعض أفعالهم حتى لا يقع في شَرك العزلة.

لقد حكى لي الكثير والكثير، ولكن لا أعتقد أن الوقت كاف لهذا، فلقد أوصلت لك حيرته في تمضية وقته.

إلتفت إلى النافذة وقال:

وقته ووقتنا الذي نضيعه في عبثيات وترهات لا طائل من وراءها، هل تعلم أن هذا الفتى كان له أشد التأثير فيّ، حتى أنني اقتنعت بمبدئه في ضرورة عدم التفريط في لحظة واحدة من الحياة إلا للضرورة القصوى.

عقد كفيه خلف ظهره ثم قال:

أعتقد أن ما أردت إبلاغك إياه قد تم، وحان ميعاد الانصراف، لا أريد أن أمنعك أو أحرمك من الإفطار مع أسرتك.

قلت بدهشة:

ألا تعتقد أنك نسيت شيئاً هاماً؟

قال بدون أن يلتفت:

وما هو؟

قلت:

تعليقي وتقييمي على ما قلت وحكيت.

قال بغموض:

لا لقد انقضى الوقت هذه المرة سريعاً، ولا أعتقد أن الوقت كاف، ربما أستمع منك في المرة القادمة.

سألته: ومتى ستأتي مرة أخرى؟

قال وهو يهز كتفيه:

لا أدري ولكن عندما يعنّ لي أن أحكي لك بعض الحوارات فسآتيك.

قلت: أي حوارات؟

قال وقد ظهرت نبرة جزلة في صوته:

ما لم أخبرك به هو أني أقمت بعض الحوارات بين هؤلاء الشواذ في عيادتي، كنت أقوم فيها بدور المستمع غالباً، حوارات عن وجهات نظر شاذة، حوارات تستحق أن نفرد لها ليلة كاملة.

إتسعت عيناي، لقد دار رأسي من هذه الليلة، فكيف ستكون الليلة القادمة التي أسمع فيها حواراتهم لا خواطرهم وأراءهم.

ثم جحظت عيناي بشدة، عندما فوجئت بعامر يقفز من النافذة بدون أن يصدر أي كلمة.

إتسعت عيناي وتجمدت أطرافي.

لم أستطع أن أتحرك خطوة إلى الأمام، ما هذه الحماقة التي قام بها؟ هل جاء إلى هنا لينتحر؟! ثم... ثم .. أين وعده الذي قطعه بالعودة وقص القصة؟

بقيت في مكاني هكذا متسمراً لدقائق، إلى أن فوجئت بالباب يُفتح ويدخل عامر

مبتسما:

معذرة لقد نسيت المفاتيح.

صرخت بانفعال شديد:

ما هذا الذي فعلته؟ أأنت مجنون؟ لم فعلت ما فعلت؟

قال مبتسما وهو يربت على كتفي:

لا، ولكني قلت لك أني سأخبرك كيف انصرف هادي، وها أنا ذا قد فعلت وخاصة أنك في الدور الأول بعد الأرضي، إطمئن سأعود لأحكي لك الحوارات، السلام عليكم.

رددت السلام وأنا لا أزال ذاهلاً، متجمدًا في مكاني، لا أعرف ماذا أفعل؟ وكيف أصف حالة تلميذي العزيز؟

لم أجد بُداً إلا الاعتراف بأنه صار الشاذ الثاني عشر، ولم أستطع أن ألومه على ما فعل.

تمت بحمد الله تعالى

إنتهت هذه الخواطر في يوم الإثنين الثاني من شهر يوليو، السابع عشر من شهر جمادى الآخر 1428هـ، في تمام السابعة إلا ربع بعد العصر.

# مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

# الفهرست